

كتب غيرة الفكر الإنساني

الجزء الثامن



أحمد محمد الشنواني



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الأشرف العام

الدكتور / ممدوح مرشان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

مكتبة التحرير

علياء أبو شادي

المقر الفني العام

محسنة عطية

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثامن

أحمد محمد الشنواني



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٩٨

فهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
١١	● انشودة النيل ح ٣٠٠٠ ق م
٢٥	● اسطورة سميراميس أسطورة آشورية ح ٦٠٠ ق م
٣٥	● ملحمة الراما يانا فالميكى ح ٤٠٠ ق م
٥٩	● خطب ديموستين ديموستين ٣٦٠ - ٣٢٢ ق م
٨١	● ديوان ابو نواس أبو نواس
٩٩	● كتاب الزهرة ابن داود الظاهري ٨٩٥ م
١٣٣	● مروج الذهب المسعودى القرن العاشر الميلادى
١٥١	● مقامات بديع الزمان الهمداني القرن العاشر / الحادى عشر الميلادى
١٧٣	● الديكاميرون بوكاتشيو القرن الرابع عشر الميلادى
١٩٧	● رحلات جليفر سويفت ١٧٢٦ م

الموضوع	الصفحة
● الرسائل فولتير ١٧٣٢ م	٢١١
● دينيه شاتوبريان ١٨٠٢ م	٢٣٥
● بيرجنت أبسن ١٨٦٧ م	٢٥١
● الادارة العلمية فريدريك تايلور ١٩١١ م	٢٧٩

مقدمة

زاد أى شعب هو القراءة ، يقبل عليها ويشبع بها جوعه الى العلم والمعرفة واللوان الحضارة • ان الحث على القراءة خير ما يوجه الى الافراد والجماعات ، فى جميع الامم والشعوب ، بل هو خير ما وجه الى الانسان منذ تحضر الى الآن •

ولقد بدى تنزيل القرآن بفعل قضير خطير هو كلمة « اقرا » ، فكان اول ما خاطب به النبى (ﷺ) وخوطب به الناس من بعده هو هذا الامر الكريم بالقراءة •

وكان صاحب المنطق — كما يسميه الجاحظ — يقول ان الانسان حيوان ناطق • وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من ادارة اللسان فى الفم باللفظ الذى يبلغ السمع ، فينقل اليك ما فى نفس محدثك ، كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعبير جميعا ، لكن أرسطاطاليس لم يعرف الانسان بأنه حيوان ناطق فحسب ، وانما وصفه بأنه مدنى بالطبع ، كما ترجم القدماء ، أو أنه اجتماعى بالطبع ، كما يترجم المحدثون •

وما نعرف شيئا يحقق للانسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ • وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ • فالكاتب يفكر قبل أن يكتب وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ •

وكذلك يمضى الانسان فى تحقيق هاتين الحصلتين اللتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرقى ، وهما العقل والمدنية • فاذا أمر الله الانسان بأن يقرأ ، فانما يأمره بأن يطمح الى الكمال ، ويسعى اليه ، واذا كانت القراءة أخص مميزات الحضارة ، تكثر وتنتشر اذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل اذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام

أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الانسان بأنه حيوان قارىء دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد اليه أرسطاطاليس - كما يقول د . طه حسين - .

وكانت القراءة فى أول أمر الانسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رقى الحضارة واتساعها يدعو إلى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية ، التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات .

وإذا القراءة تصبح حقاً شائعاً لكل انسان ، بل واجباً محتوماً على كل انسان يريد أن يحيا حياة صالحة . وإذا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس . ونحن نعلم أن الدول إنما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلاً جداً مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصفى الذوق ، ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق . وحيثما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا اليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس .

والانسان مشوق بطبيعته إلى الرقى ، ولكنه مدفوع إلى حب اليسر ، وإيثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة ، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضرراً هو الذى يشيع وينتشر ، مع الأسف الشديد ، فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة التى يكفى الانسان أن يمد يده ليتناولها ، وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها القارىء دون أن يشق على ماله ويقرؤها دون أن يشق على عقله - هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القارىء بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه ، وهى خصلة الكسل ، وإيثار الهين من الأمور ، فلا بد إذن من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولا بد من أن تقرب القراءة المتعة الحسنة إلى الناس حتى يستطيعوا أن يقرءوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم .

وليس كل ما ينتجه العقل الانسانى ييسر القراءة للناس ، فهناك الممتازون فى الثقافة ، ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة . وليس من اليسير أن يسبغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه

الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء . وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الانساني من الانتاج . فلا بد اذن من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لابد من أن يرتفعوا اليه شيئا ومن أن يهبط هو اليهم شيئا ، حتى يكون هذا اللقاء الجلل الذي يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب

كل هذه الملاحظات دعتنا الى التفكير في كتابة هذه السلسلة من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانساني » ، التي جمعت بين دفتيها أكثر من مائة كتاب من الكتب الرائدة والحالدة ، والتي أثرت تأثيرا عظيما على الفكر الانساني على مر التاريخ .

ان أهمية هذه الموسوعة أن بها تعريفا لأهم الكتب الحالدة على مدى التاريخ ، يفرى القراء المثقفين بقراءة الأصول ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل الجمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الماما جيدا ، وكذلك يسعف ذاكرة قارئ الأصول على تذكر ما وعى منها من دروس .

وقد كان في نيتنا في تلك الأجزاء الثمانية أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع ، وأنفعه ، فهي تجمع من كل فرع من فروع الانتاج العقلي ، وفي كل لون من ألوان النشاط الذي يجعل العقل الانساني منتجا في جميع فنون المعرفة . . ذلك لأننا لا نفكر الا في شيء واحد وهو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، ولا نريد الا أن يقرأ القارئ العربي وأن ينتفع ، وأن تدعوه هذه القراءة الى الاستزادة من الثقافة والطموح الى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي يحيها .

وبعد . . . فهذا الجزء الثامن من موسوعتنا « كتب غيرت الفكر الانساني » ، التي جمعت فيها مجموعة من الكتب الهامة على مدى تاريخ الفكر البشري والتي كان لها أكبر وأعظم الأثر في تغيير فهم الانسان لنفسه وللمجتمع الانساني من حوله .

ان الموسوعة بأجزائها الثمانية - هي خلاصة قراءات للكتب ، عربية وغربية لفت نظري اليها ما فيها من فكر وتجربة وخبرة .

لهذا عمدت الى أن أضعها بين يدي القارئ لعله يجد فيها ما وجدت . والله أسأل أن ينتفع بها ويجعلها خالصة لوجهه والله المستعان أن يحقق بها الفوائد وهو حسبي وكفى .

أنسودة النيل
من الأدب المصري القديم
٢ ٣٠٠ ٣٠٠

تقديس قدماء المصريين للنيل

لما رأى العالم القديم فرغون سيّدا للنيل ، هالهم أمره فنسبوا إليه كل شيء : نسبوا إليه النسيم الهفاف والريخ الباردة الآتية من البحر الأبيض التي تسير العمران في مصر ، وكذلك القمر والنجوم والشهور والأيام والساعات .

ويلتمس ارمان (١) لهم العذر في تقديسه والمغالاة به :

« ونحن نعذر المصري اذا كان قد أفسح لخياله المجال في تقديس النيل ، تلك القوة التي تأتيه بالأعجوبة السنوية والتي تهيم على حياته ، فلا غرابة اذا كان قد جعله واحدا من بين آلهته العظمى ، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى . . . فمع أنهم اعتادوا تقديس القرابين وتأليف الأناشيد لتمجيدته ؛ فإنهم لم يضعوه في ذلك المستوى الذي وضعوا فيه آلهتهم الأخرى . واذا كانوا قد لقبوه في بعض أناشيدهم « بأبي الآلهة » فإن هذا اللقب قد استعاروه من الآلهة « نون » رب الماء الأزلي والسبب في ذلك أنه ذكر في نص من النصوص الدينية أنه ينبع من هذه المياه . . . »

ومن الغريب أن النيل على حبهم له ومغالاتهم به . . . قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم ، فصوروه على جدران المعابد بزي البحار أو صياد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته إلى الآلهة الكبار . »

ويخالف صموئيل مرسية ارمان في عبادة النيل . فصموئيل يستبعد صفة الألوهية ، ويرى أن تقديسهم إياه كان إعجابا أكثر منه تأليها كان بهرا وتقديرا وعرفانا أكثر منه عبادة واعتقادا .

(١) انظر كتاب (مصر والحياة المصرية في التصور القديمة) تأليف أدولف ارمان وهرمان دانكه .

وتقول د. نعمات أحمد فؤاد في كتابها « النيل في الأدب المصري » :

« ونحن نلاحظ أن النيل لم تكن له معابد يعبد فيها إذا استثنينا معبد حعبي الذي ورد ذكره في بردية هاريس وبردية ولبور . . ولكنه كان يحتفل بفيضه في كل مكان بتقديم العطايا وأداء بعض العادات . . . »

وفي الوقت نفسه انعقدت الصلة من وقت مبكر بين النيل وأوزوريس ، أحد الآلهة العظام في مصر ، وذلك ما قدر له منزلة كبيرة في عقائد المصريين فحلت إلى جانبها أهمية كثير من الآلهة . كما سمي في بعض الأحيان أبا الآلهة . وهو كذلك أحد الآلهة في قائمة الآلهة في معبد خنوم في اليفنتين

وقال بعبادة النيل في مصر القديمة الدكتور باهور والاستاذ عبد القادر حمزة . . .

والحقيقة في أمر النيل أنه كان في مصر القديمة « اله » (حعبي) ويمثل بهذه الصفة على جدران معابد غيره من الآلهة . ولكنه هو لم تقم له معابد وليس له كهنة شأنه في هذا شأن جب اله الأرض ونوت الهة السماء . . ولكن إلا يدل هذا على أن النيل والسماء والأرض أكبر من أن تقام لها معابد لأنها مظاهر كبرى للطبيعة ماثلة في كل مكان في . . . في كل عين . . . ١٩ . . .

إن النيل لم يعبد مثل آمون أو تحوت أو أوزوريس ، ولكنه لم يكن دونها في رأى المصريين . . .

للنيل عناية خاصة

اتجهت جهود الفراعنة منذ بدء مدنياتهم الزاهرة الى المحافظة على النيل ، استخدموا الوسائل المختلفة لهذه الغاية ؛ حتى استطاعوا أن يضربوا للامم الأخرى مثلا حيثما بتلك الأعمال العظيمة التي قاموا بها وما نزال نشاهد آثارها حتى الآن .

ولقد أولوا النيل عناية خاصة لأنه مصدر حياتهم ومنبع أرزاقهم ، فاجتهدوا في المحافظة على مجراه ودفع الفوائد عنه .

يقول العلامة أمين سامى باشا :

« ولما كانوا يقاسون ألوانا من العذابة فى تطهير مجرى النيل من هذه الرمال التى تاتى بها الريحاح من الصحراء وتطمر مجراه الذى كان بالقرب من مكان الهرم الأكبر ، فقد فكروا فى أن يقيموا هدفا عظيما يمنع الرمال من طمر مجرى النيل ، فبنوا الهرم الأكبر ذا السطوح المائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وهذه المزية لا تتوافر فى سطح أى جسم آخر . وقد عانوا فى تشييده ما عانوا ، وأبدعوا فى هندسته ابداعا شهد ببراعتهم وأحكموا وضعه احكاما هندسيا وفلكيا دل على سعة باعهم ووفرة علمهم ، حتى انهم استطاعوا أن يحكموا الفتحة التى فى منتصف أسفل الجهة البحرية على امتداد محور العالم ، وجعلوا الفتحة القبلية فى أعلى السطح المقابل ، تدخل منه أشعة ضوء « الشعري » على جثمان من سيدفن فى هذا الهرم .

ذلك هو أهم البواعث على بناء الهرم الأكبر وغيره من الأهرام ، وليس الباعث كما يقولون انه أنشئ ليكون مدفنا . نعم قد دفن فيه منشئها ولكن هذا لا يحتم انه بنى لهذا الغرض ، فان كثيرا من المساجد فى عصرنا وفى العصور الماضية دفن فيها منشئوها ، ومع ذلك ليس هناك من يقول انها بنيت لتكون مدافن .

وبأنشاء الهرم الأكبر استراح المصريون القدماء من العذاب الذى كانوا يعانونه كل عام فى ازالة تلك الرمال ، التى كانت تعوق سير النيل وتمهد طريقه الى الوجه البحرى، وتولدت أراض زراعية فسيحة وسميت بهدية النيل . وعلى منوال هرم الجيزة بنيت أهرام أخرى من الحجر واللبن فى الجهة الغربية دون الجهة الشرقية التى كلها أحجار وجبال .

وقد عنى الفراعنة بأنشاء خزانات فى مجرى النيل - وأثارها معروفة الآن باسم الشلالات - وصنعوا «سيالة» فى كل خزان تفيض منها المياه الى ما بعدها بقدر معلوم . وما يلفت النظر أن فى وادى حلفا بالقرب من قرية «سمنه» صنخورا وعرة المرتقى رأسية الوضع على حرف النيل بها كتابات بالهيروغليفية ، وعلى ارتفاع سبعة أمتار من سطح المياه فى أعلى أيام الفيضان الآن . وهى تدل على أن النيل بلغ فى عصر الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة أقصى زيادته ، اذ وصل الى موضع الكتابة فى هذه الصخور .

وقد كان الفراعنة يقيمون قراهم وبلادهم في الجهات المرتفعة .
وكان المصريون يسرون بالفيضانات العالية ؛ لأنها تكسب الأرض خصبا
يغنيها عن التسميد ، ولأن بلادهم في مأمن من الفرق ولكن كان يؤلمهم أن
يتأخر هبوط النيل عن شهر بابه .

أعياد النيل

عرف من الآثار التي استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيل
احتفالات تشبه الأعياد ، ولم يذكر المؤرخون عنها الا شيئا قليلا ، فمن
ذلك ما قاله « بلييني » المؤرخ الشهير « ان المصريين في عصره كانوا يقدمون
الغداء للتماثيل ويلبسونها بعض الثياب في وقت الفيضان ويلقونها في
النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة في منظر بهيج يروق الناظرين » .

والذي لا شك فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التي تقام
لفيضان النيل سنويا ، كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم
للنيل ، وكان رؤساء النيل يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة .

وجاء أيضا ما نصه « يستقبل الشعب المصري بالفرح والسرور
ظهور مياه السلسلة المقدسة . ابتهاج النفوس وفرحها بمجيء النيل أمر
طبيعي ، ويجب أن يعد فيضانه في مقدمة الأعياد التي بحلولها يهنئ
المصريون بعضهم بعضا » .

وجاء في أنشودة النيل المكتوبة في ورقة أنسطاسي البردية ما نصه :
« أيها الفيضان المبارك قدمت لك القرابين والذبائح ، وأقيمت لك الأعياد
العظيمة وذبحت لك الطيور واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال ، وأعدت
لك النار الطاهرة ، وقدم لك البخور والنعم السماوية والعجول والثيران
فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك » .

وجاء ذكر أعياد النيل في مائدة البقرايين محفوظة في متحف فلورانس
ويرجع تاريخها إلى ملوك الأسر الثلاث الأولى .

وقال « ماسبيرو » في هذا الموضوع : « عثينا يصل الماء المقدس إلى
جدران مدينة «سين» ، يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثورا أو بطا
ويلقيه في الماء في حرز من البردي مختوم عليه ويكتب في الحرز الأمر

الملكى الخاص بنظام الفيضان ومتى ترأس الملك نفس هذا الاحتفال . نقشوا فى الصحراء وسجلوا هذا الحادث تذكارا تاريخيا . واذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، حاملين تمثال المعبود سائرين به على ضفاف النيل والجسور مرتلين الأناشيد » .

من المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد السلاسل الثلاث ويرجع تاريخها الى عهد الملك رعمسيس الثانى ومنفتاح ابنه ، ورعمسيس الثالث ، وهى تنقسم الى جملة أجزاء : فبعد مقدمة رعمسيس الثانى تقرا انشودة النيل وخطاب الملك بالتهليل للمعبود ، ثم القرار الذى يحدد تاريخ الأعياد ويلحق به كشف القرايين وملخص ترجمته كالآتى :

« فى السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد واليوم العاشر فى عهد المنير الشمس الملك القادر المحبوب من الحق صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البلاد الجبلية حورس الذهبى المديد العمر المبارك ، ملك الوجهين البحرى والقبلى رعمسيس المحبوب من آمون (أبو الآلهة) الذى يمنحهم الحياة والبقاء والقوة كالشمس الى الأبد فليحيى الاله الطيب النيل الذى يحيى النفوس بجوهره والثروة بثرائه . أنت أيها الوحيد الذى تظهر من نفسك ولا يعرف أحد ما تحويه والكل يفرح بظهورك من مخبئك فيك تربي الأسماك العديدة ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقت لأجلنا ويسر بك الناس والمعبود (نون) متى قدم له القرايين بين أهالى البلاد ، واتحدوا معه فى فرح التحية بقدوم النيل المضى . فخيراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتتدفق ببركاته » .

« وقد أمر الملك بتقديم القرايين لأبيه آمون رع ملك الآلهة مرتين فى السنة ، فى زمن مياه السلسلة المقدسة وفى مكانه المكرم الذى لم تكن قبله مياه . حياة وسلام وقوة » .

« فتقدم القرايين فى اليوم الأول من شهر سايت وفى الخامس عشر من شهر توت وفى الشهر الثالث من فصل الفيضان والخامس من شهر أبيب كضريبة سنوية » .

« ويلقى فى النيل عجل أبيض وثلاث اوزات وهدايا ثمينة (لا بنت عنذراء كما يزعمون) ثم الكتاب الشامل لتفصيلات المهرجان وأنواع الهدايا للاله آمون ملك الآلهة ورب مدينة طيبة » .

وحى النيل فى الأدب

ونقف الآن وقفة خاصة عند وحى النيل فى الأدب وأثره فيه
يعتز الأدب بقصة حورس وست وهى من أهم القصص التى أمدتنا
بها أوزاق البردى كأمته وحورس هو ابن أوزوريس وايزيس .

ويرى الدكتور أحمد بدوى أن أساطير المصريين التى تدور حول
حياتهم ووسائلهم فى العيش وآمالهم فى الخير والخلود كأسطورة
« اوزوريس » وأسطورة البعث وأسطورة (الحق والباطل) وغيرها،
يراهن عن يقين « انها كانت جميعا من وحى النيل وطبيعته التى صنع بها
هذه الأرض ، وصنع بها الخلق المصرى والطبع المصرى والعقائد المصرية
أيضا » .

وقد دارت حول النيل ، أساطير كثيرة فاذا تجاوزنا الأساطير وجدنا
النيل قد أوحى من الأناشيد ما لا يزال منقوشا على حوائط الأهرام الى
اليوم .

من متون الأهرام

« انهم يرتعدون أولئك الذين يشاهدون النيل عند ما يفيض
ان الحقول تضحك والفيضان يغمر شاطئ النهر وتخرج قرابين
الآلهة وتضىء وجوه البشر وتتهلل قلوب الآلهة » .

كما ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط الأهرام أناشيد
موجهة الى النيل منها نشيد بذكر قدوم فيضانه الى مصر فيقول :

« ان ماء الحياة الذى فى السماء ان ماء الحياة الذى فى الأرض
يأتى . فالسما تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) والأرض
تزلزل من أجل ولادتك ، لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود ان
المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) .

كم أوحى النيل من أناشيد ! . فالفيضان لا تكاد تباشيره تبدو حتى
ينطلق الفلاحون فى مصر القديمة مرنين :

« أقبل تحوت ،

بالماء الى الحقول ،

وترتوى الأشجار ،

وحتى تغذى الأرض كلها » .

وقد أورد الأستاذ جمال الدين الشيال أغنية يتحدث فيها الرجل
عن حبه :

« سارتقى صفحة النيل ومعى حزمة من الغاب أحملها على كاهلى ...
سأذهب الليلة . فالنهر خمر ، بتاح غابه ، وسوخمت لوتسه ، وأبارت
براعمه ونفرتم أزهاره ... انظر الى الفجر وممفيس تبدو (كأناء مترخ
بالفاكهة وضع أمام نتاح الاله ذى الوجه الحسن ...) .

وكانت الأم المصرية تتلو هذه الرقية قديما لتدرا الشر عن وليدها
وتطرد عنه الشياطين فتقول :

« اخرج يا من يأتى فى الظلام وتدخل خلصة ، هل أتيت لتقبل هذا
الطفل ؟ لن أسمع لك بتقبيله ، هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمع لك بأن
تأخذه منى لقد حصنته منك بعشب أفتيت الذى يؤملك ، وبالبصل الذى
يؤذك وبالشهد حلو المذاق فى فم الأحياء ، مرا فى فم الأموات ، وبالأجزاء
الخبیثة من سمك الأبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر ، » .

ومن كتاب (شكاوى الفلاح) : « كن كاله النيل يجعل الأرض الجدباء
أرضا خضراء ، ولا تكن كالسيل يدمر ما يأتى عليه واحذر الآخرة » .

وفى الانشودة الكبرى التى صلى بها أختاتون لمعبوده الجديد :

لقد خلقت النيل فى العالم السفلى

ودفعت به الى (أعلى) حسب مشيئتك

لتحيى به البشر يا سيد الجميع

لقد جعلت نيلا يهبط اليهم من السماء
 وجعلت لهم أمواجاً تتدافع على الجبال كالبحر
 فتجد حقولهم ما تحتاج اليه من الماء
 ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية !
 وهبت نيل السماء لشعوب الجبال
 فأحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه
 أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى .
 ويلمحه أخناتون مرة أخرى في نشيد . مما قبسته عنه الزامير في
 رأى كثير من المؤرخين وخاصة العالم جيمس هنرى برستد :

وعند ما يصبح الصباح وتطلع من الأفق ،
 وعند ما تضيء كاتون أثناء النهار ،
 تطرد الظلمة ونهب أشعتك ،
 فالأرضان في عيد كل يوم ،
 ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،
 لأنك أنت الذى أيقظهم

انهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ،
 وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
 لأن الطريق كلها مفتوحة عتلتها تظهر ،
 وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،
 لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط ،

أنشودة النيل

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد في المناسبات التي ترقح النفوس فيها الى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخارا واستلذاذا واستبقاء لحسن الأحدوثة، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات . والنيل عند قسماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الأفراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده ، وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شدة شعورهم ، من بينها الأنشودة التي نمتها في عصره الشاعر المصري القديم ووجلت مكتوبة في لوحين على الورق البردي معروفين بورقتي ساليير وأنسطاسي ، وهما من مجموعة الأوراق البردية المحتفظ بها الى الآن في المتحف البريطاني وترجمها العالمان الأثريان الشهيران ماسبيرو وجيمس ، وهما اللذان نقلها من الشعر المصري القديم .

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج الى هذه الأرض وتأتى لتحيا مصر . يا من تخفى في الظلمات مجيئك . انك اللجة تنتشر على الحقول التي يخلقها رع . انك تعطى الحياة جميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء . ومتى هبطت فانه جب الى الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، ونابرى الى الحبوب يقدم قربانه وبتاح ينشر الرخاء في دار صناعته .

« أنت سيد الأسماك ، متى جرت الشلال . لم تعد الطيور ترتى متردية على الحقول . أنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد .

« أنت من اذا ضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من الناس في البؤس . واذا قل ماؤه في السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من في الأرض كبيرا أو صغيرا يعاني العذاب .

« أما اذا أجيببت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهم خنومو .
فان الأرض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز
من الضحك ، وكل سن يقطع . »

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من المأكولات . هو موجد
جميع الأشياء الطيبة . هو سيد جميع النطف والجراثيم . هو حلو للذين
يسطفونهم . هو موجد العلف للمواشي ، والقرايين لجميع الآلهة . والبخور
الذى يأتى منه أجود من كل بخور غيره . وانه ليفيض على البلدين . فتمتلئ
مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء . »

« انه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص
شيئا منها . وهو منشئ السفن . وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب
من الحجارة أو أن تنحت له تماثيل يوضع له التاجان عايتها . وهو لا يراه
الراؤون . ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ولا يفتنونه
بالكلمات ذات الأسرار الخفية ، ولا يعرفون مكانه ولا يقفون بالكتابات
السحرية على صندوق ذخائره المقدسة . »

« وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابى ، ولا من انسان
يدخل قلبك . وأبناؤه وذرايرهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى
أوامره على الأرض كلها ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء ،
ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراتة بغير حساب . »

« وأينما يوجد الألم فانت تحوله الى فرح . وحينئذ يبتهج كل قلب ،
ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت من الطرب لأن التتسيح الالهى الذى
يرافقك ينظم كل شيء . فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط
فى الرجال ، واذا ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه
الى القضاء . »

« واذا كنت تدخل فى خلال الأغاني . وتخرج من خلال الابتهاج ،
ثم اذا كان الناس يرقصون طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك
لأن تشاقلك اضمحلال وفساد . واذا ذاك يجتمع للابتهاج اليك والحصول
على مائك السنوى . أهل طيبة جنبا الى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد
منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس

ملابس الأعياد التى كان قد تعودها • وأبناء توت اله الغنى ، لا يتجملون بالحلى • ومثلهم التتسيح الالهى • والليل عام شامل ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا •

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه اليه رغبة الخلق ، ها هي ذى كلمات مزوقة لكى تجيب ، ان أنت أحببت وأعطيت أمواج الأقيانوس السماوى ، فان نابرى اله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل •

« لو أن ما تعجنه يداك كان ذهباً ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهباً ولا فضة ولا لازورد ، وانما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة •

« لقد بدءوا ينشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدي • وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل النناء عليك • ولا عجب ، فان اله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ويحب أن يتكاثر عدد القطعان •

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بازهار اللوتس ، وصار كل شئ ثابتاً ومن صنف جيد •

« انه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، واذا هو لم يطعم الناس هجر النعيم المساكن وأصيببت الأرض بالاضمحلال •

أُسطورة سميراميس
أسطورة آشورية

٢ ٦٠٠ ق.م

« لقد خلعت على الطبيعة صورة امرأة ولكن أعمالى قد فاقت أعمال أشجع الرجال »

اختلف المؤرخون في حقيقة سميراميس ، فقال بعضهم ان وجودها خرافة ، ويؤكد آخرون أن الأعمال التي تنسب إليها متداخلة في تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهري دجلة والفرات . . أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس الهة أسطورية شرقية . . هي عندهم كفينوس عند الرومان . . وأن اسمها ، ومعناه الحمامة ، إنما أطلق عليها لأن الحمام احتضنتها عند مولدها وغذتها ، وهم يرونها رمز الحب والسعادة ، وفرح الرجال ، والظفر في الحرب . . كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدئ الخير والشر على ظهر الأرض . . !

حتى جاء عام ١٩٠١ وكشفت البحوث التي قام بها البروفيسور « ليمان هوت » الألماني عن حقيقة هذه الأميرة ، وأعادها الى مكانتها الرفيعة في تاريخ آشور وبابل . ووضع الأمور في نصابها .

وقد استطاع البروفيسور ليمان هوت أن يفند الأساطير التي أتى على ذكرها كل من « ديودور الصقلي » ، و « جوستن » وغيرهما حول هذه الملكة ، ودلل على أنها كانت حقيقة لا مرء فيها .

★★★

ولكن ماذا تقول الأساطير عن سميراميس . . ؟ تقول :

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات في جبال أرمينيا ، ففاض النهر ، وتدفقت مياهه ، وخرجت الأسماك تستلقى وتمدد على أديم الأرض . .

وبين تلك الأسماك ، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء ، فسبحتا إليها ، ودفعتاها أمامهما الى الضفة . . وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة ، ثم ظلت تحيها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا الى مجرى النهر . .

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست ، وذن داخل البيضة خرجت الربة « ديركيتو » بوجه امرأة .. وجسد سمكة ... !

وأعجب الاله الأعظم بالربة الصغيرة ، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها ، وتمثل اعجاب الاله في وعد قدمه اليها بأن تطلب منه أى شيء تريده .. ولم تدع « ديركيتو » الفرصة تضيق .. فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان .. فرفعها الاله الأكبر الى السماء .. وجعلها ألمع نجمتين في برج الحوت .. !

ورغبت الربة « ديركيتو » في أن تحمل .. والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن .. وحملت الربة ، ثم وضعت طفلة لها جسد انسيان كامل .. يشع من بدنها النور لبروعة ما منحته من ألوان الجمال .

وأطلت الربة « ديركيتو » الى ابنتها .. وملاها الذعر .. وقد أثار رعبها ألا تكون طفلتها في شكلها الالهي .. مما يجعل الربات الأخريات ينظرن اليها بعين الريبة والشك ، ويعيرنها ، ويتهمنها بما هي منه براء .

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة الى البادية .. حيث تركتها هناك عارية مهملة .. ليس حولها من شيء على الاطلاق سوى البرد والريح والزمهرير .. والجوع القاتل .. !

وكان بيلوس .. اله نينوى العظيم .. يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى في العراء بغير سلاح أو معين .. فأرسل من السماء رسوله « ينبو » يرعاها ويحميها ، ويحمل معه سربا من الحماثم يرف بعضها عليها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل ، وتنطلق الأخريات الى حيث ينزل الرعاة فتحمل اليها بمنساقيرها تقطا من الحليب تقطرها في فمها لتغذيها وتروى ظمأها ... !!

ومع مرور الشهور والسنين ، تحولت الحماثم الى الأمكنة التي يضع فيها الرعاة ما يصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ما تسع مناقيرها ، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حماثمها سعيدة لا تعرف قط طعم الشقاء .

وكان الرعاة اذا عادوا في المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون ، ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون ..

وشهد الراعى الحمائم وهى تحط حول الجبن وتلتقط قطعة صغيرة فتحملها بمناقيرها الى مكان تطير اليه . واخبر الرقيب رفاقه فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا الى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة . . فآخذوها الى خيامهم ، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها فى سوق « نينوى » العظيم . .

وحمل الرعاة الصبية الحسناء الى نينوى . . وكانوا قد سمروا سميراميس . . وهى تعنى الحماة البيضاء .

واتفق أن كان يوم وصولهم الى المدينة يوم الزواج الذى يقام كل عام ، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان ولشابات قادمة من كل نواحي المملكة ، لينتقى كل شاب عروسا شابة ، أو ينتقى صبية يحملها الى داره فيربها الى أن تبلغ سن الزواج . . فيتزوجها . . أو يقدحها عروسا لأحد بنيه . . !

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء الى حيث يعرضونها للبيع . . وبينما هم يضعونها فى أول الصف ، اذ شاهدهم « سيما » ناظر مرابط خيول الملك ، وكان « سيما » عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه الى سميراميس ، ورغب فى تبنيها .

ودعا « سيما » الرعاة وسأولهم على ثمنها . . وعندما تمت الصفقة حملها الى منزله ، فما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابتنتها . . وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت . . وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء . . !

★★★

وذات ربيع ، جاء مينوتس - قائد الملك ووزيره - الى مرابط الحيل يتفقدتها . وشهد الوزير « سميراميس » الحسناء فراعته جمالها وبهاؤها وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور . . ورنث اليه « سميراميس » بفتور يحمل الدعوة ، فوقف الوزير فى مكانه حائرا مبهورا . . حتى انتبه الى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها الى حديقة القصر يتحدث اليها وتحدث اليه .

وانطلقت « سميراميس » على استحياء تتبع الوزير ، وعندما وقف في بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام، ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه، وأخذ يسألها من تكون .

ولم تستطع « سميراميس » أول الأمر أن تجيب .. ثم لم تجد الا أن تقول له انها ابنة ناظر الم رابط الملكية .

ونادى الوزير على سيمما ، ولكن ناظر الم رابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر .. واضطر الى أن يقص قصتها كاملة على الوزير .. منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحماثم في البيداء .. حتى اتخذها ابنة له ، لا يطيق فراقا لها أبدا .. !

وأحس الوزير من طريقة الرجل في الحديث ، أنه لا يمانع في تركها مقابل مبلغ كبير .. فأخرج « صرة » من المال قذف بها اليه .. ثم انطلق بالفتاة في الطريق الى العاصمة .

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا ، وعندما بلغ القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزيينات والماشطات ، وأخرج لها من خزانته حليا لا يوجد مثلها الا في كنوز الملك .. وأخذتها نساء القصر الى الحمام وغسلن بدنهما بالماء المعطر ، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلته على كتفها خصلا معقودة بالجواهر .. ثم البسنها الأرجوان الفينيقي الموشى بالذهب وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ما عرفت « نينوى » من عرائس .

واحتفل « مينوتس » بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل . وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه .. حتى لقد كان يلزمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقا لحظة ، وكاية امرأة، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلها لتتحكم في الرجل الذي عبدها ، فخضع لرغباتها ، واحترم أفكارها ، وصار يأخذ بأرائها في كل ما يلم به من أحداث ومهام !!

ومرت الأيام ، وسميراميس كل شيء في حياة الوزير .. وكل شيء أيضا في حياة الجماهير . الا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا في تعلق الشعب والوزير بالعروس الالهية .. هو ذلك النصر الذي استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها .. عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء .

من النصر الى المجده

كان ذلك يوما خالدا في تاريخ البلاد . وكان الملك « نينوس » قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه ، وراح يبحث عن السبيل الى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولملكته الواسعة الأطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه « مينوتس » على تجنيد جيش كبير ضخم ، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة ، ثم لم تمض أيام آخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخما بالغ القوة لا قبل لأحد به على الإطلاق ، فلم يكن عجبيا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش ، إلا أن الذي أثار « نينوى » وأغضب ملكها ، هو أن ذلك الجيش الضخم ، وعلى رأسه القائد ، والملك نفسه ، عجز من اقتحام عاصمة الأعداء . . « بكتريا » لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحامها ، ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله ، ولما طال غيبة الوزير على زوجته سميراميس ، أرسل إليها يستدعيها لتوافيه في ميدان القتال .

وحضرت سميراميس ، ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلا . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضى . فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ما كانوا يعهدون . . !

وطلع صباح . . ووقفت « سميراميس » على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التي أنهكت الجيش الذي لم يهزم أبدا ، ولاحظت سميراميس أن الهجوم كان موجها الى قسم المدينة القائم في السهل ، لا ضد قلعتها ، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة ، وخطرت لها فكرة . . ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة . . وهل يمكن أن تقوم هي نفسها بهذا الهجوم . . !

وانطلقت « سميراميس » الى الخيمة فأيقظت زوجها ، ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنع بخططها التي رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة . . !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم سميراميس بنفسها وتقدمتهم الى اقتحام القلعة الشامخة .

وانقضت ساعة وبعض الساعة .. وانتبه الملك ، والوزير مينوتس ، والجيش جميعا .. فاذا سميراميس واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا .. !!

وعرف الكل أنه النصر .. وأدركوا أن المرأة التي قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التي انهارت .. وإن العاصمة قد باتت بين أيديهم ..

والتفت الملك الى قائده مينوتس يسأله :

— من تكون هذه المرأة يا مينوتس .. ؟!

وشعر مينوتس بدنو الكارثة .. وأدرك أن سميراميس قد راقته في عيني الملك ، فسكت على رعب كأنه لم يسمع ، وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب :

— انها زوجتي يا مولاي .. !

وعاد الملك الى العاصمة .. ودخل قصره .. وتفرق الجند والناس . وأرسل الملك الى قائده يأمره بدعوة « سميراميس » اليه . ولم يستطع الوزير الا أن يحنى هامته .

أما سميراميس .. فقد وجدت لها فرصة للوصول الى المجد الذي طالما حلمت به .. وحملت على محفة يرتفعها أربعة من العبيد السود ، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان .. هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات ..

وعندما دخلت على الملك .. ووقعت عليها عيناه في اتكائها والتفاتها وزينتها وتآلق طلعتها .. انهار قلبه في هوى عرييد .. زادت هي من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور .. لم يدع له مجال الاختيار .. !

وعندما صاروا وحدهما .. اتفق معها الملك على أن تترك زوجها .. لتكون له وحده .

وعادت سميراميس الى قصر زوجها وفي أثرها رسول الملك يقول
لينيوتس :

- ان سميراميس قد راققت في عيني الملك ، فهو يريد أن يراها في
قصره بين محظياته ونسائه . فاذا كنت في حاجة الى زوجة تحل مكانها
فليس لدى الملك ما يمنعه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من
سميراميس . . . !

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التي لا يمكن أن ترد ، ولبت
أمدا لا يدري ما يفعل ، واستدعى سميراميس زوجته يسألها كيف يتخلص
من رغبة الملك . . فاذا بها تشير عليه بتلبيتها . . على أن تسعى هي خلال
اقامتها في البلاط . . بما أوتيت من فطنة ودهاء . . لعلها تقنع الملك
بإعادتها اليه . . !!

ونزل القائد على اشارة سميراميس . . وكله حزن ويأس . . ولكنه
ما كاد يبصرها خارجة من القصر في محفتها . . حتى اسودت الدنيا كلها
في عينيه . . وانطلق الى شجرة قائمة في أقصى المدينة . .

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز . . تدلت جثة لم تجد
من يوارىها التراب . .

وكانت هي جثة الوزير . . الذي حكم على نفسه بالاعدام . . !!

حب المجد والسلطان !!

بلغ الخبر « سميراميس » وهي بعد لا تزال في طريقها الى قصر
الملك . . ولكن ماذا يعنيه من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها
تحبه . . أبدا ما أحبته قط . . وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ،
والسلطان، والسيطرة، وهي تستطيع أن تجدها جميعا في قصر نينوس . . !

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبل أبدا . . وعندما
دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب . . بل ستكون هي
وحدها الملكة . . ولا محظيات سواها . .

وكان هذا هو بالضبط ما حدث . .

فقد عرفت « سميراميس » اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هي وحدها .. ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن .. كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس ..

ورفعها الملك من محظية الى ملكة ..

• وولدت له الملكة ولدا أسماه ميناس •

• وظلت الحياة تسير •

عرفت « سميراميس » كيف تجعل من نفسها كل شيء في قصر الملك .. وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقا لها لحظة .. حتى ولو كان خروجا للحرب .. أو لاختاد ثورة فحسب ..

غير أن خروجها معه في كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا • فقد كان يستعمل في حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والارهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور .. فكيف تطيق وهي التي رعتها حمامات السلام في البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك .. وفي كل مكان !!

وكان آخر ما شهدته من حروب الملك، عندما خرج الى بلاد الطورانيين الثائرين عليه .. فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم • أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء .. وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الثائرة • ولم يكتف الملك الوحشي بكل ذلك ، فقد أمر بقطع رؤوس الثوار .. ونظمها في حبل على شكل عقد ، وحكم على من بقى حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم .. أما من أبى فقد قطع أنفه وأذناه وشفتاه .. ثم سيق مع الآخرين الى العاصمة .. ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين .. !!

ولم تطق « سميراميس » كل تلك الفظائع .. وكرهت الرجل الذي عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض • ودفعته تلك الكراهية - جنبا الى جنب مع حب الطموح والسيطرة - الى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج .. عن أي طريق !

ماہیتہ السرا ما یانا
فالمیاتی

ع ۴۰۰.۲۰م

مصادر الأدب الهندي

كانت السهول الفسيحة القريبة من بحر قزوين في الماضي السحيق موطنًا لطائفة من قبائل الرعاة ، تربطها وشائج القربى ، واتحاد اللغة . وكان يسمى بعضهم بعضًا (آرياسر) أي الأصدقاء . ولكن سرعان ما دب بينهم التنافس ونشب القتال ، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الهجرة جماعات جماعات ، وأخذوا يضربون في مسالك الأرض شرقًا حتى ألغوا عصا النسيار في غاب كثيف فاتخذوا الفؤوس من الصخر القاسي الغليظ ، يحطمون بها الشجر ثم يحركون بأغصانها التربة ويفلحونها ، وبهذا تحول هؤلاء الرعاة الرحل إلى فلاحة الأرض ، لكن فلاحة الأرض لبثت زمانًا طويلا مزدراة لا تليق بغير العبيد . ولهذا أخذ سادة هؤلاء الرعاة يملكون الأرض ويستخدمون الطبقات الوضيعة في حرثها وفلاحتها .

ولكن هل تقنع تلك القبائل الراحلة الطامحة ببقاع ضيقة محصورة فوق الجبال ، وعلى مقربة منهم - في الشمال الغربي من بلاد الهند - سهول خصبة غنية تمتد ما امتد البصر ؟ إلى تلك السهول الفسيحة الخضراء شدوا الرحال فلقبهم أهلوها « الداسيون » بعنف المستميت في الذود عن حياضها ، لكن ماذا تجدى الحماسة أمام قوة الغزاة ؟ فلهؤلاء الآريين كتب النصر ، فاستقروا وطاب لهم المقام وأصبح يطلق عليهم فيما بعد اسم الهندوس . وأما « الداسيون » فقد خضع منهم فريق استخدمه السادة الظافرون في فلاحة الأرض ، وهم من أطلق عليهم فيما بعد اسم « شودراس » وهم أدنى طبقات الهنود ، وأبى فريق آخر أن يستسلم فلاذ بالفرار إلى الدكن ، وأوى إلى مستنقعاته وغاباته حيث لا يزال إلى اليوم رابضًا .

وكانت هذه الحرب بين الآريين الغزاة وأهل البلاد الأصليين مصدرا لطائفة كبيرة من الأساطير والأغاني والتراثيم والدعوات ، أخذت تتجمع على مر الزمن وتكتسب قداسة في أعين الهندوس ومنها يتألف « ألفيدا » الذي هو الكتاب المقدس عند الهندوس ، وعقيدتهم فيه أنه وحي من الله أوحى به إلى قادة العهد الغابر وأنبيائه ، وعن هؤلاء تلقاه « البراهمية » ،

وهم طبقة الكهان الذين أخذوا على أنفسهم صيانة الفيدا من الدنس .
والترانيم التي في الفيدا دعوات موجهة الى قرى الطبيعة ، فهذا الفجر الذي
يبدد ظلمة الليل وينشر ضوءه على جبين الصباح ، وهذا الغروب الذي
ينعش النفس المكروبة بعد عناء النهار وشيمسه المحرقة ، وهذا الغيث
الذي ينبت لهم الحب ، كل هذه نعم تستوجب الحمد ثم ماذا يجنب القوم
غضبة الصواعق و ثورة العواصف غير الترانيم الدينية والقرايين ؟ ففي
الفيدا صلوات ودعوات ليكثر الله الحب والماشية ويطيل الأعمار ويبارك
الأبناء ، وفيه دعوات لله أن يكون للآريين مولى ونصيرا ، وأن يكون على
الأعداء نقمة وبلاء ، وفيه ترانيم عن الحياة الآخرة وخلود الروح .

وبعد أن استقر الأمر للهندوس في سهول البنجاب ، استأنفوا
الزحف شرقا وأسسوا ممالك على ضفاف الكنج ، وغابت منهم قبيلتان
على غيرهما من القبائل هما : « بانجالا » و « بهاراتا » ، ثم نشبت بين
القبيلتين حروب في الوقت الذي كانت فيه جيوش الاغريق تحاصر مدينة
طروادة ، وهذه الحروب هي موضوع ملحمة شعرية طويلة يمتزج فيها
التاريخ بالأساطير وتسمى قصة « ماهابهاراتا » .

ولم تكن أغاني « ماهابهاراتا » وحدها مستأثرة بالسمنة المنشدين .
بل قامت الى جانبها قصيدة أخرى أوسع منها انتشارا بين عامة الهنود، وهي
قصيدة تروى مغامرات (راما) وشاعرها هو « فالميكي » ، ولئن كان
أساس « ماهابهاراتا » هو الفروسية في الحروب ، فإن محور « رامايانا »
هو الحب معينا لا ينضب للمسرح مدى ألف عام أو يزيد .

ويختلف الباحثون في تاريخ الرامايانا فمنهم من يقول انها ترجع
الى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ومنهم من يقول انها ترجع فقط الى عام ٤٠٠
قبل الميلاد ، وهي ملحمة كتبها شاعر الهند العظيم « فالميكي » الذي تحتفل
الهند الحديثة بذكره احتفالا قوميا كل عام ، والرامايانا واسعة الانتشار
بين كل طبقات الشعب الهندي، تحكى للأطفال قبل النوم وكثيرون يرتلون
جزءا منها كل يوم وتروى شعرا في الأعياد والمناسبات وتقدم دراما غنائية
راقصة على خشبات المسارح كاحدى روائع الأدب العالمى عبر العصور ،
ويجمع (الهندوس) على أنها « كتاب فلسفتهم الحالدة » ، مبرهنين على

ذلك بأن شخصياتها الشريرة ما تزال تتغلغل حتى اليوم في كل العالم . .
سواء في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، بل وفي شتى الطبقات
الاجتماعية وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة أينما يوجد الانسان .

وقد كان لهذه الملحمة تأثير كبير على شعراء الهند عبر العصور ،
فقد استلهمها بعضهم ليكتبوها مرات أخرى عديدة . . كل منهم بحسه
وشاعريته الخاصة ، ولما كانت الهند بلادا متعددة اللغات وكل لغة من
لغاتها تغطي مساحة محدودة من أراضيها الشاسعة . . فانك تجد الرامايانا
الأصلية والراماياتان المستلهمة منتشرة في كل اللغات الهندية الخمس
عشرة .

ولقد قضى الشاعر الفيلسوف الناسك « فالميكي » سنوات عديدة
من عمره في الغابة يكتب ملحمة الرائعة وسماها «الراماياتانا» ، نسبة الى
بطلها « راما » ، وقد بدأ الشاعر ملحمة بنفس الأبيات التي تخيل أنها
أملت عليه من الخالق الأعظم « براهما » والتي تقول :

ستظل الرامايانا باقية ما بقيت الجبال . . .

وما بقيت على هذه الأرض مياه تتدفق عبر الانهار .



وفيما يتعبق بالأبواب والفصول في ملحمة « الرامايانا » يقول
الأستاذ «رومش دوت» - باحث هندوكي شهير في الآداب السنسكريتية -
أنها في الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى عادة بعودة الأبطال الى
ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة؛ ولكن الباب السابع الذي
ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو في الحقيقة معيار
جديد للشعر السنسكريتى ، اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت
في القرون الاخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل في
الآخر يكون الفصل السابع .

ثم تنقسم الملحمة كلها والتي ألفت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة
تتضمن ٢٤ ألف بيت . . وبدراسة الباب السابع ، يظهر لنا بكل وضوح
أنه ألف قبل الميلاد ، اذ نجد فيه بالمانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف في مصر

« راما » البطل واخوته بالمرّة . وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ؛ ولكنها سجلت في هذا القالب الشعري في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء في « الراما يانا » نفسها أن الراهب « والميكي » الذي ساعد « راما » في محنته في الغابة والذي شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية، هو الذي نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى « ايودھيا » ، ففي هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة « راما » وماتت في ديره ، لأن راما نفاها الى الغاية ولذلك أتاحت للراهب فرصة تربية ابني « راما » اللذين عاشا في كنفه تربية رهبانية ، وقد جال بخاطره في هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد « راما » ومواقفه البطولية كلها بالشعر ، فبدأ في نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض « والميكي » مقطعا حفظه ابنا راما في نفس الوقت . وبهذا حفظاً الملحمة كلها والتي تتكون من خمسمائة مقطع تتضمن ٢٤ ألف بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكي أيضا فحضره « والميكي » مع ابني راما ، اللذين أنشدا في هذه الحفلة ملحمة « الراما يانا » كلها .

وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها ، فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعي النظر، وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرًا طويلا ، الى أن سجلت كتابة في القرون الأخيرة قبل الميلاد .

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين في الهند في القرون الحالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى في العالم ، لم تسجل إنتاجها الأدبي والفكري من أول وهلة ؛ بل تداولت ألسن الناس « الراما يانا » دهرًا طويلا وحفظتها الصدور زمنا غير يسير حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها في الكتب ، بعد أن انقطعت الهند مرحلة طويلة في ميدان العلم والفكر .

ولكن الراما يانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين، بل ساهم في أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد ، كما هو الشأن للمحمة أخرى شهيرة ألغت بعد الراما يانا وهي « المها بهاراتا » .

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحي الأدبية والفنية في هذه الملحمة؛ وما من شك في أنها من أول نماذج الأدب والقصص في الأدب السنسكريتي، بل الأدب الهندي قاطبة، وهي غنية بالأحداث والمشاهد والحكايات والصور، وتعتبر النواة الأولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد، مثل: «نالا» و«ساوترى» و«شكنتلا»، وهي صادقة فيما تحكى عن نفسها في موضع من المواضع، إذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة، وهي التي تغذى جميع القصص وتمنح انقوة لجميع الشعراء وهي درة يتيمة للشعر والشعراء.

إن «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التي تمثل جوانب إنسانية رائعة، فيها الدرس والعبرة لكل إنسان يقرأها، كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والبرقة والعاطفة. والهدف الأساسي فيها هو المرأة والبيت، في حين أننا نجد ملحمة «المهابهاراتا» تدور حول الرجل والحرب، وبما أنها أقدم تراث وصل إلينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها.

أما الناحية الفنية فيها فهي تعطى بؤادر أولى وأنسبا ثابتة للأساطير الهندية التي ظهرت فيما بعد، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالآخطار، والتي غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمنون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة إلى غابة ومن بند إلى بند، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التي منحت هذه القصة الشهية جوانب إنسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين «الجنجا والجمنا» مثل «أوده وقنوح واله آباد»، ولكن لا يكاد يبين لنا في خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل «دهلي» و«أجينا» اللتين لعبتا دورا كبيرا في الأدب السنسكريتي القديم ولا سيما في ملحمة «المهابهاراتا» ومسرحية «شكنتلا». وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع إلى هذه المناطق. ومع ذلك يتضح لنا من خلالنا معالم الهند كلها، مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنيابها الجارية وغاباتها المظلمة وودياتها وروعدها وأمطارها وسحبها.

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود في هذه الفترة من الزمان، فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري، إذ مرت حياتهم حيناً بالمادية البحتة وحيناً

آخر بالروحانية المحضة ، وبما أن « الرامايانا » تصور أولى مراحل حياة الآريين في الهند ، فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادئ السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحت الإنسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الإنسانية ، وتذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية . والسبب في ذلك أن الإنسان في كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة في الإيمان بالله وقدرته وجبروته في هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيرا ، مما حدا به في بعض الأحيان إلى الكفر بالله والجري وراء المادية والشهوانية ، وقد وقعت الهند في هذا اللون من الحياة في العصور التي تلت « الرامايانا » كما تصورها ملحمة « المهابهاراتا » ، وهذا هو السبب في أن « كرشن » الشخصية الأسطورية في هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة .

وحينما ننظر إلى القيم الروحية والمبادئ السامية في « الرامايانا » ، نجد أن أحسن ما يتصوره الإنسان في هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما إلى ذلك .

الأسطورة أو الملحمة

رامايانا هي أوديسة الهند في تاريخ الأدب الأسطوري وهي أشهر أساطير الهند وأحبها إلى النفوس . . . وتتناول حياة بطل اسمه راما نفاه أبوه في غابة الشياطين حيث لقي من المصائب والأهوال ألوانا شتى ، ونشب صراع جبار بينه وبين رافنا ملك الشياطين الذي تمكن من خطف زوجته ، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم لليأس أبدا .

والهندي يعتبر رامايانا كتابا مقدسا ويعتبر راما صورة مجسدة للالوهية ولا يزال يتوجه إليه بالصلاة، وهو حين يقرأ الأسطورة انما يشعر بأنه يستمد من قراءتها سموا دينيا ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعا خلقيا . . . اذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعا وتجعله ينجب ولدا حتى ولو كان عقيما . . . !!

كان الجميع سعداء إلا الملك . فبرغم العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه كل الشعب ، إلا أن شيئا واحدا كان ينقص على الملك الحياة . . . فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد يتولى من بعده عرش البلاد .

ولقد كان سكان مدينة « أيوديا » يعرفون تلك الحسرة التي تأخذ بقلب الملك « داشاراذا » سيد بلاد « كوسلا » . الا أنهم ما كانوا يملكون شيئا قط سوى أن يرفعوا أيديهم ، وهم يقدمون القرابين يدعون « براهما » أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد .

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين . فذات يوم بينما كان الملك مجتمعا بكهنته يقدمون القرابين لبراهما ، اذ ظهر الاله « فشنو » فى شكل نمر . متربعا وسط التيران وقال للملك : خذ هذا الارز المقدس ، واللبن الحليب ، ووزعه على زوجاتك فقد أرسلنى براهما لأبشرك بسلام اسمه راما يكون له ثلاثة اخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات . . !

وحمل الملك اللبن والارز الى زوجاته ، وقسمه عليهن فلم تمض أيام حتى أنجبت (كوشالا) زوجة الملك الأولى ولدا سماه « راما » ، ثم تبعها « كايكى » بولد سماه « بارتا » . أما الثالثة فقد أنجبت ولدين هما « لاکشمان وساتروجنا » .

وعاش الاخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا ، ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاکشمان صديقا وتابعا ورفيقا ، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه بارتا .

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة ، وبدأ الملك يمنحه من فلبه كل شئ . ويدربه على أن يكون ملکا من بعده على كوسلا . ومن أجل أن يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سیتا . . كبرى بنات « جاناک » ملك « میثالا » .

والحق أن سیتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر ، غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك . . فقد كان ذات يوم يحرق بستان قصره بالمحراث واذا بالأرض تنشق من تحته وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان وأسنان تسطع بلمعة اللآلىء . كانت هى نفسها سیتا . . التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة فتعاهدها فى قصره حتى شبت وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناک ألا يزوجه الا لمن يستطيع أن يشنى القوس المقدس الذى أهدته الآلهة لأجداده الأقدمين .

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير أن أحدا لم يستطع أن يثنى القوس .. فقد كان قوسا ماردا عملاقا صنعه الاله شيفا لنفسه ثم أهدها لأجداد جاناك . ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة ولا المردة ولا الشياطين .. كانوا يملكون القوة حتى تستطيع أن تثنيه .

وقرر راما أن يشترك في المباراة ، وانطلق الى ميثالا حينما كان الملك يستعد لاقامة عيد الضحية .

وكان الشعب كله يحيى الملك حين دخل راما الساحة ، وأعلن عزمه على خطبة سينا .. ابنة الملك !

وتحولت اليه كل الأنظار .. لقد كان صدره بارزا كليث ، وجسده فارعا كفيل ، وعيناه مهيبتين كنسر .

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان يجرها خمسة آلاف عملاق ، ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه ، وارتعد الجميع ، فما كان أسهل ما انحنى القوس في يد راما الذي ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه ، ثم تحطم في صوت كالرعد وهزة كالزلازل ، حتى ان آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض عدا جاناك وراما والأميرة التي فتحت عينيها في ذهول .. !

وأقيمت الأفراح ، وأرسل جاناك الى جاره الملك داشاراذا يدعوه الى حفل الزواج ، فجاء معه أبناؤه الباقون ، وعندما عادوا الى ايوديا .. كانت مع كل منهم عروس أخرى رائعة .. من بنات ملك ميثالا الجميلات .

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا .. حتى دخلها الشر عن طريق كايكى .. الزوجة الثانية للملك .. !

ف ذات يوم أعلن الملك أنه يدعو الشعب في الغد لحضور حفل تنصيب ولي عهده ، وملأت الأفراح كل « ايودا » التي امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب « راما » وزوجته الأميرة « سينا » ابنة الالهة . غير أن قلبا واحدا كان يمتلئ غما وحسدا هو قلب الملكة كايكى ، فقد أحزنها أن يكون العرش لابن ضررتها دون ولدها باراتا الحبيب .. !

ولعل تلك الغيرة التي ملأت قلب كايكى ، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز « منتارا » ، فقد أشعلت العجوز في أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد ، وراحت تعرضها على التخلص من راما ليكون العرش خالصا لولدهما باراتا .

وبكت كايكى غيظا ويأسا . . فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من اعلان ولاية العهد لأى ولد . غير أن منتارا ابتسمت في خبث وهي تقول :

— ان فى امكانك يا مولاتى أن ترغمى الملك على ايلاء العهد لولدك . .
وارسال ابن ضرتك الى أعماق غابة الشياطين فلا ينافس على العرش أبدا .

قالت الملكة كايكى :

— كيف يكون ذلك يا منتارا !

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمى الحقد، راحت منتارا تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال احدى معاركه مع شياطين الجن ، ففي ذلك اليوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان ، وتصادف مرورها من نفس الطريق الذى سقط فيه الملك غارقا فى لجة من الدم ، وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان ، وبذلت كل ما تملك حتى ارتد اليه الصواب ، وأخذت تعنى بجراحه حتى أنقذته من موت محقق ، وعندما شفى الملك تزوجها ، وأقسم أن يحقق لها أى أمنيتين تطلبهما منه . . فى أى وقت تريد . . ومضت الأيام والشهور والسنون ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئا بعد . . .

ودار رأس كايكى بنشوة الخمر . . وقد بدأت تدرك ما تقصد اليه منتارا ، واستمرت العجوز تقول :

— لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك أمنيتك ، اطلبى منه أن يتخلى عن العرش لولدك باراتا وأن ينفى راما فى غابة الشياطين أربعة عشر عاما . . وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يستأثر بحب الشعب ولا يخشى منافسة أخيه .

وانطلقت كايكى الى الملك تذكره بوعده ، وأقسم لها أنه لم يحنث فيه ، وأنه سيحقق لها في الحال كل ما تطلب كائنا ما كان . وهنا ألقى الملكة بالمفاجأة على رأس الملك الذى وقف كالمشدود وما خطر بباله أنها تجرؤ على مثل ما تطلب الآن قط

غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده . . وبقلب حطمته الأحزان أحنى رأسه للمرأة التى خدعته . . !

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك دأشاراذا فيها رأسه ، ولقد اضطر الى احناثه مرة ثانية أمام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط ، فى انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد . فاذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيرا معطما وهو يولى العرش لباراتا ، ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاما فى غابة الشياطين . . !!

وهتف الفتى فى حيرة :

— ولكن ما الذى صنعتة يا أبتاه . . . ؟!

وأشار الملك الى كايكى وكأنه يشير الى الشيطان . وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخبيثتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع أن يحنث فيه . . !

واندفع بارانا نحو أخيه راما . وأمسك بيده وهو يقسم أنه لا يمكن أن يمس عرشا من حق أخيه وحده . غير أن راما هز رأسه وهو يقول :

— أبدا أيها الأخ الكريم . . لقد انتقل التاج اليك ، ولا بد من تنفيذ انوعد الذى أعطاه أبى ، ستجلس أنت على العرش . . أما أنا فساأطلق لفورى وحدى الى غابة وانداك فلا أعبد الا متى انقضت الأعوام الأربعة عشر كاملة . . !

واندفعت سيتا نحو زوجها ، وسجدت أمامه تتوسل وتقول له :

— خذنى معك يا زوجى الحبيب . . فما أستطيع أن أعيش فى هذا المكان بعدك . ان العربة والحيل المظنمة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة ، وهى تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود . ان سيتا ستهيم معك فى كل مكان فى الغابة . . فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله ،

انها لن تفكر فى بيتها لحظة ، أو فى أهلها ما دامت ناعمة فى حب الزوج الذى اختارها لتشاركه الحياة ، وستجمع الثمار البرية فى الغابة العبقة ، فطعام ينوقه راما هو أحب الأطعمة عند سیتا الوفية .

وكذلك فعل لاکشمان ، فقد راح يتوسل الى أخيه أن يأذن له بمرافقته . فاذا لم يكن يريدہ صاحباً فليكن حارساً له ، ولسیتا من هجمات سكان الغاب الملعين . . !

وحاول راما أن يشنى زوجته وأخاه عما أصرا عليه ، غير أنهما ظلا بدحان ويتوسلان . . ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتهما . . وانطلق الثلاثة معا فى الطريق الى وانداك . . غابة الشياطين . . !

★★★

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون ، حتى سقط الملك ميتاً لفرط ما ألم به من حزن . وبرغم أن كايكى ملأها الفرح لوفاة زوجها ، الا أن باراتا رفض العرش وأقسم الا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه .

ومضت أعوام عشرة طويلة . عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنايا الغابة الموحشة ، يقتاتون فاكهة ويجمعون عشبا ويصطادون طيرا وحيوانا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التى قيل انها تملأ الغابة .

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم ، اذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاي . لم يكد يامحهم حتى رحب بمقدمهم ، وأقسم الا أن يستضيفهم أياماً عدداً .

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك . وخلال الأيام التى قضاهـا لديه عرف راما أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذى يقيم فيه الناسك ، الا أنه لا يجرؤ على الاقتراب منه لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين . . ولعله كان أجدر بـراما ، أن يبتعد بزوجه وأخيه عن ذلك المكان ، غير أنه - وهو الشجاع الذى لا يعرف الجبن قط - أبى أن يستسلم للخوف وأقسم الا أن يستمر فى تجواله حتى تنقضى مدة النفى . . !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يمضيا في طريقهما ، أقسم أن يساعدهما بما يقيهما شر الطريق ، فأخذ بأيديهما الى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين... فأعطاها شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لا تحصى . ومنح لكشمان سيفا ذهبى النصل يثير الرعب فى قلب كل من يراه ...

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد فى أعماق الغاب ، وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا وأحست حاجة الى الراحة . وهنا فقط حط ثلاثة الرجال وقرروا أن يبنوا مسكنا صغيرا يأوون اليه وترتاح سيتا فيه ...

ومرت الأيام سعيدة هائلة .. حتى كان ذات يوم ...

كانت « سوريانا جا » أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه فى الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجى زوجته وأحست « سوريانا جا » نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تتحين الفرص لتنفرد به . فلما واثتها الفرصة وراحت تصب فى أذنيه ترانيم الهوى ، صد عنها ورفض أن يستجيب لعاطفتها .

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التى تمنعه عنها . وراحت « سوريانا جا » تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فيهاجمتها، غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع اليها ، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها . وصرخت الشيطانة فى غضب ، وانطلقت تجرى والدم ينبثق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا . وعندما عرف كارا الأمر أقسم لينتقم من وأرسل أربعة عشر تنينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة ...

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة . فان التنانين لم تكده تهاجم مقر راما ورفيقه حتى نهض هو فخنقها جميعا بيديه بغير سلاح ...

وهنا جن جنون كارا . وأعلنها فى الغابة حربا شعواء على راما ورفيقه ...

خرج كارا على رأس أربعمئة ألف تنين ، يثير كل منها رعب عالم
بأسره .. !

ولمح رام صقوف الجيش الزاحف فأمر زوجته وأخاه بالاختفاء ،
ثم لبس درعه واستل سيفه وأخرج رمحه ووقف وحده ينتظر التنانين .

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر . وتحتك حراشيفها فتخرج
أصواتا رهيبة كالرعد . وملأ الرعب قلوب كل من فى الغابة ، الا رام
الذى وقف صامدا تطل النبال من كنانته . وظل ساكنا فى وقفته حتى
ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقترابا منه ، وهنا مد رام يده الى نباله
وسهامه وراح يرسلها نارية عميقة على التنانين التى ملاها الرعب والفزع ،
وبدأت تتراجع وتتلوى تتلمس النجاة . غير أن سهام رام كانت تلاحق
الهاربين ، وأخذت أرض الغابة ترتوى بالدماء .. والتنانين تتساقط واحد
فى أثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده وليس حوله أحد قط ! .. !

واقرب كارا من رام . ونشبت معركة عنيفة مهولة ، راحت شظايا
النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة . ثم فجأة رفع رام
فوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا الى قلب الشيطان ..

غير أن المعركة لم تكن لتنتهى عند هذا الحد ...

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشه فجئن
جنونه .. ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ليقتلن رام ويمثلن به .

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبة قاسية مع رام وصاحبيه . غير
أنه لم يكده ينهض حتى انحنى عليه أخوه « ماريشى » يحذره من قوة رام ،
ويكشف له سر النخيرة الفتاكة التى منحها له الناسك ، ويقص عليه قصة
الآلهة التى اختارته ليقضى على الجن والشياطين ويشتتهم أجمعين .

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور ، وانحط
على عرشه ساخطا يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه .

ان له لعشرين ذراعا يستطيع أن يحمل فى كل منها سلاحا جبارا ،
وان له لعشرة زروس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب
النصر . ولكنه مع هذا أحس بالجبن فقد أقنعه أخوه « ماريشى » أن النصر
لن يكون حليفه اذا دارت المعركة بينه وبين (رام) ونجها لوجهه .

واذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال ! وراح كل رأس من
الرموس العشرة يبحث الأمر . وفجأة قفز رافانا في فرح كبير ، فقد خطرت
له بعد طول التفكير فكرة رائعة ، فقتل « راما » لن يذل كبريائه وأنفته
أو ينال منه ، ولكن الذي يذله وينقص عيشه هو أن يفقد أعز شخص لديه
... وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه مازيشي ليخطف سيتا . . زوجة
راما الحنون . !!

في ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة
يتلمسون الظل ويتذاكرون بلادهم وأهلهم . وفجأة لمحت سيتا منظرا
أطلقت له صيحة فرح . لقد كان هناك ظبي صغير يقفز على مدى البصر
رائع الجمال له شعر يبرق كما يبرق الذهب . . !

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمراى الظبي . وعندما تمت أن
تملكه وتحفظ به لأيام عودتها ، أقسم ليتأتينها به . . حيا بغير جروح . .

وقفز « راما » من مكانه يعدو وراء الظبي ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة
سيتا والا يغفل الطرف عنها قط أو يتركها مهما جرى من الأحداث .

وأحس الظبي بالمطاردة فاندفع يقفز ويعدو يظهر آنا ويخفى آنا
آخر . والأمير من وراءه لا يريد أن يفلقه ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسمى
خلفه داخل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه
أو يجرحه .

وظل الظبي يخترق قلب الغاب والأمير وراءه حتى أنهكه الجهد وأخذ به
اليأس ، وأطل خلفه فإذا هو قد ابتعد تماما عن مكان زوجته وأخيه . . وهنا
فقط ملأه القلق وأحس أن في الأمر مكيده دبرتها له الشياطين . . فقرر أن
يعود ولكن بعد أن يقتنص الظبي بسهامه ويحمل جلده البراق الى سيتا
الحبيبة . . !

وأرسل « راما » سهمه المسحور فأصاب الظبي وأسرع يجرى نحوه
ليحمله . وعندما اقترب منه وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان
الظبي يتلوى على الأرض ويتحول شيئا فشيئا الى صورة أخرى بعيدة كل
البعد عن صورته . وحلق « راما » جيذا الى حيث كان الظبي المحتضر .
فإذا هو « مارتشي » نفسه . . شقيق ملك الشياطين .

واحس « راما » فرحا ضخما عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول، فقبل أن يلفظ النفس الأخير أرسل في الغاب صرخة داوية قلده بها صوت راما ؛ ليوهم بها من يسمعها بأنه هو « راما » نفسه يطلب النجدة والغوث . . !

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى اليه . فقد ملأت الصيحة آذان سیتا ولكشمان وخيل اليهما أن « راما » يستغيث بقد أن دهمه خطر مخيف .

ونسى لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجرى الى الجهة التي خيل اليه أن الصوت يصدر منها ، بينما جلست سیتا تنتظر وفي قلبها هلع وذعر .

ومضت لحظات ، راحت « سیتا » خلالها تلوم نفسها اذ أغرت زوجها بالسعي وراء الظبي . وبينما هي تفكر وتنتظر طرق سميعها وقع اقدام تقترب منها ، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هرما يتوكأ على عصا ، وقد أحنت السنون ظهره وقوست قامته وقربت ما بين خطواته .

وطلب منها الناسك أن تاذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفي أدب ورفق أذنت له سیتا وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت اليه وهو يسألها عن سبب وجودها في ذلك المكان ، وبرغم الدهشة التي ملأتها للسؤال الغريب ، طفقت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبي .

وهنا توقفت في ذعر ، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم اذا بقامته تعتدل وظهره يستقيم ، واذا به ينتفض ليصير شابا قويا له عشرون ذراعا وعشرة رهوس . . !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه . وانقض ملك الشياطين على (سیتا) وهو ينادى على مركبته ودفع الأميرة الى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو في طريقها الى جزيرة سرنديب حيث مقر عرشه

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوكة حائرة لا تكاد تعي . واطلت فاذا ملك النسور يطير غير بعيد فاستغاثت به وانتبه ملك النسور الى الاستغاثة ، فاذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة جعلها في عربته

السحرية الطائفة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ،
غير أن الشيطان كان أسرع منه قطعته في جنبه بخنجر طعنة قاتلة سقط
النسر على أثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق في بحر من
الدم . . !

واستمرت العربة تطير ، حتى اجتازت غابة وانداك ثم حطت قليلا
على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القروء . وعندما استأنفت الطيران
كانت الأميرة قد عمدت الى القاء وشاحها وعقدتها ليسقطا على سفح الجبل
بين أيدي القروء . ولم يتنبه ملك الجن الى سقوط الشاح والعقد حين كان
يسرع الى جزيرته . أما هي فقد ملاحا الأمل في أن يعثر راما عليهما اذا
كان قد نجا ، وتدله القروء على المكان الذي اتجهت اليه .

بينما كان كل ذلك يحدث كان « راما » قد انطلق في طريقه عائدا
الى الوادى ، بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى . وبينما هو في طريقه
اذ التقى بأخيه لكشمان الذى كان قد انطلق لنجدته . وصرخ « راما »
اذ وجد أخاه وحده ، وراح يؤنبه اذ لم يستمع الى تحذيره وتوصيته
بالا يترك « سينا » وحدها . . فقد كان أدرك أن المؤامرة قد نجحت في
ابعادهما عنها لينفرد بها « رافانا » ويخطفها . وأسرع الأخوان الى حيث
تركها الأميرة ، فاذا المكان خال وآثار المعركة بادية ولا شيء هناك سوى
الكون . . !

لم يستطع « راما » احتمال الصدمة فسقط غائبا عن الوعي . وعندما
انتبه الى نفسه طفق يبكى ويصرخ ، وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير
جسوى . وأحس لكشمان خطورة الأمر اذا ما طال انتظارهما في ذلك
المكان ، اذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن . فأخذ يدعو
أخاه الى مغالبة اليأس والاسراع الى الجنوب حيث تقع مملكة « رافانا »
التي يتحدث عنها الجميع !

أخذ الأميران طريقهما الى الجنوب . وبينما هما يسيران ، اذا بهما
ببصران شيئا ضخما يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم .
واقترب الأخوان يتأملان فاذا به ملك النسور يحضر والدم لا يزال يسيل
من جنبه ساخنا حارا . واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح فقص عليهما
القصة ، وأشار الى الطريق الذى سلكه ملك الشياطين .

وقبل أن يستأنف الأميران السير ، شقا مدفنا للنسر الذي فقد حياته وهو يدافع عن فتاتيهما . ثم أمعنا في السير إلى حيث أشار لهما ، وبلغا آخر الأمر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران في وسيلة لارتقاؤه . وبينما الحيرة تأخذ بهما إذا بقرود كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ، ويسألهما عن سر وجودهما في ذلك المكان . وقال له راما :

— ومن تكون أنت . . وما اسمك ؟ .

قال له القرد :

— أنا « هانومان » سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقي لهذا الجبل . فما الذي تبغيان من حضوركما إلى هذا المكان ؟!!

وقص عليه راما قصته . وهز هانومان رأسه وهو يقول :

— لقد رأيت بنفسى مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب . لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة في أعيا بدخلها ، وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدما ، ربما لتدل الباحثين عنها إلى المكان الذي إليه تطير .

وأخذ « هانومان » بيد راما . وانطلق به إلى الملك سجريفا ، لعله يمد له يد العون . وبينما هم في الطريق قص القرد على راما كيف أن « سجريفا » يعيش الآن مغلوبا على أمره ، وحوله قليل من الأتباع بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل . . . ووعد (راما) القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية إذا هو وعد بمساعدته في الوصول إلى زوجته .

وكان هذا هو ما حدث بالفعل ، فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة . وحمل راما قوسه وسهامه ونباله فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذي اغتصب عرش أخيه . وبعد صراع عنيف استطاع « راما » الفوز بالنصر فهزم الغاصبين ، وأعاد سجريفا إلى عرش الجبل . . . !

ومن أجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التي تضم آلافا من القرود العبلاقة الهائلة إلى جهات العالم الأربع ، وأمرها أن تسير في الأرض باحثة عن المكان الذي نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة .

وكان على « راما » ود لكشمان ، أن ينتظرا في مملكة القروود عودة الجيوش الأربعة . وانقضت أيام طويلة كأنها السنون عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة ، ولم يبق غائبا سوى الجيش الذى كان قد توجه الى الجنوب ، وعلى رأسه هانومان سفير الملك الذى أخذ معه خاتم راما .

والحق ، ان جيش الجنوب ظل يلقى من الأحوال والمخاطر ما لم يتصوره أحد قط ، ولقد بلغ اخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لا يهتم أبدا بما يقاسيه هو وجيشه فى سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين . وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطئ المحيط ، وأطل فاذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف .

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هي المكان الذى يسعى اليه . وبرغم طول المسافة التى تمتد بين شاطئ المحيط والجزيرة المسحورة ، قرر هانومان الوفى أن يقفز قفزة جبارة هائلة . . . اما أن تصل الى الجزيرة ، وأما أن تورده الهلاك . . . !

وكان هانومان يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطئ ثم قفز قفزة هائلة فى الهواء . . . !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هانومان يصطلم بالسماء . وإذا به قد عبر المحيط الواسع وحطت قدماء على شاطئ جزيرة سرنديب . . . !

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح فى الوصول الى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول الى قرد صغير ، حتى لا يلفت اليه الأنظار ، وأخذ يتنقل بين بيوت الشياطين باحثا عن قصر « رافانا » حتى بلغه ، وعندما اجتاز أسواره شهد سرادقا صغيرا يمتد فى حديقة القصر الواسعة ، واقترب من السرادق ومد بصره يتلصص فى حذر ، وإذا به يقف مبهورا يمتلئ عجباً فقد كانت سیتا هناك بارعة الجمال كملاك ترقد على فراش مريضة منهوكة . . . ومن حولها ماردات من العقاريت يحرسنها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : ان صبره قد نفذ لطول ما أمعنت فى رفض الزواج منه والاصرار على الوفاء لزوجها راما . . . ! وعندما عجز رافانا عن استرضاء سیتا - كما كان يعجز كل يوم - غادر السرادق وقد

أقسم أن لن ينتهى ذلك اليوم حتى يكون قد أرغم أنفها وأذل كبرياءها ، وما كاد رافانا يغادر السرادق حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ثم همس باسم راما . . . وانتفضت الأميرة ، وتلفتت حولها ، فإذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك ، وظنت أنها كانت تحلم فأغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ففتحت عينيها من جديد ، فإذا بالقرد يخرج خاتما ذهبيا ما كادت تراه ، حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب . . . وقبل أن تصرخ من الفرح ، كان هانومان قد أشار إليها فى سرعة خفية يحذرها من الصراخ .

وأشار القرد من طرف خفى الى « سيتا » أن تنتظر وتطمئن . وفهمت هى اشارته وعرفت أنها النجاة . وغادر هانومان المكان ، وقد قرر الرجوع سريعا الى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه « راما » لينزل النعمة بملك الشياطين . ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة هى أن ينزل نعمته هو أيضا بمملكة الشياطين ويحطم كبرياء ملكها ويذله .

وفى لمح البصر رفع « هانومان » عن نفسه السحر فعاد قردا ماردا ضخما ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر . ولم يكد يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب . وأطل حوله فإذا هو وحيد ، وهم كثيرون وأدرك بعد فوات الأوان مقدار خطئه وتهوره وعرف أنه واقع لا محالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة فاقتلع من بهو القصر عمودا كبيرا من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ، ففرق شملهم ثم قفز فى الهواء قفزة هائلة كان واثقا أنها تبلغه شاطئ المحيط ، إلا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه . وبرغم أن الإصابة كانت خفيفة إلا أنها كانت كافية لأن تجعله يهوى قبل أن يبلغ الشاطئ . فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال وقادوه الى « رافانا » الذى كان نائما يرغى ويزبد ويهتز كزلزال . . . !

وأصدر رافانا أمره فى الحال بإحراق هانومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار فى القطن الذى أحاط بذيله . واشتعلت النار وبدأت تتسرب بطيئة الى جسد القرد .

وشهدت السماء ذلك العذاب الذى نزل بالمنقذ . . . فأشفقت عليه ، وتجمعت السحب وأمطرت مطرا غزيرا ، كان فيه الكفاية لاختاد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن أحرقت النار واثاقه ففكت قيده .

وأقلمت السماء فجأة ، وأطل هانومان فاذا طرف ذيله لا يزال يشتعل به بعض النار ..

وخطرت له فكرة جديد . لقد كانت الأميرة تجلس في سرادق بعيد عن القصر ، فلا خوف عليها اذا هو أحرق القصر نفسه ..

ونفض لغوره وراح يقفز هنا وهناك ، يدور بذيله في كل اتجاه ويشعل النار في كل شيء حوله وشبت النيران بكل جزء في القصر .. ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول الى شعلة كبيرة هائلة .

وفي نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة بلغ بها شاطئ المحيط وأسرع في مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل وراح يقص الأمر على « راما » الذي أسرع الى الملك (سجريفا) يطلب منه أن يمدد بباقي الجيوش .

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطئ المحيط ووقفوا في مواجهة جزيرة سرنديب .

وأطل الشياطين من بعيد وملاهم الرعب . لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم وانزال الخراب بقصر الملك .. فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القروء بالجزيرة التي ملاها هانومان وحده من قبل رعبا .. !؟

وكان « رافانا » على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان ، فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه .

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة . ونفض « فهيشان » شقيق رافانا الأصغر ، يطالب بتنحية أخيه وتسليم « سيتا » الى زوجها ليحل السلام محل الحرب . غير أن « رافانا » ثار عليه وكاد يقتله فهرب هذا من أمامه وقد أقسم أن ينتقم ...

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطئ . وانطلق الى « راما » يقص عليه قصته ويعرض عليه خدماته، وظنه « راما » أول الأمر جاسوسا، لولا أنه أشار عليه بإقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر .

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير . واقتنع بصواب الفكرة ونفذها . . .

ولم تكد تمضي خمسة أيام حتى كانت ملايين القرود قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر . وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش في جنح الظلام .

ونشببت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا . ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرحى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش « راما » الذي استعمل سهامه المسحورة فأخذت تعصف بالشياطين عصفاً مخيفاً .

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين . وعندما وجد (رافانا) أنها الهزيمة امتلاً غيظاً وحنقاً وانتفض مقسماً أن يقتل « راما » ولو كلفه ذلك حياته .

ونشببت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا . . وكان ملك الشياطين عنيفاً في مبارزته حتى لقد بدأ راما ينهار وكاد يستسلم . . لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه . وأخذ السهم طريقه سريعاً إلى قلب رافانا فأرداه . .

وردت نشوة النصر إلى راما قوته ، وانطلق يجري نحو السرادق الذي تقيم فيه زوجته يقوده هانومان الوفي . ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان . . إلا أنهما عندما انتبها كان الهدوء قد ساد المكان . وكان فهيشان الشيطان الحليف واقفاً على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران . . !

وانتصب « راما » قائماً من جديد . وأصدر أوامره بالصفح عمن بقى من الشياطين ، على أن يحكمهم فهيشان ويمنعهم من الهبوط إلى الأرض بعد ذلك . . !

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة إلى الوطن ، كانت الأنبياء قد سبقتهم إلى هناك على لسان هانومان . . فخرجت أيودا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا الذي رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة . . وظل محتفظاً به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما . . وزوجته سيتا الحسناء . . !

خطب و بیوستین
دیوستین

۳۶۰ - ۳۲۲ م. ۲۵

الخطب والخطباء على مدى التاريخ

الخطابة فطرة في الانسان ؛ ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ آثارها ، ففي الماضي البعيد كان بوذا يخضع الجماعات لكلامه المنزل وكانت نبوءات اسرائيل تهز الملوك والأمم ، وكانت اليونان حافلة بالبغاء أى برجال قادرين على تحريك الشعب واثارته لعهد هوميروس وقبل ذلك العهد . ولكن فرقا عظيما بين هذه البلاغة الغريزية التي يولدها وحى الساعة ثم تزول غير تاركة أثرا والبلاغة العلمية التي امتازت بها العصور الراقية حيث كان الخطيب على حظ موفور من الفلسفة والتاريخ فكان يلقي خطابه بعد التفكير ويمكنه أن يكتبه فلا تزيل تلاوته من حسنه شيئا .

هذه البلاغة الناتجة عن درس واف وثقافة عالية وتدريب متصل أوجدتها أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ولا عجب ، فقد كانت أثينا حينئذ في مكان سام من الحضارة وشرف باذخ .

وكانت فرص القول متعددة ؛ لأن الأعمال الاجتماعية كافة كانت تقضى جهارا أو يجادل فيها أمام الجميع وكانت المسائل العامة تدرس في مجتمعات الأمة ، حيث يحق لكل وطني أن يبدي رأيه وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم الشعبية فيباح الكلام لمن أراد حتى المتهم . أضف الى ذلك اجتماعات الأدب والعلم التي لم يكن للسياسة ضلع فيها ؛ فكانوا يجتمعون بخطيب بارع يتحدث اليهم في موضوع ما كالثناء على الأبطال الذين يموتون في سبيل الوطن أو غير ذلك .

وأشهر خطباء هذا العهد برقليس وازدكرات وأشين وديموستين ، وقد كان كل من الآخرين زعيما لحزب سياسي ؛ فقضيا العمر في عراك محتدم الوطيس والغاية واحدة هي استقلال الوطن .

كان فيليب ملك مقدونيا ينتهز فرصة الخلاف القائم بين اليونان للوصول الى اخضاعهم بالقوة أو الحيلة ، وكانت أثينا منقسمة على نفسها ؛ فقسم محافظ على ماضيه المجيد غير راض عن فيليب ولكنه ضعيف الهم لما ساور الأخلاق من التخثث فلا قبل له بالاقدام على أمر ذي خطر . وقسم يريه التحالف مع فيليب وكان ديموستين حاملا لواء الحزب الوطني وأشين

الحزب المقدوني ، وهذا الاختلاف في موقف الخطيبين خلع مسحة خاصة من البلاغة على كل منهما فلم يخل كلام أشين من الزخرفة ، بينما كان ديموستين كله روحا وعصبا . وكانت بلاغة ديموستين مرآة صادقة لخلقة القوى الشديد ونفسه الملهبة : فكانت تنم عن عزيمة أدبية لا تقهر بصرفها ذهن صاف ومنطق محكم وإباء عظيم ولسان هجاء فكان تارة جادا وطورا هازلا يستخدم العقل حيناً والعاطفة حيناً آخر هادئاً غضوباً سامياً بسيطاً ، وحتى اليوم لا تزال خطبه حافظة أثرها ، فنشعر به عند قراءتها كأنما صوته يدوي في آذاننا .

وكان صوت ديموستين آخر ما سمعته أثينا ، فان البلاغة لا تعيش بدون الحرية ، وقد جاء انتصار مقدونيا ضربة قاضية عليها فبقيت أثينا مدينة العلم والأدب وملاهي العقل ولكن منابرها أقوى من تلك النغمات الساحرة . ان الذي جعل أثينا عاصمة اليونان هي حيلتها السياسية فلما ذهبت أغراض السياسة منها ، أصبحت كباقي المدن وامتدت فتوحات الاسكندر ناشرة بذور اليونانيين في الشرق فقامت عواصم جديدة كالاسكندرية وانطاكية وبيزنس ، وبقيت أثينا كمعرض يؤمه كل من أراد الدرس أو التذكار .

ولم يبلغ خلفاء ديموستين شأنه في الخطابة ولكن اليهم يرجع الفضل في نقلها الى الذرية ، فان المدارس التي أقاموها في الشرق كان يحج اليها الناس من كل صوب لتلقى هذا الفن وعلى هذا الوجه لقنوا الرومان أسرار بلاغتهم فتعشقها هؤلاء وأخذوا يدربون عليها قتيانهم كما يدربونهم على الحرب والحكم ، الى أن ظهر شيشرون الذي يعده العارفون أعظم محام لذلك العهد فأرجع للخطابة مجدها السابق وسطح نوره في سمائها ، كما سطح من قبل نور ديموستين ، ثم هوت الخطابة ثانيا وانطوى بساط عزها باستبعاد أوغسطس روما كما استبعد فيليب والاسكندر أثينا .

ولما جاءت المسيحية بعثت فيها روحا جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء اذ قيل لهم سيروا في الأرض وعلموا الأمم . وقامت الكنائس على آثارهم وكان هذا الدين الجديد في حاجة الى ارشاد مستديم فنبح خطباء بين آباء الكنيسة أعادوا للخطابة بعض عزها . ولكن لم يطل ذلك بما تطرق الى اللغة اللاتينية من فساد لغات غريبة هي لغات الأمم المختلفة التي دخلت تباعا في المسيحية ، وأخذ العي يملك السنة الوعاط فصاروا بنسخ الخطب القديمة والقائنا حتى اذا طلع القرن السادس استيقظت الخطابة من ضجعتها وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم في الجماعة وكان من نتائجها الحرب الصليبية . وبلغ من كثرة عدد الخطباء

لذلك العهد والمنافسة فيهم أن الخطابة تحولت الى واسطة للكسب وجمع المال والهدايا ، فنزلت عن مقامها السامي وأخذت معالمها تتلاشى الى العصر السابع عشر ، عصر بوردالو وفنلون وبوسيه ودعاة الاصلاح والندوة العلمية التي أنشأها الكردينال ريشليو .

وأجمل أيام الخطابة بعد هذا هي أيام الثورة الفرنسية فقد أطلعت في عشر سنوات من الخطباء عددا لم يسبق به عهد ، وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير والسبب في ذلك ضخامة المشروع الذي أخذت الثورة على نفسها القيام به ، ثم السلطان الفجائي الذي ألقى اليها الدهر مقاليد السرعة الهائلة التي كانت تتعاقب بها الحوادث ، ثم شدة العراك يختلط به غريزة البقاء وأعمار الخطباء وأكثرهم في شرح الشباب . ولم تكن مشاغل النفوس وأهوالها لتمنع أولئك الخطباء من العناية بالشكل والديباجة واللباس أفكارهم حلا براقا من الألفاظ والتعابير بما اتصل بهم من تأثير العصر السابق : فكانوا يكتبون خطبهم قبل القائها ، على أن ذلك لم يكن مانعا من الارتحال عند الضرورة فتجيء أقوالهم ملتبهة كنفوسهم وفيها على بساطتها من اخلاص الشعور وتأثيرات النفس ما يبعث القوة والحرارة .

ثم خفتت الأصوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام وجاء نابليون ، وكان لا يحب الخطباء ، فلم يعد يسمع الا ضجيج المواقع الحربية ومن فوقها صوت واحد يملأ الكون هو صوت ذلك القائد العظيم .

أما اليوم فقد عادت الخطابة الى الظهور بنور أسطع ومجد أكمل وامتدت أعراقها الى كل فؤاد ونشرت ألويتها في كل ناد من قصور الأغنياء الى أكواخ الفقراء ، ومن معاهد العلم الى ملاعب التمثيل الى مجالس الأدب والطرب الى الأسواق .

وكان للعرب في الخطابة نصيب وافر أتاحه جوهم وأحوال معاشهم وأخلاقهم وآدابهم ؛ فان الحرية التي وجدوا فيها واستنشقوا هواءها والحماسة التي طبعوا عليها والاحساس الشديد الذي اشتملت عليه نفوسهم ، جعل للبلاغة أثرا عظيما فيهم فكانت الجملة البليغة تقيمهم وتعلمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة لحماية جار أو أخذ ثار أو غير ذلك .

وكانوا متفرقين قبائل ونحلا ، متعودين على الغارات والحروب فوجدوا في الخطابة عونا لهم على الحض والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة ، بل صارت عندهم مظهرا من مظاهر الفروسية يتباهى بها شجعانهم ويدرب عليها فتيانهم كما في الرومان .

قال عمرو بن العلاء : « كان الشاعر في الجماهير يقدم على الخطيب ؛ لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوق وتسرعوا في أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » .

ولم تكن الخطابة عندهم عن طول فكرة واجتهاد رأى ودراسة كتب بل بديهية وارتجالا ، وكان لهم بها غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعيان : « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون ، الا أنه لم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة ؛ لأن الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا قضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر ، فانه لا يضيع منه بيت واحد » قال : « ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام ، وهو أن النبي (ﷺ) هو الذي رواها عنه فأطار ذكرها ما تميزت عن سواها » .

وقال القلقشندي : « وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرتهم وباديهم وخاصتهم وعامهم بخلاف الخطابة ، فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من النصحاء فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر الفضل وسبق الى ذرى المجد ، ويخصون بذلك المواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والمجامع الحفيلة فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويشنئ عليه ثم يذكر ما سنع له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر أو فخر أو صلاح أو نظام أو غير ذلك مما يقتضيه المقام » .

وقال الحافظ : « ونحن - أبقاك الله - اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمتعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنزر القليل . ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون

وأبى عبید الله وعبد الحمید وغیلان وفلان وفلان ، لا يستطيعون أن یولدوا مثل تلك الرسائل ویضعوا مثل تلك السیر ، وأحرى أنك منی أخذت بیدي الشعوبی فأدخلته بلاد الأعراب الخلفی ومعدن الفصاحة التامة ووقفته علی شاعر مفلق أو خطیب مصقع ، علم أن الذی قلت هو الحق وأبصرت الشاهد عیاناً فرق ما بیننا وبینهم فتفهم عنی فهمك الله ما أنا قائل » .

وكان یسمى خطیب القوم الزعیم أو المدره ، وأشهر خطباء الجاهلیة قس بن ساعدة ، وعمرو بن كلثوم ، وأکثم بن صیفی التمیمی ، والحارث ابن عباد ، وقس بن زهیر وغيرهم .

ولما جاء الاسلام ساعد علی انتشار الخطابة تأییداً للدعوة الکبری للأمر بالمعروف والنهی عن المنکر فكان لها من آی القرآن معین لا ینضب وأخذ الخطباء یرصعون خطبهم بالآیات تمثلاً أو إشارة أو تهديداً ، حتی لقد یجعلون الخطبة برمتها مجموع آیات ، كما فعل مصعب بن الزبیر لما قدم العراق وأراد أن یعرض أهله علی الطاعة لأخیه عبد الله .

واتخذت الخطابة حينئذ صنیعة غیر التي كانت علیها فی الجاهلیة فكانت لغتها أرقی وأصفى وعلا شأنها الی درجة لم یسبق لها عهد ؛ لانصراف العرب عن الشعر الیها واعتمادهم فی الدین والسیاسة علیها .

وأعظم خطباء هذا العصر هم بعد النبی دعاته وقواده وخلفاؤه .

ولما ثارت الفتن بعد مقتل عثمان وافترق المسلمون أحزاباً اشتدت الحاجة الیها عند كل فریق للدفاع عن مبادئه والطعن فی خصومه ؛ فكان فی الجانب الواحد العراقيون وعلی رأسهم علی بن أبی طالب وفی الجانب الثانی الشامیون وفی طلیعتهم معاویة .

ثم أخذت تضعف ملكة الخطابة بعد الفروع من الفتوح والاستسلام الی الترف حتی صدر الدولة العباسیة ، فاذا بالخلفاء ودعاتهم ینعشونها بعد الذبول وینهضون بها بعد الحمول كالمنصور والمهدی والرشید والمأمون وداود بن علی وخالد بن صفوان وشبیب بن شیبہ .

ولما استوثق الأمر لبني العباس وقام الأجناد والموالی بسیاسة الدولة وقيادة الجیوش وقل النضال باللسان والسنان ، ذهب البلاغة من الألسنة وحلت محلها الرسائل والنشرات ، وقصرت الخطابة علی الجمع

والعديد والاملاك . على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنونهم الى عهد الخليفة الراضى ، وعهد بالخطابة والامامة الى الأكفاء من العلماء فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة كالبغدادى والتبريزى . ولما استعجم المسلمون وملك العى السنة الوعاظ فلم يستطيعوا انشاء الخطب فى الموضوعات المختلفة ، عمدوا الى استظهار خطب أسلافهم كابن نبياتة المصرى وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها ، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى اليوم (راجع تاريخ الآداب العربية لزيدان والآداب للزيات والوسيط لأحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى) .

واليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة وتعددت مظاهر الاجتماع وتبدل شكل الحكومات وتغيرت سلطة الحكام ، عادت الخطابة الى الظهور لابسة ثوبا آخر غير ثوبها الدينى ، فظهر فى الشام لعهد غير بعيد أديب اسحق والشيخ العازار وغيرهما ، وفى مصر عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، أعظم خطباء هذا العصر الحاضر وأقواهم حجة وأبعدهم تأثيرا وأكثرهم بيانا .



حياة خطيب أثينا العظيم :

ان تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ، ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ، فوجهه يبدو عليه الهم والقلق كأن كل نصر أحرزه فيليب (ملك مقدونيا) قد أحدث غصنا جديدا فى جبهته ، والجسم نحيل منهوك ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة وتتنبان بموت مدبر .



تعتبر حياة « ديموستين » نموذجا فريدا للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان . كانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته ؛ فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كورنتيليان » ان طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب .

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة؛ ولكن أوصيائه الثلاثة بددوا ثروته فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام .

وإذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا ، فقد اكتسب معرفة بالقانون واجراءات القضاء ، وامتلات نفسه أيضا كراهية لكل ظلم واعتداء . أراد أن يدرس القانون لكي يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على « اسائس » ، الذى كان من علماء القانون والذى اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق .

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة . لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظا من التعليم ثم قرأ كتب التاريخ والأدب وأعجبته فصاحة الخطباء وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس واعجابهم، فتاقت نفسه الى أن يكون خطيبا، وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ الى ولايات ومدن مستقلة وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى: فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع اليهم الأمر فى شئون الحكم . وكان النظام القضائى يبيح لآى شخص أن يطلب الى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام .

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير ، وانه ليطمح الى أن يكون خطيبا يشترك بفصاحته فى ادارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير فهو ضعيف الصوت قصير النفس مرتبك فى اشارته ، وبلسانه لشغة تزيد فى ارتبائه عند الكلام . وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير ، الذى اكتشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسة ونفس تضطرم بالطموح ونفخ فيه من روحه وأعاد اليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه الا حسن الالقاء واجادة النطق وهو شئ يكسب بالمران .

ويتحدث الرواة عن الجنود المضنية التي بذلها « ديموستين » في تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته طموحه الى التحليق ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل الى القمة التي يريد ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

ويروى المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شيد نفسه حجرة تحت الأرض ، كان ينقرد فيها ليتمرن على الخطابة وكان يقف أمام المرأة ليتخير الاشارات المناسبة وقت اللقاء ، وكان يضع الحصى في فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ويصعد الجبل عدوا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت مرتفع أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطفئ على هدير الأمواج وكان يحلق نصف رأسه ؛ ليرغم نفسه على ملازمة حجرته بالشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا الى دراسته وتمرينه .

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلم جهاده بالنجاح ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية بل خطيب أثينا الأعظم !!

ومن عجب أن هذا اللسان الذي كان يثقل في فمه أصبح لسان أثينا، الذي ينفت السحر ويلهب الحماسة حتى قال عنه « فنيلون » المؤرخ الكبير :

« اننا اذ نسمع ديموستين لا نفكر في كلماته ، فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شيء يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ؛ لاننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا » .

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم ، يشعر فيها بصدق اللهجة والاخلاص الذي يوحى اليه الثقة في الخطيب ، ويرهقه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ويجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التي تقنع العقل والحماسة التي تثير الشعور . وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابي .

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريدا في العالم القديم : فقد جمع في شخصه بين الوطني المتحمس والسياسي البعيد النظر والفنان النابغ الذي لا يشق له غبار .

وقد خصص « دايونيسياس » بحثا عنه فقال انه سما بالنثر اليونانى الى حد الكمال ، بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق مدرسة « انتيفون » فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » فى الحماسة ، ومدرسة « ايزوكرات » فى التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته ، فما الدور الذى هياه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه وقضى حياته كلها مجاهدا فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب ، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .



مراحل الكفاح السياسى :

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف الى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لم يطلبها لالقائها فى المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال اجازة رسمية فى الحقوق وطفق يترافع بنفسه فى مجالى القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة وكانت مناقشات المجلس الاثينى العام - وهو البرلمان الشعبى الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوق المدنية - ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد تدفعه الى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة الى النهوض بروح الشعب الاثينى ، الذى نبذ تقاليده وخمدت حميته وانغمس فى اللهو . كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى احداها على الأخرى ، ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولا أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لاصلاح

الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية وتزيد في ثروة الدولة وتضاعف قوتها العسكرية، وأخذ يطالب باصلاح القوانين واجراءات التقاضى ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته قوله : « ان الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبدا أن تؤدي الى قوة حقيقية ، انها قد تؤدي الى سيادة وقتية ؛ ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف . . »

الخطب الفيلبية :

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ومات فى سبيله ، كان فى تنبيه الأثينيين الى خطر « فيليب » ملك مقدونيا ، وحثهم على الاستعداد للقاءه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الاسكندر الأكبر ملكا لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ؛ فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحا شهرا فى وجه فيليب ليصده عن سلب الاغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستفز شعب أثينا للقتال ويحث شعب الاغريق على الثبات والنضال، وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيلبيات .

فلنستمع اليه فى خطبه الفيلبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة والوطنية فى شعب أثينا فيقول :

يا رجال أثينا . .

ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك ، وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر ، فاذكروا أثينا وانه أتى عليها عهد كانت فيه أيضا عزيزة الجانب ، وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن . وهذه الأمم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه . فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن

اليوم وقال في نفسه لا طاقة لي على محاربة الاثينيين وقد ملأوا البسيطة عدة وعديدا ، لما أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرا بباله ولا معلقا بخاطره ، بل عرف أن الفوز للجسور دون سواء .

فاذا كنتم أيها الاثينيون تريدون أن تقوموا اليوم بما قصرتم عنه أمس، اذا كنتم قد عزمتم العزم الأكيد أن تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين ففد فزتم بإذن الله وأصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم . لا تحسبوا فيليب هذا الها لا ينال ، ان هو الا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فان من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم في حاجة الى نصير . تلك الأهواء والشهوات قد ضغط عليها الحمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم .

★★★

الام يا رجال أثينا تظنون « غرضا يرمى وفيثا ينهب ؟ » ما الذي تنتظرون ؟ الساعة الموافقة ؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم في النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان أتريدون أن تطوى أعماركم وأسم تتساءلون ماذا من جديد ؟ ترخا لكم وهل من جديد مثل هذا المقدوني قاهر أثينا ومخضع الاغريق . تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله ، وتنسون أن ذلك لا يبدل من حالكم شيئا ؛ لأن ما يساوركم من الخمول والعجز والضعفة لا ينفع لديكم الا أن يسلط (فيليب) آخر عليكم .

وله من خطبة أخرى :

أيها الاثينيون .

رب معترض فيكم يظن افحامى اذا سأل : ماذا نفعل اذن ؟ أما أنا فأجيب ، لا تفعلوا شيئا مما تفعلون الآن وافعلوا كل ما لم تفعلوه ، على أنى سأزيدكم بيانا ، على الذين سارعوا الى السؤال أن يسارعوا الى العمل فاذكروا أيها الاثينيون ان فيليب نكت عهده معكم وكان البادىء بالعدوان ثم اذكروا أن فيليب هو عدو أثينا الالد ، عدوها الذي يكره أرضها وسماءها بل يكره منكم حتى أولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عنده .

ان أبغض ما يبغضه فيليب وأخوف ما يتخوفه هو حريتنا هو نظامنا الديمقراطي وفي سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ما فتىء ينصب الشراك ويدبر المكائد . هو يعرف حق المعرفة أنه لو أخضع بلاد الاغريق

بأنبيائها ويسيطر عليها سلطانها من أقصاها الى أقصاها ، لما جعله ذلك منها
فى جناح آمن ما دامت ديمقراطيتكم سالمة ، وهو يعرف أيضا أنه اذا خانت
الأقدار يوما وقلب الدهر له ظهر المجن ، فكل هذه الشعوب التى أخضعها
عنوة تبادر الى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم .

أفى العالم ظلم يجب دفعه ؟ هاكم أثينا ! أفى العالم أمة مقهورة تطلب
نصيرا هاكم أثينا أفتعجبون بعد هذا اذا كان فيليب لا يطيق صبرا على
هذه الحرية التى تقف منه موقف الرقيب على جرائمه المحاسب على آثامه !

وله خطب أخرى ، منها :

أيها الاثينيون . حتى متى سكونكم واخلادكم الى التواني ؟ متى تدب
الحياة فى عروقكم ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟
هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل
الواجب أقوى من تهديد بالزوال وشرفها بالتمزق وللمتها بالتفريق ؟ انه
لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يوارىكم فى قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضا عما
جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد انه مات ويقول الآخر بل هو مريض !!
يا عجبا .. !! عجبا يمزق القلب أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسعى لقهر
أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعا ؟ ماذا عسى أن تصيبوا من
المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟
وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون
هذا فى الشدة عليكم . فان فيليب ما قوى اليوم الا بضعفكم ولا تحرك
الا بسكونكم .

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين
فيقول :

« لا تقولوا المرتزقة . نريد رجالا أحرارا أنبتتهم تربة أثينا يرون
سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها ، ومن أرضها كانت بدايتهم وفى أرضها
نهايتهم ، منها خلقوا واليها يعودون كرة أخرى أولئك هم أباء الضيم الذين
يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى » .

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو الى الاستعداد لها قبل وقوعها
ويقول :

« ان الحروب لا ضابط لها ولا قانون . فهل تريدون الانتظار حتى يأتىكم نبأ الاغارة المفاجئة ؛ فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تقوت الفرصه ونسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها . اذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم تكن قد ابتلينا بمثله . أما الآن وقد عظم الخطب وتفاقم الأمر وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة الى تغيير هذه الخطة الخرقاء . »

وقد كانت الخطبة وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن للأثينيين بالقرب من بيزنطة باعثا لهم أثينا ، فأصدرت قرارا بتجهيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن فعزل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجم بعد ذلك « أولنتوس » وهى المدينة الوحيدة من دون بحر ايجيه التى بقى فى وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا فأسرع ديموستين الى المنبر يدعو الى نجدتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب فيقول :

« انكم لا يمكن أن تكونوا أخطاتم أيها الأثينيون اذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلام للجميع . لا وحق أبناؤنا الاولين الذين قابلوا العدو عند (ماراثون) لا وحق بحارة « سالاميس » لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم فى أرض الوطن والذين كللوا هاماتنا بللمجد . أقسم بهم جميعا وبكل من مات فى سبيل البلاد . . . »

وقد استجابت أثينا لندائه وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود والمرتزة . غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنتوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة فأباحها للنهب والسلب وباع أهلها بيع السلع وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء وعادوا الى بلادهم ؛ فكانوا دعاة للهزيمة وأعوانا لفيليب .

وبسقوط أولنتوس وفشل أثينا فى انقاذها ، قوى فى أثينا الحزب الذى يدعو الى مسالة فيليب ، والذى يضم خليطا من الزعماء منهم المخلص ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذى كان صنيعة فيليب .

وكان ديموستين قد انتخب عضوا في مجلس الخمسمائة وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التي فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر الى مساندة دعاة السلم فأرسلت أثينا وفدا للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليديم ما دام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقي المدن الاغريقية ، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للمقتال ويقول لهم :

« ان الصداقة التي تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التي يركن اليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون اذن أن ألقاب فيليب نفسها هي انكار لهذه الحرية التي تنشدونها ؟ ان كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون انكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكنني أخشى أن تقودكم هذه المحاولة الى الوقوع تحت نير الاستعباد . . »

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء في خطبه ، فستظل كلماتها رمادا متخلفا عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائما بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

شهادة من عدو !!

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية من خطبة له في المجلس :

« ان منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يخرج الخطيب اذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنني أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم : لا تفعلوا شيئا مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه وانه لجواب حق وصدق ولكنني سأزيد لكم الأمر ايضا ولعل أولئك الذين سارعوا الى السؤال يسارعون أيضا الى العمل . اذكروا أولا أن فيليب قد نقض عهدكم وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا محل للخلاف عليها ، ثم اذكروا أيضا أنه عدو أثينا الألد عدوها الذي يكره أرضها وأسوارها بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . ان أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطي وانه ليهيئ أشراكه لكي يقضى على هذه الحرية وهذا

النظام ، لأنه يعلم جيدا أنه لو أخضع جميع بلاد الاغريق ، فسوف يظل غير آمن ما دامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة ، فان جميع هذه البلاد التي قهرها سوف تسارع الى الانضمام اليكم لاستعادة حريتها . ان فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التي تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه فهو يعبى جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوه ؟ يجب أن يسارع كل منكم الى التبرع بنسبة ما يملك ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية، حتى اذا تهيأ فيليب لغزو الاغريق وجدتم الجيش اللازم وامداد حلفائكم . لا تحدثوني عما يحتاج اليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فاني لست أنكرها ولكنها تهون كلها اذا نظرنا الى الخطر الذي يهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى اذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فاني لا أشير به عليكم ! أجل . . انه لخير لي أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيري واستمعوا لأقواله اذا أردتم ، أما اذا كنتم تشعرون بما أشعر به وترون معي أنه كلما امتدت فتوحات فيليب ، كان في ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر الى مكافحته . . اذا كنتم ترون ذلك فلم تترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع انشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب في طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة . . فان مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة . . .

بهذه الكلمات التي تتقد حماسا واخلاصا ، كان ديموستين يدعو الأثينيين الى القتال ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين ، ولكنها كانت تحوى من أدلة الاقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين : « انى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش . . »

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفا لسهام بلاغته والفضل ما شهدت به الأعداء !!

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا ، وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائما في انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصدا لها يلقاها أقوى ما يكون ايمانا وأثبت جنانا ، وأفصح لسانا لا يخشى العدو الظافر الذي كان يكتسح من حوله ، بل كان لذلك يزيد ايمانا بصحة فكرته وصدق دعوته . وعبثا حاول «فيليب» أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها .

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيرا من مدنها ولما رأت بلاد الفرس تقدم «فيليب» وتوغله عملت على محاربته ، فقام ديموستين يحث أثينا في الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب ، فسيرت أثينا اليها أسطولا ضخما تبرع ديموستين بشراء وتجهيز إحدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب في الاستيلاء على بيزنطة واضطر الى رفع الحصار عنها والعودة خائبا . وارتفعت مكانة ديموستين في أعين أهل أثينا فأهدوه تاجا من الذهب اعترافا بفضله وتقديرا لجهاده .

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التي تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين الى الحرب وسافر الى بيوثيا ، وحملها بسحره على التحالف مع أثينا والتقى الجيشان ولكن فيليب هزمها هزيمة نكراء ، وإن كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الاسكندر الأكبر .

وعندما ذاع خبر قتل «فيليب» عمت الفرحة بلاد اليونان وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه الى المجلس العام ، وعلى رأسه اكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ودعا مواطنيه الى الثورة على الاسكندر . وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها الى البلاد اليونانية تدعوها الى مقاومة خليفة «فيليب» والثورة عليه ؛ فتمردت مدينة «ثيبا» وأعلنت العصيان .

ولكن الاسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى ؛ لاختماد حركات التمرد وزحف على «ثيبا» وسحق ثورتها ونكل بأهلها ودمر جميع منازلها، ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر «بيندار» .

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصف بها الرعب ولكن الاسكندر لم يزحف اليها ، واكتفى بارسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له وكان في طليعتهم ديموستين .

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب وتناقش فيه مجلسها واشترك ديموستين في المناقشة وروى قصة قال فيها ان الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع اذا سلموها كلاب الحراسة فقبل الرعاة ، ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به .

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل الى الاسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد في مسعاه وتم الصلح بين أثينا والاسكندر المقدوني .

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه وحقق انتصارات كبيرة في كل مكان ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند .

وكان « ديموستين » في خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار . وامتزجت حياة ديموستين في هذه الفترة بقصة غريبة . ذلك أن « هاربال » الذي كان وزيرا لمالية الاسكندر تمرد عليه وانتهاز فرصة انشغاله بالحرب في آسيا ، فاستولى على مبلغ طائل من أمواله وجهاز أسطولا من ثلاثين سفينة وجيشا من المرتزقة وهرب الى شاطئ أثينا ليشعل الثورة على الاسكندر ؛ ولكن أثينا رفضت قبوله بنصيحة ديموستين فذهب « هاربال » بمفرده الى « أثينا » وأعلن في مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها، موهما اياها أن قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليه وانقسم أهل أثينا الى فريقين : فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال » واعلان الحرب على الاسكندر الذي كان مشغولا بحربه في آسيا ، بينما رأى فريق آخر على رأسه ديموستين ابعاد « هاربال » وعدم الزج بأثينا في حرب لا تملك فيها من القوى، ما يؤهلها لمواجهة قوة الاسكندر ، التي بلغ من تعاضمها أنها أطمعت صاحبها في غزو العالم كله . وفي غمرة الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدوني « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا وفدا الى المجلس الاثيني العام يطلبان منه تسليم « هاربال » والمال الذي في حوزته ، واقترح « ديموستين » القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الاسكندر وحفظ المال الذي معه في

الأكربول فوافق المجلس على الاقتراح ، ولكن (هاربال) هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعا فى الأكربول قد اختفى . ولما كان المال محفوظا تحت اشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالاهمال الجسيم فى مراقبة الحراس . وأثاروا الشك حوله فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة للتحقيق فى الموضوع ، وأعلن أنه يقبل حكم الموت اذا تبين أنه أخذ شيئا من هذا المال ، وانتهى التحقيق بادانة ديموستين دون تقديم دليل مادي على هذه الادانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة .

ولكن ديموستين هرب الى احدى الجزر حيث قام فى منفاه بعيدا عن أثينا .

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفى الاسكندر فى مدينة بابل عام ٣٢٣ ق.م بتأثير الحمى وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى وانهارت مكانه صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قرارا بدعوة ديموستين للعودة الى بلاده ؛ فعاد الى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاة والحكام والكهان .

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ولجأ المجلس العام الى نوع من الحيلة ؛ لاعفائه من الغرامة الضخمة التى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون الغائها ؛ فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الاله « زيوس » مبلغا من المال ، فعهد المجلس الى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل « خمسين وزنة » وهى قيمة الغرامة .

وكانت الحرب قد اشتعلت بين انتيباتر ، الذى خلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان وبين البلاد الاغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر ؛ ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعة كرانون سنة ٣٢٢ ق.م واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا .

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها الى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم ؛ فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من انتيباتر .

وأعلن أنتيباتر استعدادة للتوقف عن مهاجمة أثينا ، بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين .

واستطاع « ديمادس » أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر .

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية فهرب الى جزيرة كالوريا ، ولجا الى معبد الاله « بوسيدن » الذى كان حرما يقدسه أهل اليونان .

وكان « انتيباتر » قد أرسل عملاقا من أتباعه يدعى « أركياس » الذى بدأ حياته ممثلا للقبض على ديموستين، فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتا يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمرا ثم نظر الى أركياس وقال له متهمكما :

انك يا أركياس لم تستطع يوما أن تؤثر فى بتمثيلك ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بعودك !

فغضب أركياس وبدأ يهدد ويتوعد فقال له ديموستين :

— انك تتكلم الآن كمقدونى أما قبل ذلك فقد كنت ممثلا زائفا .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب فقال لرسول انتيباتر :

— انتظر حتى أكتب لأصدقائى .

ثم انسحب الى داخل المعبد ولكنه كان ظاهرا لمن فى الخارج ، وتناول قصاصة ورق ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه، كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه الى الخلف وسحب عباءته فغطى بها وجهه ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد ؛ فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ودخل اليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته .

وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله فآزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

— يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور « كريون » كما تشتهى ،

ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث ؛ ولكننى أيتها الاله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك ومازلت حيا ، كى لا أسمح لانتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب اليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة ولم يكذ يتخطى عتبة معبد الاله حتى انهارت قواه فسقط ، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح .

دیوان ابو نواس
ابو نواس

أبو نواس .. أمير المستهترين ورائدهم !!

من غريب المصادفات أنه لما استقرت موازين الأدب في العصر الحديث - برزت ناحية جديدة لم يظن لها الكتاب القدامى ، وهي الواقعية في الأدب - وأثرها في الأثر الفني ومنزلته في موازين النقد والخنود .

وبرزت هذه الناحية قوية شائكة لما اجتمع أعضاء لجنة جائزة (نوبل) لسنوات خلت ، لاختيار الأديب العالمي الذي يستحق جائزة نوبل . للأدب ، فقد اختلف أعضاء اللجنة حول منح الجائزة للكاتب (ارنست - همنجواي) ، وذهب بعضهم الى أنها من حق كاتب آخر ، ولكن الأغلبية تأثرت بواقعية همنجواي في قصصه ورواياته ، فقررت أنه أحق بها . من سواء ومعنى هذا الحكم الأدبي الخطير أن الأدب المعاصر أخذ يتطور نحو الواقعية .

وهنا تبرز خطورة الأثر الأدبي الذي تركه الحسن بن هاني للأجيال . التي أتت بعده في ديوانه ، فقد استبق المذهب الواقعي المعاصر بأجيال وأجيال وكان أجراً شاعراً عربياً في موازين الخلود والابداع .

- يقول الأستاذ عمر أبو النصر في تقديمه لكتاب « أبو نواس في تاريخ الشعر » تأليف ابن منظور المصري :

وهذا الكتاب عرض رقيق لين هين لكبير من عظماء العرب ، وعظيم من علمائهم ، ابن منظور صاحب (لسان العرب) أكبر موسوعة في تاريخنا العربي القديم والحديث يتناول حياته اللاهية العابثة بشيء من الرفق والتورية ، وما تنفرد به من الوصف الناعم للاماء والجواري يلبسهن زي الغلمان ، ويقمن بالخدمة في المجالس والحانات ، واصفاً حياته المخمورة وعيشه المتواصل ومخالفته لما تواضع عليه الناس من التقاليد والأخلاق . ونذر الفضيلة ، وما اتصل بهذا وتعلق به وأسبابه ودوافعه .

وانت حين تقرأ هذه الحياة القرينة العجيبة ليلفن بك العجب مبلغه . وليأخذنك الدهول الى أبعد الحدود والغايات ، حين تستشعر أن هذه الحياة التي كان يعيشها النواصي في العهد العباسي الأول أو منذ ألف ومائتي سنة ليست منا أداله الدهر ، وأزله الزمن ، فهي ما تزال ظاهرة حية قائمة تجلجلجنا في كهوف (سينان جرمان دي بريته) في باريس معقل - الوجوديين والوجوديات والمخنثين والفلاميات .

واذن ، فمثل هذه الحالات من الحياة الجارفة الخارجة على التقاليد المتواضع عليها ، قائمة في باريس ، كما كانت أمرا واقعا في بغداد عهد الحضارة العربية الاسلامية ، وفي هذا ما يؤكد أن الحضارة حين تبلغ ذروتها وتصل الى غاياتها في كل عهد وقطر ، لابد وأن تنفر من عقال الأخلاق المتفق عليها ، ويتجه أفراد الناس سواء أكانوا من الأدباء أم الشعراء أو سواهم من رجال العلم والفنون الى سبل جديدة وطرق لم تحددها المسالك ولم تقبدها التقاليد ، حيث ينشئون لأنفسهم أساليب خاصة في الحياة . وحيث يخلقون ألوانا جديدة من الأخلاق تسايير مشاربهم وترتضيها نفوسهم وهي أخلاق قد تكون ، وفي كثير من الأحيان ، مخالفة للأخلاق القائمة والتقاليد المقررة .

ومن المؤكد أن هذه المقاييس الجديدة في الأخلاق والتي تكون عند المثقفين نواة تفكير عميق ومحاكمات منطقية متشعبة . . . حين تنتقل الى جمهرة الناس وعمامة الشعب تصبح شيئا عاديا ، ليس يجد فيها العامة غير وسيلة الى المتعة المطلقة واللذة الشاملة الكاملة .

وواقع الأمر أن الترف اذا توافر في عهد من العهود ، اشتد تهافت الناس على ألوان اللذة ومشتقاتها وغرائبها ، فيندفعون عندئذ الى اكتشاف أشكال جديدة للذة لم يكن للسابقين عهد بها ولا معرفة ، سواء أكانت هذه اللذة في الأشربة والمخدرات أم في المتع الجسدية وأمثالها . . وما شاكلها .

وفي التاريخ الانساني أمثلة عديدة تؤيد ما نذهب اليه : فقد أغرق الاغريق ثم الرومان في المتع الجسدية ، كما يفرق اليوم رواد الحضارة الغربية في مثل ذلك ، وان كنت تجد هذه الحياة العارمة اشد وأقوى في الغواصم والمدن الكبيرة منها في غيرها من المدن الصغيرة والقرى المتواضعة .



وانت تدرس فنون الأدب والشعر في حياة أبي نواس ، انما تدرس ناحية من نواحيه وطرفا من حياته فليس أثره في تاريخ الأدب العربي ليقوم على شهره فحسب وانما يقوم - وبالتأكيد - على ما الخطه من سبل جديدة في الحياة ، وعلى ما درج عليه من مخالفة الأخلاق القائمة في عصره . وعلى ما سيره بين الناس من شعب يؤيد مذاهبه ويروج لها فهو أسلوب رائع وشعر رقيق .

وإذا كان الانجليز لا يتخرجون في الافادة من بعض كبار كتابهم وشعرائهم مع انكارهم لأخلاقهم ومذاهبهم (كأوسكار وايلد) مثلا ، وإذا كان الفرنسيون يجلون (أندريه جيد) وهو من يعلم القارئ خطرا في الأدب وشهرة في العالم ، مع شذوذه وغرائبه .

وإذا كان الايطاليون يتباهون بشاعرهم (دانونزيو) مع تهوره واستهتاره ، فلسنا نجد سببا يمنعنا من التحدث عن أبي نواس على النحو الذي وصفنا ، وهو أمير المستهترين ورائدهم . . . وقد شق لنفسه الطريق الى حياة الانفلات من المقاييس الاخلاقية القائمة قبل الوجوديين المعاصرين وقبل الجميع .

ان القداسة التي نتغنى بها ، والتي نحاول أن ندعو لها ونحارب المفكرين المجددين في سبيلها لا تنفي الأمر الواقع . . من أننا نغالط أنفسنا ونتجاهل مسئولياتنا . . . فكافة الزذيلة لا تكون باخفاء أخبارها وإنما تكون بنشرها وإذاعتها . . . ليعرف الشباب مواطن الخطر ومكان الشر ، فمهما اشتدت نزوات الشر عند أمة من الأمم ، فأنت تجد أبدا فيها قوما يدعون الى الخير ويحاولون الاصلاح ويقولون بالرجوع الى النهج القويم والمثل العليا .

ان في تاريخ العرب والاسلام من قصص الاصلاح الاجتماعي والدعوة الى الخير والخلق القويم ما لا مثيل له عند أمم العالم كله ، وليس يضير الأدب العربي في كثير ولا قليل أن يظهر فيه شاعر على غرار (أبي نواس) استهتارا ومجوناً وتكالباً على اللذة ، فالأمة التي تخلق العبقريات الأخلاقية خليقة بأن تخلق العبقريات المستهترة أيضا ، لتنظم عندها مقاييس العبقرية ، وليستطيع الأديب وهو يكتب تاريخ الأدب أن يؤديه على أحسن ما يكون وأنبل ما يكون وأصدق ما يكون .

حياة أبي نواس :

ليس فيما جاءنا عن نسب أبي نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان اليه ، فالأقوال فيه متضاربة والاختلاف غير قليل ، على أن المشهور عنه أنه الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن الصباح ، وأن جده كان مولى من جند مروان بن محمد وهو من أهل الشام ، وأن أمه فارسية من الأهواز واسمها جليان .

وكان يكنى في أول أمره أبا علي ثم تكنى بأبي نواس لذؤابتين كانتا بنوسان على عاتقه وهو صبي ، وقيل ان أستاذه خلفا الأحمر كان له ولاء في اليمن ، فقال له يوما : « أنت من اليمن فتكنى باسم ملك من ملوكهم الأذواء » . فاختار ذا نواس ، فكناه أبا نواس بحذف صدره ، فغلبت عليه .

واختلف في مولده ف قيل : كان مولده في سنة ست وثلاثين ومائة . وقيل : سنة خمس وأربعين وقيل : سنة ثمان وأربعين وقيل : سنة سبع وأربعين .

وكانت ولادته في الأهواز من فارس ، ذلك أن أباه هانثا انتقل اليها مع الجيش للرباط ، فتزوج فيها جليان ، فولدت له عدة أولاد منهم الحسن ومات أبوه وهو طفل فانتقلت به أمه الى البصرة وله من العمر سنتان . فنشأ هناك ولما شب أسلمته الى عطار يبرى عود البخور .

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة ، وبها نزوع شديد الى الأدب ، فكان لا يفتر عن مخالطة أهل المسجد ، والأدباء المجان ، وأخذ يتردد على باب أبي عمرو بن العلاء . وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده فاتصل بهم وهو في العقد الأول من عمره فاكسب منهم أدبا وعلما ولكنهم أضروا بأخلاقه .

ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه ، فكان أصحاب المجون اذا أرادوا الخروج الى نزعة استاجروه بدينار فيحمل لهم أدواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا .

وكان الأقدار أبت الا أن تذيبه كأس الادناس حتى الشماله ، فأرسلت اليه والبة بن الحباب الأسدي الشاعر الكوفي الخليل ؛ فلقية عند العطار ببرى العود فافتتن به وأعجبه ذكاؤه ، وأدبه فحمله الى الكوفة وعنى بتخريبه في الشعر فأدبه بأدبه وخلقه بأخلاقه وعرفه بأصحابه المجان ، فأصبح لا يطيب له الا الاجتماع بهم وفيهم أمثال مطيع بن اياس وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد وحسبك بهم من عصابة سوء .

ولم يشأ أبو نواس أن يعرف بالشعر قبل أن يخالط العرب الخاص ويأخذ عنهم الغريب ويستوى لسانه على الكلام الفصيح ، شأن كل شاعر يريد أن ينبه في ذاك العصر . فسأل أستاذه والبة أن يسمح له بالخروج

الى البادية مع وفد بنى أسد ، فأخرجه مع قوم منهم فاقام فى البادية سنة
ثم قدم الكوفة فلبث فيها مدة قليلة ، ثم فارق والبة ورجع الى البصرة
فاختلف الى كبار أئمتها فأخذ عنهم شيئا كثيرا ثم شخص الى بغداد .

قدم أبو نواس بغداد وسنه أربعت على الثلاثين ، ومقاليد الخلافة فى
يدى هارون الرشيد فأتيج له أن يتصل به فقربه الرشيد وأحبه وأنعم
عليه . وتفاضى عن فسقه وسكره واستهزائه بأحكام الدين . وعفا عنه
مرارا وأطلقه من سجنه على أنه لم يخصه بذاته ، فلقد كان الرشيد شديد
الحرص على وقار الخلافة ، شديد الحفاظ على تقاليد الدين ، ولا سيما أمام
الرعية . فلم ير من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليل مختصا بقصره ،
لذلك لم يحظ أبو نواس الحظوة التى كان يأملها عند الرشيد ، فتفرغ
لمصاحبة المجان فكانوا يجتمعون فى سوق الكرخ أو فى روضة أو فى
منزل ، فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ويستمتعون بأنواع الملذات
التى ألفتهم ، فما يتركون محرما الا اتفقوا على اتيانه غير متورعين
ولا مستحين ، وأشهر أصدقائه الخلاء فى بغداد : داود بن رزين
الواسطى ، والحسين بن الضحاك الأشقر الخنيج ، والفضل الرقاشى ،
وعمر بن الوراق ، والحسين الخياط وعنان جارية الناطقى ، واسماعيل
القرطيسى ، ورزين الكاتب آخر دعبل . وربما تولى أحدهم دعوة رفاقة
فيهمى لهم مجلسا فى بيته أو فى غير بيته فيكونون فى ضيافته . وقد
تكون هذه الدعوات بأن يقول كل واحد منهم شعرا يصف به ما عنده من
أسباب اللهو والملذات ، فمن افتن فيها أكثر من غيره قبلوا دعوته وصاروا
اليه . فهذه الحياة الماجنة المشرقة كانت تدفع شاعرنا الى التبذير فى نفقاته
وهو مشهور بسخائه فلم تكفه عطايا الرشيد على جزالتها . فكان يشكو
ويتذمر حتى اضطر الى أن يقصد مصر ويمدح الخصيب أميرها ، ولولا حاجته
لما ترك بغداد وما فيها من أصحاب وملاء وحانات .

انتجع الشاعر مصر صفر اليمين متألما من كساد سوقه وفى ذلك
يقول :

انى لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر

ومدح الخصيب بعدة قصائد فأحسن الخصيب صلته وأخذ أبو نواس
يناديه على الشراب ويلهو وإياه ويعبثان معا حتى أصبحت للشاعر دالة
عليه . ويسرت حاله بعد عسر . فتفرغ للهو والمجون فعله فى بغداد .

على أن عطايا الخصيب لم تكن لتغنى أبا نواس أو تنسيه ملاهى بغداد وقصر الخليفة العباسي . فنوايح الشعراء لم يكن لهم غير دار السلام حاضرة تستشير قرائحهم ، وتذكي عبقريتهم ، وتشبع مطامعهم . ولعل الخصيب ضاق ذوعا برغبات الشاعر ، فان بعض الرواة يتحدثون بأنه بعد أن أعطاه ثلاث جوائز كل جائزة بألف دينار قال له : « ارتحل فما لك مقام عندنا ، ويؤيد هذه الرواية ما نعلمه من أن أبا نواس ترك الخصيب غير راض عنه وعن عطاياه فكان اذا سئل : « كم وهب لك الخصيب مع مدائحك فيه وقصدك من العراق اليه ؟ » ، قال : « لا والله لم يهب لي الا مائة دينار والناس يكثرون في ذلك » . وقد هجاء بعد مفارقتة ايام ورماء بالتقتير على بنيه .

ولكن لم يوفق في الرجوع الى بغداد ، فانه شرع يهجر القبائل النزارية لما اشتدت صولة الشعوبيين ، ولم يعف عن قريش وفيها الخلافة وقبلها النبوة فحبس وطال حبسه حتى مات الرشيد واستخلف الأمين .

اتصاله بالأمين :

عرف أبو نواس أولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب . فنادم أولا ولد المهدي ولازمهم ، فلم يلق مع أحد من الناس غيرهم . ثم نادم القاسم بن الرشيد ولكنه لم يلبث أن فارقه وتقرب من أخيه الأمين، وكان يومئذ صبيا يدرس النحو واللغة على الكسائي . وزاده اتصالا بولي العهد أن الرشيد أمر الكسائي أن يحضر أبا نواس لينشد الأمين الشعر النادر ويعلمه الغريب . فلزمه شاعرنا ولم يفارقه ، وراقت الأمين صحبة أبي نواس فاتخذته نديما . وشاطرته اللهو والمجون فانحطت أخلاقه في صباه ، وكان انغماسه في العبث والفسوق من الأسباب التي أضاعت ملكه .

ولما بويغ بالخلافة بعد أبيه جعل الشاعر في بطانته فكان ألزم له من ظله . ولا ريب في أن خلافة الأمين كانت أسعد أيام أبي نواس وان لم يطل عهدها أكثر من خمس سنوات ، وخمس سنوات شيء يذكر في عمر الشاعر المتنعم . على أنها لم تخل بعض الأحيان من تنغيص ، اذ كان الخليفة يضطر الى حبسه على أعين الناس، حين يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر .

والحف عليه بالتشديد يوم اعصو صب الشر بينه وبين أخيه المأمون .
وكان الفضل وزير المأمون في خراسان يخطب بمساويء الأمين ، وقد أعد
رجلا يحفظ شعر أبي نواس فإذا انعقد المجلس قام فذكر الأمين وقال :
« ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزئ متهمك يقول كذا وكذا » .

وينشده من قبائح شعره . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق
وفجور وخمور وماخور » ويلعنهم من يحضر من أهل خراسان .

كان للأمين عيون في خراسان فكتبوا اليه يخبرونه بالأمر . فجزع
له وتوعد أبا نواس وحرم عليه شرب الخمر وذكرها في شعره . فكان
صاحبنا يتألم لهذا المنع فيطبع مكرها لا خوفا من غضب الأمين وبطشه ،
وانما حبا له وحفاظا على سمعته . وربما مرت به ساعات فما يستطيع عن
الخمر صبورا فيشربها غير مبال ويسب الأمين ويهزا به ، والأمين يتغاضى
عنه ولا يطيق أن يؤذيه ، ورمى مرة بالثنوية وشهد عليه غدة نفر فأمر به
الأمين الى السجن فتذمر أبو نواس وشكا واستنجد بالمأمون اذ يقول :

أما الأمين فلست أرجو دفعه عني فمن لي اليوم بالمأمون

وكان المأمون يود أن يرى عنده شاعرا كأبي نواس فلما بلغه
استنجاهه به قال : « والله لئن لحقته لأغنيه غنى لا يؤمله » . على أن
الشاعر لم يشأ أن يترك الأمين مع ما لقي منه في آخر عهده ، وكان من
حقه أن يناصر المأمون لو جرى نزعته الشعوبية ، وميله الى الفرس
والشعوبية ، والفرس منهم يظاهرون المأمون . ولكنه أثر البقاء مع الأمين
لأسباب منها أنه كان يحبه وتلد له معاشرته ومناذمته فلا طاقة له بالابتعاد
عنه ، ومنها أن له من الدالة عليه ما لا يأمل أن ينال مثله عند المأمون .
ومنها أن أهل خراسان شيعيون يشددون في أمر الغفران كأصحاب
الاعتزال ، وكان أبو نواس عظيم الاتكال على عفو الله ، ففضل عليهم أهل
السنة لأنهم لا يحظرون العفو على مسلم ارتكب الكبيرة اذا خرج من الدنيا
على غير توبة ، بل يجعلون حكمه عند الله ، فاما أن يغفر له برحمته واما أن
يشفع به النبي اذ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » واما أن يعذبه
بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ولا يجوز أن يخلد في النار مع
الكفار .

فهذه الأسباب كانت تدفع الشاعر الى ايثار الأمين على أخيه ، مع
ما رأى فيه من ضعف وخمول وتقلب آراء .

توبته وزهده وموته :

ولما قتل الامين وظفر المأمون بالخلافة ، أصاب أبا نواس شيء من الجزع والقنوط وتنكر له الدهر فتبرم بالحياة وسئم ملاذها وغرورها ، وأبى أن يتقرب من المأمون أو يمدحه ، وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة في خراسان ، ولبت هناك نحو من ست سنوات حتى استتب له الأمر في بغداد فانتقل إليها .

وكان بوسع الشاعر أن يتصل به ويستميله بالمديح ، ولكن اليأس الذي ساوره بعد مقتل الامين جعله يزهد في الحياة الدنيا ، وتراءى له شبح الموت فراعه وأحس أن قواه تعطلت من كثرة فسوقه واستهتاره ففرغ الى ربه يستغفره ، وأقلع عن المجون وشرب الخمر ، وتنسك حتى هلك وهو على أشد ما يكون من الندم . وكانت وفاته في بغداد وله من العمر نحو من أربع وخمسين سنة .

آثار أبي نواس :

لأبي نواس ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه ، فانه عني بجمعه رطل من الأدباء ، منهم أبو بكر الصولي ، وعلى بن حمزة الأصبهاني ، وطبع غير مرة في فينا ومصر وبيروت وفي صدر الطبعة المصرية فصل لجامعه الأصبهاني في منزلة شعر أبي نواس ونقده . وهذه المجموعة تتضمن أكثر من ثلاثة عشر ألف بيت رتبت على اثني عشر بابا : فالأول في نقائضه مع الشعراء وأخباره معهم ومع القيان ، والثاني في المديح . والثالث في المراثي ، والرابع في العتاب ، والخامس في الهجاء ، والسادس في الزهد ، والسابع في الطرد ، والثامن في الحمر ، والتاسع في ما جاء بين الحمر والمجون . والعاشر في غزل المؤنث ، والحادي عشر في غزل الذكر ، والثاني عشر في المجون . وقد أهمل الناشر الباب الأخير فلم يثبت في الطبعة ، لأنه رأى فيه ما يصم الآداب وحسنا فعل ، ولكننا لا ندرى بأي عين نظر الى الباب التاسع ، فان فيه من التعهر ما لا يقل عما ورد في الباب الثاني عشر .

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ أبي نواس وبنوادره وشعره ومجونه في كتاب سماه أخبار أبي نواس . وقد طبع الجزء الأول منه في مصر سنة ١٩٢٤ مضبوطا بالشكل مشروحا بعض الشرح ، ولكن الحكومة المصرية منعت متابعة نشره لما فيه من فحش مضر بالأخلاق .

وكتب ادب حافلة بأخبار أبي نواس وأشعاره لشدة اهتمام الناس برواية شعره ، فانهم كانوا يتفكرون به ويؤثرونه على أشعار القدماء ، فسار على الأقواء كل مسير ، فرويت له في مصر أشعار لم يعرفها أهل العراق ، وضاعت له قصائده لم يبق منها شيء أو بقي بيت أو بيتان . ونحل شعرا كثيرا لم ينحل مثله أحد ، ذلك أنه سلك طريقا جديدا في الشعر : فان أكثر أشعاره في اللهو والتشبيب والمجون . وكان في عصره طائفة من المجان يذهبون مذهبه وليس لهم من الشعاعية والشهرة مثله ، فأصبح الناس يلحقون به كل شعر في الحمر والمجون لم يعرف صاحبه ولم يعن الرواة بشعره .

وأضيف إليه من النوادر والأخبار كما أضيف إليه من الأشعار ، فقد وضع عليه ابن الداية ، وكان مشهورا بصحبته ، روايات لا صحة لها . وفي أخبار أبي نواس لابن منظور المصري نوادر أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، مما يدل على أن أهل مصر شغفوا بالشاعر كأهل العراق ، فراحوا يتفننون في اصطناع الأخبار الغريبة عنه فحملوه أحمالا ثقيلة زادت سمعته تشويها . ونحن وإن كنا لا نخامرنا ريب في خلاعته وحوادثه المجونية ، لا يسعنا إلا أن نشك في بعض نوادره التي يظهر عليها التفتن وحب التفكهة والاغراب . ومنعتمد في درس شعره على المشهور منه الذي لا يشك في نسبته إليه .



مختارات من ديوان أبي نواس

لآل في عزة النفس :

ومستعبد أخوانه بشرائه

لبست له كبرا أبراً على الكبر

إذا ضمني يوما وإياه محفل

يرى جانبي وعرا يزيد على الوعر

أخالفه في شككه وأجره

على المنطق المبرور والنظر الشور

وقد زادني تيبها على الناس أنسى
 أراني أغناهم وان كنت ذا فقر
 فوالله لا يبدى لساني حاجة
 الى أحد حتى أغيب في قبري
 فلا يطمعن في ذاك مني طامع
 ولا صاحب التاج المحجب في القصر

الخمير

شهر في خمارة !

وفتيان صديق ، قد صرفت مطيهم
 فلما حكى الزنار أن ليس مسلما ،
 فقلنا : على دين المسيح بن مريم ،
 ولكن يهودى يحبك ظاهرا ،
 فقلت له : ما أسم؟ قال : سمول ،
 وما شرفتنى كنية عربية ،
 ولكنها خفت وقلت حروفها ،
 فقلت له عجباً بطرف لسانه :
 فادبر كالمزور ، يقسم طرفه
 وقال : لعمرى ، لو أحطتم بوصفها ،
 فجاء بها زيتية ذهبية ،
 خرجنا على أن المقام ثلاثة ،
 عصابة سوء ، لا ترى الدهر مثلهم
 إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم
 الى بيت خمار ، نزلنا به ظهرا
 ظننا به خيرا ، فظن بنا شرا
 فأعرض مزورا ، وقال لنا هجرا
 ويضمرو في المكنون منه لك الغدرا
 ولكننى أكنى بعمرى ولا عمرا
 ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخرا
 وليست كأخرى ، انما جعلت وقرا
 أجدت أبا عمرو ، فجود لنا الخمر
 لأرجلنا شطرا ، وأوجهنا شطرا
 للمناكم ، لكن سنوسعكم عذرا
 فلم نستطع دون السجود لها صبورا
 فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا
 وان كنت منهم لا بريثا ولا صفرا
 يحثونها ، حتى تفوتهم سسكرا

الخمير والغفران :

دع عنك لومى ، فان اللوم اغراء ،
 صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ،
 وداونى بالتى كانت هى الداء
 لو مسها حجر ، سمته سراء

قامت بابر يقها ، والليل معتكر ،
 فأرسلت من قم الابريق صافية ،
 رقيبت عن الماء ، حتى يلائمها ،
 فلو مزجت بها نورا ، لمازجها ،
 دارت على فتية دان الزمان لهم ،
 لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ،
 حاشا لبرة أن تبني الحيام لها ،
 فقل لمن يدعى في العلم فلسفة :
 لا تحظر العفو ، ان كنت امرأ حرجا ،
 فلاح من وجهها ، في البيت لالأه
 كأنها أخذها بالعين اغفيا
 لطافة ، وجفا عن شكلها الماء
 حتى تولد أنوار وأضيواء
 فما يصيبهم الا بما شاؤوا
 كانت تحل بها هند وأسبياء
 وأن تروح عليها الابل والشاء
 حفظت شيئا ، وغابت عنك أشياء
 فان حظرك بالدين ازراء

العيش سكرة بعد سكرة

الا فاسقني خمرا ، وقل لي : هي الخمر !
 فميش الفتى في سكرة بعد سكرة ،
 وما الغبن الا أن تراني صاحبا ،
 فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى :
 ولا خير في فتك بغير مجانة
 بكل أخى قصف كأنه جبينه

نشوتان

لا تبك ليلى ، ولا تطرب الى هند ،
 كأنما اذا انحدرت في حلق شاربيها ،
 فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة ،
 تسقيك من طرفك خمرا ، وبين يديها
 لي نشوتان ، وللندمان واحدة ،
 واشرب على الورد من حمراء كالورد
 أجدته حمرتها في العين والبخد
 في كف جارية مشوقة القصد
 خمرا ، فما لك من سكرين من يد
 شيء خصصت به ، من دونهم وحدي

قصص الأسم

يا شقيق النفس من حكم ،
 فاسقني ، البكر ، التي اختيرت :
 نمت انصات الشبابة لها ،
 نمت عن ليلى ، ولم أفسم
 بخمار ، الشيبنة في الرخم
 بعد ما جازت رمدي الهرم

فهي لليوم الذي بزلست
عتقت حتى لو اتصلت
لاحتبت في القوم مائلة ،
فرعتها بالمزاج يد ،
في ندامي ، سادة زهر ،
فتمشت في مفاصلهم ،
فعلت في البيت اذ مزجت ،
واهدى ساري الظلام بها ،
وهي ترب الدهر في القدم
بلسان ناطق وفم
ثم قصت قصة الامم
خلقت للسيف والقلم
أخذوا اللذات من أمم
كتمشى البرء في السقم
مثل فعل الصبح في الظلم
كاخذ السفر بالعلم

ثورة على القديم

عاج الشقى على سرم يسائله ،
يبكي على طلل الماضين من أسد ،
ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ،
كم بين ناعت خير في دساكرها ،
دع ذا ، علمتك ، واشربها معتقة ،
وعجبت أسأل عن خماره البلد
لادر درك ، قل لي : من بنو أسد ؟
ليس الأعراب عند الله من أحد
ولا صفا قلب من يصبر الى وقد
وبين باك على نوى ومنتضد
صفراء ، تفرق بين الروح والجسد

ادب المتأدبة

ولست بقائل لنديم صدق ،
تنساؤها ، والا لم أذقها ،
ولكني أدير الكأس عنه ،
وأحبسها الى أن يشتهيها ،
وان هد الوساد لنوم سكر ،
فذلك ما حينت له ، وأنى
وقد أخذ الشراب بتقليبه
فأخذها ، وقد ثقلت عليه
وأصرفها بغمزة حاجبيه
وأخذها برفق من يديته
دفعت وسادتي أيضا اليه
أبر بشيله من والديه

الفسزل

حامل الهوى

حامل الهوى تعذب
ان ينكى يحق له
يستغفه الطرب
ليس ما به لعب

تضحكين لاهيية والمحسب ينتحسب
تعجبين من سقوى صحتى هي العجب
كلما انتفى سبب منك ، جئاني سبب

★★★

المسح

مدح الرشيد

حي الديار اذ الزمان زمان ،
يا حبذا سفوان من مترسح ،
واذا مررت على الديار مسلما ،
انا نسبنا والمناسب طنه ،
لما نزعنا عن الغواية والصبا ،
سبط مشاقرها ، دقب خطمها ،
واحتازها لون جرى في جلبها ،
والى ابي الامناء هارون النبي
ملك تصور في القلوب مثاله ،
ما تنطوى عنه القلوب بفجرة ،
فيظل لاستنبائه ، وكأنه
هارون الفنا ائتلاف مودة ،
في كل عام غزوة ، ووفادة ،
حج وغزومات بينهما الكرى ،
يرمى بهن نياط كل تشوفة ،
حتى اذا واجهن اقبال الصفا
لاغر ، ينفرج الدجى عن وجهه ،
يصل الهجير بفرة مهدية ،
لكفه في الله مبتذل لها ،

واذ الشباك لنا خوى ومعان
ولربما جمع الهوى سفوان
فلغير دار أمية الهجران
جنى رميت بنا ، وانت حصان
وختت بي الشدنية المذعان
وكان سائر خلقها بنيان
يقق ، كقرطاس الوليد ، هجان
يحيا ، بصوب سمائه ، الحيوان
فكأنما لم يخل منه مكان
الا يكلبه بها اللحظان
عين على ما غيب الكتان
ماتت لها الاحقاد والاضغان
تنبت ، بين نواحي الأقران
باليعلان شعارها الوخدان
في الله ، رجال بها ، طعان
حن الحطيم ، واطت الأركان
عدل السياسة ، حبه ايمان
لو شاء صان أديمها الاكنان
ان تبقى مسدد ، ومعان

ألفت مناديه السماء سيوفه ، فلقبها تحتازها الأجفان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة ، لفؤاده ، من خوفه ، خفقان
حذر امرى نصرت يدها على العدى كالدهر ، فيه شراسة وليان
متبرج المعروف عريض الندى ، حصر ، بلا ، منه فم ولسان
للجود من كلتا يديه محرك ، لا يستطيع بلوغه الاسكان

مدح الخليفة محمد الأمين

كان للأمين خمس من السفن المعروفة بالحراقات : احداها على مثال
الأسد ، والثانية على مثال العقارب ، والثالثة على مثال الدلفين ، والرابعة
على مثال الفيل ، والخامسة على مثال الحية . فركب ذات يوم فى سفينة
الأسد متنزها ، وركب أبو نواس معه يناديه ، فقال فى ذلك :

مسخر الله للأمين مطايا ، لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركبته سرن برى ، سار فى الماء ركبا ليث غاب
أسداً بانبطا ذراعينه يعلو ، أهرت الشدق ، كالحـ الانياب
لا يعانیه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس ، اذ راوه ، على صو رة اليث ، يمز مر السحاب
سبحوا ، اذا رأوك سرت عليه ، كيف لو ابصروك فنوق العقاب
ذاك زور ومنسر ، وجناحيه ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما اس تعجلوها بجيئة وذهب
بارك الله للأمين ، وأبقا ه وابقى له رداء الشباب
ملك تقصير المسدائح عنه هاشمى موفق للصواب

الهجاء

هجة اليمانية

كان أبو نواس قد ادعى أنه من العدنانية ، فأخذ يتعصب لها وهجا
هاشيم بن حديج الكندي :

يا هاشم بن حديج ، ليس فخركم بقتل صهر رسول الله بالسدد
أندجتم فى أهباب العين جتته فبئس ما قيمت أيديكم لغيد

ان تقتلوا ابن أبى بكر فقد قتلت
وطردوكم الى الأجبال من أجا
وقد أصاب شراحيلأ أبو حنش ،
ويوم قلت لزيد ، وهو يقتلكم
وكل كندية قالت لجارتها ،
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية ،
حجرا ، بدارة ملحوب بنو أسد
طرد النعام اذا ما تاه فى البلد
يوم الكلاب ، فما دافعتم بيد
قتل الكلاب : لقد أبرحت من ولد
والدمع ينهل ، من مثنى ومن وحد :
عن ثأره ، وصفات النوى والوتد

هجاء الخصيب

خبز الخصيب معلق بالكوكب ،
جعل الطعام على بينه محرما
فاذا هم راؤوا الرغيف ، تطربوا
يحمى بكل مشقف ، ومشطب
قوتا ، وحلله لمن لم يسغب
طرب الصيام الى أذان المغرب

هجو الرقاشى

قل للرقاشى اذا جثته :
لأننى أكرم عرضى ، ولا
ان تهجنى ، تهج فتى ماجدا ،
والله لو كنت جريرا ، لما
لو مت ، يا أحمق لم أهجكا
أقرنه يوما الى عرضكا
لا يرفع الطرف الى مثلكا
كنت بأهجى لك من أصلكا



انزهديات

خداع الدنيا

ألا رب وجه ، فى التراب عتيق ،
ويارب حزم فى التراب ، ونجدة ،
فقل لقريب الدار : انك راحل
وما الناس الا هالك وابن هالك ،
اذا امتحن الدنيا ، لبىب تكشففت
ويارب حسن ، فى التراب ، رقيق
ويارب رأى ، فى التراب ، وثيق
الى منزل نائى المحل سحيق
وذو نسب ، فى الهالكين ، عريق
له عن عدو فى ثياب صديق

العمل الصالح

أية نار قدح القادح ،
 لله در الشيب من واعظ ،
 يأبى الفتى الا اتباع الهوى ،
 فاسم بعينيك الى نسوة ،
 لا يجتلى العذراء من خدرها ،
 من اتقى الله ، فذاك الذى ،
 شمر ، فما فى الدين أغلوطه ،
 وأى جند بلغ المازح ؟
 وناصح ، لو خطىء الناصح
 ومنهج الحق له واضح
 مهورهن العمل الصالح
 الا امرؤ ميزانه راجح
 سيق اليه المتجر الرابع
 ورح بما أنت له رائح

صلاة خاطىء

يارب ، ان عظمت ذنوبى كثرة ،
 ان كان لا يرجوك الا محسن ،
 أدعوك ، رب ، كما أمرت تضرعا ،
 ما لى اليك وسيلة الا الرجاء ،
 فلقد علمت بأن عفوك أعظم
 فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
 فاذا رددت يدى ، فمن ذا يرحم
 وجميل عفوك ، ثم انى مسلم

على سرير الموت

دب فى السقام سفلا وعلوا ،
 ليس تمضى من لحظة بى ، الا
 ذهبت جدتى بحاجة نفسى ،
 لهف نفسى على ليال وأيام
 قد أسأنا كل الاساءة ، قالـ
 وأرانى أموت عضوا فعضوا
 نقصنى ، بمرها فى جزوا
 وتطلبت طاعة الله نضوا
 م تجاوزتهن لعبا ولهوا
 هم صفحا عنا ! وغفرا ! وعفوا !



کتاب الزهرة

ابن داود الظاهري

۸۹۵ م

طلائع الدراسات العربية

لموضوع الحب والعشق

لم ينل الحب الانساني ما يستحق من اهتمام الباحثين اذا ما قيس الى الحب الالهى ، فاننا نجد سيلا دافقا من المؤلفات أحصى منه ريتز ثلاثة عشر مؤلفا ، تمتد ما بين القرن الثالث الهجرى والقرن الحادى عشر ، وأحصت لويزانيتا جيفن تسعة عشر مؤلفا عن المدة نفسها تقريبا وسنضيف بدورنا عددا آخر ؛ ليتأكد فى النهاية أن التأليف عن الحب كالحديث عن الحب كالحب نفسه لا يتوقف الا ليبدأ من جديد وأنه كظاهرة امتدت بطول العصور ، على أن البداية ستبقى غامضة بعض الشيء شأن البدايات فى أى شيء ، الا أن هناك شبه اتفاق على أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) قد فتح باب الحديث فى الحب بمقالتيه عن النساء وعن القيان ، والمقالة الثالثة : مفاخرة الجوارى والغلمان ، ثم ما كتبه أحمد بن الطيب السرخسى (٢٨٦ هـ) . وينقل الزركلى عن القمطى وغيره أنه قرأ على المكندى الفيلسوف وأن من مؤلفاته المدخل الى صناعة النجوم - والجلساء والمجالسة - واللهو والملاهى ، وهذا الأخير - كما يصفه - فى الغناء والمغنين والمنادمة والملح ، وكتاب القيان . ثم يأتى ابن داود صاحب الزهرة (٢٩٦ هـ) الذى نعتبره مؤسس اتجاه جديد فى دراسة الحب ، ثم محمد بن أحمد ابن اسحاق الوشاء صاحب « الموشى » - أو الظرف والظرفاء . ثم محمد ابن جعفر الخرائطى (٣٢٧ هـ) ، صاحب كتاب « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق وهو مخطوط ، ثم محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) ، مؤلف كتاب « الرياض » فى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين المحدثين وكتاب (أشعار النساء) ثم الحصرى القيروانى (٤٥٣ هـ) صاحب « المصون فى سر الهوى المكنون » وهو مخطوط ، ومؤلف « زهر الآداب وثمر الألباب » ، ثم ابن حزم (٤٥٦ هـ) صاحب « طوق الحمامة » وهو أشهر ما كتب فى هذا الباب ثم جعفر السراج (٥٠٠ هـ) مؤلف « مصارع العشاق » ، ثم ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) صاحب « ذم الهوى » ، ثم أحمد بن سليمان الكسائى (٦٣٥ هـ) . مؤلف : « روضة العاشق ونزهة الواثق » وهو مخطوط ، ثم شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد (٧٢٥ هـ) مؤلف « منازل الاحباب ومنارة الألباب » وهو مخطوط أيضا ويضيف اليه الزركلى « مقامة العشاق » ، ثم

ابن قيم الجوزية « ٧٥١ هـ » صاحب : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين »
ثم مغلطاي بن قليج (٧٦٢ هـ) مؤلف : « الواضح المبين في ذكر من
استشهد من المحبين » وهو مخطوط ، ثم ابن أبي حجلة (٧٧٦ هـ)
مؤلف ديوان الصبابة ، ثم ابراهيم بن عمر الرباط البقاعي (٨٨٥ هـ) ،
وقد اختصر مصارع العشاق في كتاب مخطوط سماه « أسواق الأشواق »
ثم داود الأنطاكي الطبيب الضير (١٠٠٨ هـ) صاحب « تزيين
الأسواق في أخبار العشاق » ، ثم مرعي بن يوسف (١٠٣٣ هـ) مؤلف :
« منية المحبين وبغية العاشقين » ، وأخيرا : السلاطي - وقد ألف « صبايات
المعاني وصبايات المعاني » .

هذه المصادر الأساسية لمادة الدراسة في موضوع الحب نراها
منتشرة على مساحة زمنية تبلغ ثمانية قرون دون توقف ، على أن هناك
كتباً أخرى قد تكون أقل أهمية ولكنها تعطي ملامح اضافية لا بد من
الوعي بها ، ليكتمل تصور الظاهرة في كافة أبعادها فكتاب « المحاسن
والأضداد » المنسوب للجاحظ ، يكتسب أهمية لا تقل عن أهمية رسائله
المشار إليها ، وكذلك بعض آرائه في كتابه الضخم « الحيوان » ، مع افتراض
تأثره بكتاب « طباع الحيوان » لأرسطو وهناك كتاب آخر للمرزباني
بالإضافة إلى « أخبار النساء » المنسوب إلى ابن القيم ، وتضيف إلى هذه
الكتب الاخبارية نوعين آخرين من الكتب التي اهتمت بالحب الاول :
كتب القصص والنوادر التي تقترب في مادتها من « مصارع العشاق »
وان ظهر طابع الصناعة أكثر وضوحاً ، مثل كتاب « الفرج بعد الشدة »
للقاضي التنوخي (٣٨٤ هـ) ، ففي الجزء الرابع من هذا الكتاب عدد
وافر من قصص العشاق لا نجازف اد نقول انه يخضع لمجموعة من القيم
الفنية والأخلاقية تؤكد معنى مهما وهو أن مؤلفي هذا النوع من الكتب
كانوا يختارون ما يتجاوب ورؤيتهم الخاصة للحب وأنهم - على الأرجح -
كانوا يندخلون في الصياغة وفي تطوير الأحداث ، وتستجد مصداق ذلك
في هذه الطائفة من القصص التي سبق بها الجاحظ وتردد صداها عند
جعفر السراج ومن جاءوا بعده .

أما النوع الثاني فهو تلك الفصول التي جاءت في سياق الكتب
الموسوعية العربية وصحيح ان بعض ما فيها من مادة يعتبر ترديداً
لما جاء في كتب سابقة ، ولكن الاهتمام برصدها وتحديد اتجاهاتها سيعني
الكثير في التعرف على فترات الازدهار في التأليف عن الحب ووجهة
الكتاب في طرح الظاهرة ومعالجتها ، فضلاً عن أن بعض هذه الفصول كتب
في فترة مبكرة ، وهذا يعني أنه كان مصدراً أصيلاً بعد ذلك ، ففي

« عيون الأخبار » لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) نجد المجلد الرابع كله قد تصدره عنوان واضح الملامح وهو : « كتاب النساء في أخلاقهن وما يختار منهن وما يكره » وفي « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) نجد : « كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن » ، وقد عقد الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) فصلا في كتابه : « محاضرات الأدباء » - وهو الحد الثالث عشر - تحت عنوان : « في الغزل وما يتعاق به » ومادة هذا الفصل ذات تقسيم طريف وان يكن المحتوى تقليديا مكررا .



من هو ابن أبي داود المشهور بأبي بكر الأصفهاني

(٢٥٥ هـ) - (٢٩٧ هـ)

هو محمد بن داود بن علي بن خلف الأصفهاني ، المشهور بأبي بكر الأصفهاني (٢٥٥ هـ - ٢٩٧ هـ) فقيه وعالم وشاعر . . ثم نستطيع أن نعهده من عشاق العرب ، مع أن عهد العشاق العرب أموي ومكانهم البوادي - وأبو بكر هذا عباسي وعاش ومات في القرن الثالث الهجري ؛ ولكنه عشق فعف وعانى ما كان يعانيه أولئك العشاق ، وكان من حصيلة عشقه أن ألف كتابا لا نظير له في الكتب وهو كتاب « الزهرة » في الحب ومعاني الغزل التي حومت عليها قوافي الشعراء في الأدب العربي منذ الجاهلية حتى عصره .

وأبو بكر الأصفهاني هو ابن داود الظاهري الفقيه المجتهد ، الذي ينسب إليه مذهب أهل الظاهر وهم الذين يأخذون بظاهر الكتاب والسنة ويعرضون عن تأويل ورأي وقياس ، وكان داود أول من جهر بهذا الرأي وكان على علم ، زاهدا متقللا كثير الورع وانتهت إليه رئاسة العلم ببغداد وكان من عقلاء الناس ، حتى قيل فيه : « كان عقل داود أكبر من علمه » وله تصانيف كثيرة عددها صاحب الفهرست في زهاء صحتين . ومن أقواله : « خير الكلام ما دخل الأذن بغير اذن » فهو أول من جانس هذا الجنس اللطيف ويشتم من كلامه الأدب محضا ، ونسق في التعبير لعله البشري بآبن له أديب شاعر طريف مبين .

وقيل في داود الظاهري انه أصفهاني الأصل ، من بلدة قرب أصفهان (قاشسان) وقيل بل هو عراقي وأمه الأصفهانية ، وأيا كان

فمولده في الكوفة ومنشؤه وشهرته ببغداد وفيها توفي سنة سبعين ومائتين للهجرة .

ولد أبو بكر سنة خمس وخمسين ومائتين (أى في السنة التي توفي فيها الجاحظ) ونشأ في كنف أبيه محببا اليه ، أثرا جدا لديه ، وكان أبو بكر نحيفا وفي لونه صفرة .

نشأته العلمية ومجالسه العلمية

وقد نشأه أبوه على مذهبه وخرجه في مدرسته فلما أነع ، فشت له في بغداد شهرة علم وأدب ونبغ ووقع منه الناس على عقل راجح وأدب جم . يقول المسعودي في عقه : « وكان ممن علا في رتبة الأدب وتصرف في بحار اللغة وتفنن في موارد المذاهب وأشفى على أغراض المطالب وكان علما في الفقه منفردا وواحدا فيه فريدا » .

وبعد أن توفي أبوه ، تصدر للاشتغال والفتوى وجلس مكان أبيه في حلقاته ، وعمره اذ ذاك خمس عشرة سنة فتعجب الناس واستصغروه أكثرهم وأرادوا اختباره فدرسوا له رجلا فقالوا : « اذا جنس فاته واسأله عن حد السكر ومتى يكون الانسان سكران ؟ » فلما أتاه الرجل - والمجلس حاشد - فقال : يا أبا بكر أخبرني متى يكون الانسان سكران ؟ أجابه أبو بكر من فوره فقال : « اذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم » فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم وشرح جوابه من عقله وتمكنه وأدبه ما أراد مختبروه . . ان ما قاله لحد دقيق وفصل لطيف بين الصاحي وبين السكران في بيان موجز وسجع مرسل فكلامه كما قال أبوه قبلا : يدخل الأذن بغير اذن .

ولم يكن أبو بكر أول من استصغر للعلم ثم كبر عند مستصغريه ، ولكن أخبار الأدب والعلم وافرة في اناس أذكىاء نجموا كواكب في مجتمعاتهم وأقوامهم وهم صغار ، نذكر منهم اياس بن معاوية ويحيى بن أكرم قاضي المأمون الذي لما ولي قضاء البصرة وهو ابن ثمانى عشرة سنة قال المأمون : كم « سنك ؟؟ » فقال يحيى دون تلكؤ : « كعتاب بن أسيد حين أقره النبي ﷺ على مكة » فأعجب به وبجوابه المأمون ، ثم علا عنده علوا . وعتاب بن أسيد من مسلمى الفتح ، أمره النبي (ﷺ) على مكة حين خرج الى حنين والطائف وله يومئذ عشرون سنة .

وكان أبو بكر ممن تنبه الى ما يقوله الحسين بن منصور الحلاج في ذلك الوقت وأفتى بكفره وندد به ولكنه توفي قبله فلم يعيش الى سنة تسع وثلاثمئة ليراه مقتولا مصلوبا .

ذكر الفقيه الشافعي أبو العباس الحضري قال : كنت عند أبي بكر محمد بن داود فجاءته امرأة فقالت له : « ما تقول في رجل له زوجة لا هو ممسكها (أى لا يقدر على نفقتها) ولا هو مطلقها » فقال : « اختلف في ذلك أهل العلم فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب ، ويبعث على التطلب والاكتساب وقال قائلون : يؤمر بالانفاق والا يحمل على الطلاق » . قال أبو العباس فلم تفهم قوله وأعادت فسألته فقال : « يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك الى طلبتك ولست بسلطان فأمضى ولا قاض فأقضى ولا زوج فأرضى انصرفى رحمك الله .. » .

وقال عبد الله بن أبي الدنيا : حضرت مجلس أبي بكر محمد بن داود ، فجاء رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلا وظن تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها الى صاحبها فنظرنا فاذا الرجل هو الشاعر المشهور ابن الرومي واذا في الرقعة :

يا بن داود يا فقيه العراق
أفتنا في قوائل الأحداق
هل عليها في ذى الجروح قصاص
أم مباح لها دم العشاق ؟

واذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيل صريع
بسهم الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا
عند داود من قتيل الفراق

هذا ما رواه ابن خلكان وهو يدل على توفر أدب أبي بكر ورقة طبعه وبروز ظرفه من فقهه وحرارة حب يتلمسها القارىء في أبياته ، مع قدرة على الشعر في غير مناسبتة وجوه وخلواته فما كان أظرفه فقيها مفتيا وأحلمه مستولا وأبلغه وأرقه مجيبا !!

مؤلفاته

قال المسعودي : ألف أبو بكر محمد بن داود في عنفوان شبابه وقبل كماله وانتهائه الكتاب المعروف « بالزهرة » ، ثم تناعت فكرته وبسقت قوته فصنف الفقهيات ككتابه في « الوصول الى معرفة الأصول » ، وكتاب « الانذار » ، وكتاب « الاعذار والابحار » وكتابه المعروف بـ « الانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشير ، وعيسى بن ابراهيم الضرير » . قال ابن خنكان : وله غير ذلك فمن كتبه ما ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات) وهي : مختار الأشعار والايجاز في الفقه والبراعة والتقصى في الفقه واختلاف مسائل الصحابة والفرائض والمناسك والانتصار لأبيه من الناشئ المتكلم .

فأغلب كتبه فقهى علمى والأدبى منها قليل ولكن كتاب الزهرة يعدل كتباً كثيرة ، فأسلوبه عجيب وتبويبه فريد وما فيه من شعر وخبر بليغ كريم وطريف .

شعره

ولأبى بكر شعر كثير معظمه في الغزل العفيف ؛ ولكنه لم يجمعه في ديوان فمنه ما رويناه آنفاً في جواب ابن الرومي وأكثر شعره مقطعات ومنه هذه الأبيات :

يا يوسف الحسن تمثيلاً وتشبيهاً
يا طلعة ليس إلا البدر يحكيها
من شك في الحور فلينظر اليك فما
صيغت معانيك إلا من معانيها
ان الدنانير لا تجلي وان عتقت
لا يزداد على النقش الذي فيها

واذا روى أبو بكر في كتابه (الزهرة) شعراً يستحق من نسبته الى نفسه وهو مؤلف الكتاب غزلياً وعزاه الى « بعض أهل العصر » فهو له ، وهو شيء هناك ليس بقليل . فمن ذلك قوله :

تمتع من حبيبك بالسوداع
 فما بعد الفراق من اجتماع
 فكهم جرعت من هجر وغدر
 ومن حال ارتفاع وانضاع
 وكم كأس أمر من المنايا
 شربت فلم يضق عنها ذراعى
 فلم أر فى الذى قاسيت شيئاً
 أشد من الفراق بلا وداع
 تعالى الله كل مواصلات
 وان طالت - تؤول الى انقطاع



شخصية ابن داود :

ونستطيع من تأمل هذه اللوحات من أخبار ابن داود أن نتصور صورة متكاملة لشخصيته الفذة ، فهو فقيه ولكن فقهه لم يحل بينه وبين المشاركة فى الأدب واللغة والتبريز فيهما ، وبين معرفة الفلسفة اليونانية وعلوم الحكمة . وبرغم تدينه وخلقه فان العاطفة كانت تملأ قلبه وتستولى على فؤاده ، فهو بذلك نمط فريد بين أبناء عصره خالف نمط الفقهاء المحافظين والأدباء المستهترين وجمع بين فضائل الدين والخلق وبين وحدة الثقافة ولطف الذوق فهو مثال للعالم المسلم فى ثقافات عصره البعيد عن الرياء وهو صورة للذكاء المتقن والعاطفة الدافقة .

وفاته :

لم تطل بابن داود الحياة فتوفى فى سن الثانية والأربعين على ما يذكر الخصيب البغدادي : فقد ذكر أنه توفى سنة ٢٩٧ هـ بعد وفاة أبى يوسف القاضي ، أما المسعودي فقد ذكر وفاة ابن داود فى سنة ٢٩٦ هـ .

وبذلك طويت حياة حافلة بالبحث والدرس متقدمة بالمشاعر والأحاسيس ويكفيها قول ابن سريج عنه : ما آسى الا على تراب أكل لسان محمد بن داود !

كتاب الزهرة

مر بنا منذ قليل أن أبا بكر الأصفهاني ألف كتاب « الزهرة » في بكور شبابه ، وقالوا ان السبب في تأليفه أن أبا بكر وقع في الحب حتى برح به ولكنه عف وكرم ، وعانى من برحاء الهوى مثل ما كان يعاني عشاق العرب الأوائل ، فكان كتاب (الزهرة) حصيلة تلك البرحاء وفيضا تدفق من ذلك الحب العنيف الذي استحوذ على نفسه وقلبه . وكان أبو بكر رقيق الفؤاد مرهف الحس ، سريعا اهتزازة لكل جمال وهو القائل : « ما انفكت من هوى منذ دخلت الكتاب » فهو من المدلهين الذين يجدون مرارة الهوى حلاوة والعذاب اغرامى راحة وريحانا ومن ينظر في كتاب الزهرة : فصوله وأبوابه وأشعاره ومقاماته - يحس بالفعل - أن المؤلف عاشق خبير بأحوال العاشقين عميق التغلغل الى خفايا النفس عالم طب بالداء والدواء . وهذا لا يكون الا لمعان لا معاين ولموله واقع في جحيم الهوى ليس منه بعيدا والا كان اذا وصفه ، وصفه خليا سليما . فخرج كتاب الزهرة بدعا في الكتب وكان أبو بكر مزهوا به عمره . حتى انه لما كانت تجرى بينه وبين (ابن سريج) مناظرات كان يتباهى بكتاب الزهرة واذا غض منه (ابن سريج) ، دافع أبو بكر عن كتابه دفاع معجب به واثق من ارتفاعه ، وابن سريج هذا هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج القاضى الشافعى المتوفى سنة ست وثلاثمئة ، وكان فاضلا وله أشعار حسان وكان معاصرا لأبى بكر معارضا له أبدا ، وكانت خصومتها المستمرة مثلا فريدا حفظه لنا تراث أمتنا على ما يسمى بـ « الخصومة الفكرية الشريفة » . فكانت معارضة بعضهما لبعض كريمة لطيفة تحمى فيها القلوب ولكن لا الى درجة الجهل والحقد ، وتبرد ولكن لا الى درجة السكون والتفاهة ، وكانا كلاهما يحضران مجلس القاضى أبى عمر محمد ابن يوسف فاذا تناظرا فيه وتعارضا لم يجر بين اثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجرى بينهما ، وفي أحد تلك المجالس عير أبا سريج أبا بكر فقال له في معرض مناظرة فقهية : أنت يا أبا بكر بكتاب الزهرة أمهر منك في هذه الطريقة . فقال أبو بكر : وبكتاب الزهرة تعيرنى ؟ فوالله ما تحسن أن تستتم قراءته من يفهم ، وانه لاحدى المناقب اذ كنت أقول فيه :

أكرر في روض المحاسن مقلتي
وأمنع نفسي أن تنال محرما
وينطق سرى عن مترجم خاطري
فلولا اختلاسى رده لتكلمنا
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فما أن أرى حبا صحيحا مسلما
فقال ابن سريج أوعلى تفخر بهذا القول ؟ وأنا الذى أقول :
ومساهر بالغنج من لحظاته
قد بت أمنعه لذيد سباته
ظنا بحسن حديثه وعتابه
وأكرر اللحظات فى وجناته
حتى اذا ما الصبح لاح عموده
ولى بخاتم ربه وبرأيه

فقال أبو بكر لأبى عمر : أيد الله القاضى قد أقر هذا على نفسه
بالمبيت على الحال التى ذكرها ، وأدعى البراءة مما توجبه • فعليه اقامة
البينة ، فقال ابن سريج : من مذهبي أن المقر اذا أقر اقرارا وناطه بصفة
ما •• كان اقراره دوكولا الى صفته ، فقال أبو بكر للشافعى : فى هذه
المسألة قولان ، فقال ابن سريج : فهذا القول الذى قلته اختياري
الساعة •



منهج كتاب الزهرة

ابتدأ ابن داود كتابه بمقدمة مسهبة يرجع الخطاب فيها الى صاحب
له يقال انه محمد بن جامع الصيدلانى الذى اشتهر بصحبته ، يعاتبه على
جفائه ويمهد لغرضه من الكتاب فيقول :

« وقلت قدمنى الله قبلك - قد أعيا على وجود نديم آنس به فى
المخلوات وأجد عنده عزاء من النائبات يورد الى الأخبار ويكتم على الأسرار
فاني كان فى ناحيتك من يفى بهذا المقدار ويحفظ من أشعار المنفرلين

وأخبار المتيمين وكان عالما بطرق الهوى وأحكامه ، عارفا بالمصيب من الشعراء في كلامه ، حافظا من انواع الشعر في كل باب ما يدخل حافظه في جملة أهل الآداب ، تطولت بإيثار ضننت به على نفسك وأعفيتني من صرف حاجتي فيه الى غيرك » .

وفي هذا النص تتضح لنا الأهداف التي يرجوها ابن داود من كتابه وحدود المنهج الذي ارتضاه في تناول موضوع العشق واستعراض أشعاره وأخباره .

وهذا المنهج يجمع الى جانب الرواية والخبر جانب التحليل وجانب النقد المعتمد على التذوق والوجدان فهو يشير الى الشعر والخبر : يحفظ أشعار المتغزلين وأخبار المتيمين والى جانب التحليل واستنباط قوانين العشق : بالعلم بطرق الهوى وأحكامه والى جانب النقد بالقدرة على التمييز بين المصيب من الشعراء والمخطيء في وصفه لأحوال الحب وتحليله لخطرات القلوب ومشاعرها .

ثم يزيدنا ابن داود معرفة بمنهجه ويلقى عليه مزيدا من الضوء فيقول : « وقد عزمتم لما رأيت بك من غلبات الاشتياق ، ومن ميلك الى تعرف أحوال العشاق أن أوجه اليك نديما يشاهد بك أحوال المتقدمين ويحضرك أخبار الغائبين » .

ثم يفصح ابن داود عن اسم كتابه ويعرض نظامه وترتيبه فيقول : « وهو كتاب سميته كتاب « الزهرة » واستودعته مائة باب ضمننت كل باب مائة بيت ، أذكر في خمسين بابا منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وأذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية » .

وهذه الخمسون بابا التي بين فيها ابن داود جهات الهوى وأحكامه ، هي التي يشملها كتابه المطبوع الذي بين أيدينا .

أما الخمسون بابا الأخرى فليست لها صلة بموضوع العشق ويدلنا على ذلك قول ابن داود في آخر كتابه هذا بعد انتهاء الباب الخمسين : « ونحن الآن ان شاء الله - وقد أتينا على الخمسين الماضية من الأبواب - مبتدئون في الخمسين الباقية من الكتاب » . فاول ما نشرع فيه من ذلك ما قيل في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على قدرته والدلالة على آلائه والتحذير من سطوته ، ثم نعقب ذلك ما قيل في رسوله

(ﷺ) ، ثم نتبع ذلك ما قيل في المختارين من أهل بيته رحمة الله عليهم وصلواته ، ثم ننسق الى آخرها على أحق الترتيب بها حسب ما تبلغه أفهامنا ويومئ الى اختيارنا وانما قدمت أبواب الغزل منها ديننا ودنيا وأدعى الى مصالح النفس وأدخل في باب التقوى ؛ لأن مذهب الشعراء أن تجعل التشبيب في صدر كلامها مقدمة لما تحاوله في خطابها ، حتى أن الشعر الذي لا تشبيب له ليلقب بالحصا وتسمى القصيدة منه البتراء ، وإن قائلها ليخرج عند أهل العلم بالأشعار عن عمل يدخل فيه الموصوفون بالاقتدار والمنسوبون الى حسن الاختيار ، فأحببت ألا أخرج في تأليف الشعر عن مذهب الشعراء . . . ولم يصحح اذ انقضى ذكر التشبيب بالغزل أن أقدم على أمر الله عز وجل أمرا ، ولا أرسم بين يدي الأشعار الدالة على عظمته شعرا . .

فماذا أراد ابن داود من ذلك الترتيب الذي قسم فيه كتابه الزهرة الى قسمين : خمسون بابا في أمر الهوى وخمسون في تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ما قيل في رسوله صلوات الله عليه وآله بيته وصحابته وما الى ذلك من الحكمة والموعظة وكريم الأخلاق ؟

لقد أراد أن ينجو من مأخذ يوجه اليه من المحافظين والمتعصبين ، فقد كانت الكتابة في العشق وافراد الكتب لدراسته في ذلك الزمان ، عملا لا يليق بأولى الفضل والوقار من الفقهاء والمحدثين كابن داود ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الجوزي في ذم الهوى ، أن أبا العباس بن سريج الفقيه الشافعي كان اذا ناظر ابن داود قال له : « عليه يا ابن داود بكتاب الزهرة » .

فأراد ابن داود ألا يجعل الحديث عن الهوى مقصودا لذاته ولا غرضا في كتابه ، بل جعله كالتشبيب في القصيدة بين يدي المديح أو الوصف ، وجعل غرضه الأساسي في الكتاب هو الحديث عن تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ألوان الشعر الديني والخلقي من لدن أمية بن أبي الصلت حتى عصره ، لكي لا يوجه اليه نقد ولا يلحقه عار !!

والحق أن ابن داود كان مهتما بموضوع العشق مولعا برواية أشعاره والاستزادة من فنونه حتى استطاع أن يرسم له خمسين بابا ، وأن يورد في كل باب منها مائة بيت وما كان يتوقع لفقيه ومحدث مثله أن يصير له هذه القدرة الأدبية في ذلك المجال .

ومع هذا يؤكد لنا ابن داود أن ما رواه في هذا الكتاب ليس كل ذخيرته في هذا الموضوع ، بل لقد التزم الاختصار وأثر الاختصار فما ذكره في كتابه يسير الى جانب ما يحتفظ به :

« وأقتصر في ذلك على قليل من كثير ، وأقتنع من كل فن باليسير اذا كان ما نقصه أكثر من أن يتضمنه كتاب أو يعبر عن حقيقته خطاب ومثل هذا الكتاب انما يطلبه أهل الآداب ؛ ليخف على الألفاظ ويسهل للحفاظ فان بعد آخره نسي أوله ولسنا - وان اجتهدنا في اطالته - راجين التناهي في غايته ، ومن لم يرج الكمال في الاكثار كان حقيقا أن يقنع بالاختصار » .

وهذا القول يوحى لنا بقدرة ابن داود واحاطته بموضوع العشق وليس هذا القول منه اعتذارا عن الاختصار ، فان ما ذكره في هذا الكتاب في موضوع العشق كثير لا قليل وهو أوفى تناول محض لهذا الموضوع في التراث العربي .

ويعود ابن داود الى مقاييس الذوق والجمال ، حتى لا يفسح المجال لجدل يطول أو يقصر في مدح العشق أو ذمه ؛ فبين لنا أن العشق أمر يختص به أقوام يتصفون برقة طباعهم وتآلف أرواحهم فمن كان مثلهم فهو يعذرهم .

فابتعد بدراسة العشق عن المسائل العقلية والمنطقية التي تحتاج الى استدلال وتفتقر الى الاحتجاج والاقناع ، بل هو عاطفة رقيقة يبتلى بها ذوو الطبائع المتشاكاة والأرواح المتوافقة . فمن كان مثلهم في رقة الطبع وجوهريه الروح فهو يعذرهم ولا يعذلهم الا ذوو الطبائع الجامدة والقلوب الغليظة .

ومن هنا لا ننتظر في كتاب الزهرة حججا منطقية أو دلائل عقلية ، فهو كتاب أفسح صدره لأحاديث العواطف وأحاسيس القلوب .

وفي ضوء هذا الأساس الذي أقامه ابن داود يحدد لنا غرضه الأهم من كتابه ويصف لنا حقيقة عمله ، فهو لم يصنع أكثر من اثبات الحقائق التي تحدثها الموافقة فلا لوم عليه ولا عار يلحقه ، أما نقيض ذلك فهو الذي يورث اللوم والعار : « وأكثر غرضنا من هذا الكتاب أن نذكر ما توقعه المشاكلة وما توجبه الطبائع المتعادلة فاذا جمعنا بين المفترقات وألفنا بين الأشياء المتنافيات كان العار لاحقا لنا بقضائنا على أنفسنا » .

وأعجب ما في الكتاب وأحلاه عناوين الأبواب فهي شيء جميل وطريف ، وقد يتعجب القارئ حين نقول له ان تلك العناوين هي - وحدها - أدب وفن وبيان فقد جعل ابن داود كل عنوان باب في كتابه مصوغا بشكل مثل عال أو حكمة غرامية - ان صح التعبير - على نسق بيان حنو وسجع طريف ، كذلك فقد آثر ابن داود أن يضع لأبواب كتابه تراجم لا تدل على الموضوع فحسب ، بل اتجه فيها للإيحاء بآرائه والتعبير عن خواطره مما جاء بها أمثالا محكمة كما يقول : « وقد جعلت الأبواب المنسوبة الى الغزل من هذا الكتاب أمثالا » .

وهذه تراجم الأبواب الخمسين :

- ١ - من كثرت لحظاته دامت حسراته .
- ٢ - العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير .
- ٣ - من تداوى بدائه لم يصل الى شفائه .
- ٤ - ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب .
- ٥ - اذا صح الظفر وقعت الغير .
- ٦ - التذلل للحبيب من شيم الأديب .
- ٧ - من طال سروره قصرت شهوره .
- ٨ - من كان ظريفا فليكن عفيفا .
- ٩ - ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف .
- ١٠ - سوء الظن من شدة الغضب .
- ١١ - من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب .
- ١٢ - من منع من كثير الوصال قنع بقليل الثوال .
- ١٣ - من حجب عن الأحباب تذلل للمحباب .
- ١٤ - من منع من الوصول اقتصر على الرسول .
- ١٥ - من أحبه أحبابه وشى به أترابه .
- ١٦ - من لم يعاقب على الزلة فليس بحافظ للخلعة .
- ١٧ - من عاتب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه .
- ١٨ - بعد القلوب عن قرب المزار أشد من بعد الديار عن الديار .
- ١٩ - ما عتب من اغتفر ولا أذنب من اعتذر .
- ٢٠ - اذا ظهر الغدر سهل الهجر .

- ٢١ - من راعه الفراق ملكه الاشتياق .
- ٢٢ - قل من سلا الا غلبه الهوى .
- ٢٣ - من غلبه هواه على الصبر صبر لمن يهواه على الغدر .
- ٢٤ - من تجلد على النوى فقد تعرض للبلا .
- ٢٥ - في الوداع قبل الفراق بلاغ الى وقت التلاق .
- ٢٦ - ما خلق الفراق الا لتعذيب العشاق .
- ٢٧ - من غاب قرينه كثر حنينه .
- ٢٨ - من لم يلحق بالحمول بكى على الطلول .
- ٢٩ - من قصر عن مصاحبة الجار لم ينفعه مساءلة الدار .
- ٣٠ - من منع من البراح تشوق بالرياح .
- ٣١ - في لوامع البروق أنس للمستوحش المشوق .
- ٣٢ - في تلهب النيران أنس للمدنف الحيران .
- ٣٣ - في نوح الحمام أنس للمنفرد المستهام .
- ٣٤ - من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزجر .
- ٣٥ - في حنين البعير المفارق أنس لكل صب وامق .
- ٣٦ - من فاته الوصال نعشه الخيال .
- ٣٧ - من منع من النظر استأنس بالآثر .
- ٣٨ - من حجب عن الآثر تعلل بالذكر .
- ٣٩ - مسامرة الأوهام والأمانى سبب لتمام العجز والتوانى .
- ٤٠ - من قصر نومه طال ليله .
- ٤١ - من غلب عزاه كثر بكاه .
- ٤٢ - نحول الجسد من دلائل الكمد .
- ٤٣ - طريق الصبر بعيد وكتمان الحب شديد .
- ٤٤ - من غلب على صبره ظهر سره .
- ٤٥ - من لم يقع له الهوى باكتساب لم ينزجر بالعتاب .
- ٤٦ - من قدم هواه قوى أساء .
- ٤٧ - من شابت ذوائبه جفاه حبايبه .
- ٤٨ - من يش من هواه فلم يلتفت من وقته سلاه .
- ٤٩ - لا يعرف المقيم على العهد الا عند فراق أو صد .
- ٥٠ - قليل من الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره وقت الحياة .

وفى هذه التراجم يتضح لنا أنها صيغت صياغة أدبية، بحيث صارت أمثالا موجزة وحكما رائقة وهي ذات دلالة على مقدره ابن داود فى مجال النشر الفنى وأصالته فى الصياغة والتعبير .

ونلاحظ فى ترتيب هذه الأبواب ان ابن داود قد حرص على أن تندرج الأبواب وتترقى فى التصوير ، بحيث تمثل نمو العاطفة وتعبر عن أحوالها الواقعة من البداية ثم ما يعرض فى أثنائها وما يتوقع فيها الى النهاية أيا كانت ، مع حرصه على أن يكون الوفاء هو طابع هذه العلاقة حتى بعد الوفاة .

وهذا ما يعبر عنه ابن داود بقوله :

« ورتبتها على ترتيب الوقوع حالا فحالا فقدمت وصف كون الهوى وأسبابه وبسطت ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه من الهجر والفراق وما توجبه غلبات الشوق والاشفاق ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، وبعد أن أتيت على ذكر الوفاء فى الحياة وأرجيت ما بين أول الأبواب وأوسطها وما بين أوسطها وآخرها على المراتب بابا فبابا ، لم أقدم مؤخرا ولم أؤخر مقدما » .

ومن هنا يتضح لنا أن ابن داود قد التزم الوحدة فى الموضوع والوحدة العضوية فى الترتيب ، فجاء كتابه صورة متسقة ترسم للعشق حقيقته ، وهى صورة متكاملة ليس فيها ثغرات أو نقائص .



حقيقة العشق عند ابن داود

وترجمة الباب الأول من كتابه الذى عالج فيه حقيقة العشق ، تدل على أنه يرى أن العشق يتولد من النظر فقد جعل ترجمة هذا الباب : « من كثرت لحظاته دامت حسراته » وفى هذا المعنى يورد أشعارا كثيرة تدل على وقوع العشق بالنظر وحدوثه من ادامة التطلع الى مواطن الجمال .

ومع أن أغلب اختياراته فى هذا المعنى تدل على وقوع العشق بالنظر ، الا أنه يورد شاهدين يدلان على امكانية وقوع العشق بالسمع أولهما يرويه عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب :

إذا هن ساقطن الأحاديث للفتى
سقوط حصى المرجان من سلك ناظم
رمن فأنفذن القلوب ولا ترى
دما ما ترى الا جوى فى الحيازم

ولكن نهاية هذا الشاهد تبين اعتبار الشاعر للنظر دون السماع :
أو أن مراده السماع المساعد للنظر اذ يقول :
ولكن وبيت الله ما طبل مسلما
كفر الثنايا واضحات الملائم
والثانى يرويه عن القطامي ويصفه بأنه « أحسن ما قيل فى معناه »
وهو :

وفى الخدور غمامات برقن لنا
حتى تصيدنا من كل مصطاد
يقتلنا بحديث ليس يعلمه
من يتقن ولا مكتوبه بى
فهـن يـدين من قول يصبـن به
مواقع الماء من ذى الغلة الصادى



الجانب العذرى فى كتاب الزهرة

حرص ابن داود على أن يؤكد ضرورة العفاف فى العشق ويبين مكانته فيه وأثره فى حسن عاقبته والحكم الأخلاقى والدينى عليه ، فأفرد لهذا المعنى الباب الثامن من كتابه الذى جعل ترجمته : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » .

فقد كان ابن داود يؤمن بالمبادئ الإسلامية للمعاطفة وبالمعاني العذرية التى أفاض فيها الشعراء المسلمون . كما كان ابن داود فقيها ومحدثا يلتزم القيم الأخلاقية التى جاء بها الإسلام .

ولذلك فقد استعان في تأكيد حقيقة العفاف بوسائل ثلاث :

- ١ - النصوص الدينية .
- ٢ - انقيم الأخلاقية .
- ٣ - الأدب الاسلامي ونثره الذي يصدر عن الوعي والالتزام بمبادئ الاسلام .

والقيم الأخلاقية الى وجه اليها ابن داود الأنظار في رعاية العفاف في العشق قد جعلها مرتبطة بالابقاء على الود والحفاظ على الصلة ، اذ أنه يرى ان رعاية العفاف تحيط العلاقة بشفافية ونقاء يرقى بعواطف الانسان ويسمو بوجدانه .

فيقول :

« ولو لم تكن عفة المتحابين عن الادناس وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة الناس محرما في الشرائع ولا مستقبحا في الطبائع لكان الواجب على كل واحد منهما تركه ابقاء لوده عند صاحبه وابقاء على ود صاحبه عنده » ومعنى هذا أن هناك آدابا تحتم على العاشق أن يعف في هواه . حتى لا يعرض عاطفته للهوان أو الفناء .

وهذه القيم الأخلاقية التي يشير اليها ابن داود ويجعلها باعنا على انزام العفاف قيم نمت في البيئة الاسلامية ، وأصبحت تقاليد لها مكانتها في ذلك المجتمع واليها يشير ابن داود في ترجمة الباب الذي يتحدث فيه عن الوفاء حين يقول : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » ، وهو يعنى بالظرف هنا : اللياقة والتثقيف والتقبل الحضاري والتشكل بآداب المجتمع وتقاليده . وقد كتب ابن داود كتابه هذا للصفوة المثقفة ولأصحاب الذوق والخلق فهو يشير الى آداب مرعية وتقاليد معهودة .

فاذا نظرنا الى الجانب الأدبي الذي استشهد به ابن داود على رعاية العفاف والاستمسك به ، نراه قد صدر عن روح الاسلام ونما في تربته ، وظهر انطباعه به في أبهى صورة .

وقد تأثر هذا الشعر العفيف بدعوة الاسلام الى مخالفة الهوى وكف نوازعه كما قال سبحانه : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، وقال : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقال : « ولن خاف مقام ربه جنتان » .

فمما يمثل أشعار المشتهرين بالعفاف قول العباس بن الأحنف :

أناذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وهو يجرى على إعلان العفاف واجتناب الكبائر ، مع المسامحة في الصغائر التي لا يخلو عنها العشق كالنظر والسمع .

وعلى هذا الاتجاه يجرى قول حمزة بن أبي ضيغم :

وبتنا خلاف الحي لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقط الظل والندى من الليل بردا يمنة عطران
نذود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كاد قلبانا بنا يردان
ونصدر عن رى العفاف وربما شفيينا غليل النفس بالرشقان

وفي هذه الأبيات يتضح لنا صدورها عن مبادئ الاسلام وتأثرها بتوجيهاته .

وقد كانت أرقى رتبة يسمو المحب العذرى بمحبوبته اليها أن يصفها بالتقى وأن يزينها بالحياه فتلك أمثل صورة يرسمها العاشق العفيف لمحبوبته كما يقول النمرى :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشيت به زينب في نسوة عطرات
خرجن بفج رائحات عشيبة يلبسين للرحمن معتمرات
يغطين أطراف البنان من التقى ويخرجن بالأسحار مختمرات
فلما رأت ركب النمرى أعرضت وكن من أن يلقيه حذرات

كما يروى ابن داود عن أعرابي أنشدته ببلاد نجد :

وقد كنت ودعت النقا ليلة النقا بما ليس يبلى ثوب جدته الدهر
وما نلت شيئا غير أنك قلت لي سارعاك فاحفظني فديتك يا بدر
سبتك بوجه كالصحيفة واضح وفي مقلتي وسنان في طرفه فتر
وفي مضحك عذب كان رضابه نوار أقاحي يدجنها العطر
ومالي علم غير أنى أظنه وما لي علم غير ظني ولا خبر

ويروى ابن داود عن أعرابية بالبادية :

ويوم كابهام الحبارى لهوته بقمعة والواشون فيه تحرف
بلا حرج الا كلام مودة علينا رقيبان : التقى والتعفف
اذا ما تهممنا صددنا نفوسنا كما صد من بعد التهمم يوسف

وكان اقتناع هؤلاء أن الحب بغير عفاف زائل لا خير فيه وأن العفاف هو الذى يضيف على العاطفة السحر والشفافية كما قال الآخر :

ألا ياشفاء النفس لم تسعف النوى وتحبى فؤادا لا تنام سرائره
أثيبى فتى حققت قول عدوه عليه وقلت فى الصديق معاذره
أحبك ياسلمى على غير ريبة وما خير حب لاتعف سرائره

فهذا تصريح بالقيم الثابتة فى المجتمع الاسلامى وتعبير واضح عن تأثير الأدب العربى بالاسلام وصدوره عن مبادئه .

وقد صرح الشعر العربى بقبح اللذة التى تورث صاحبها العار وتجلب له سخط الله وعقابه على نحو ما قال مسعر بن كدام :

تفنى اللذاة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الاثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها لا خير فى لذة من بعدها النار
وهذا تصوير لانطباع المسلم بعقيدته فى الثواب والعقاب وليس أثرا لفلسفة أو حكمة .



أما أهم القضايا المتعلقة بالحب فى كتاب الزهرة فيمكن أن نرى فيها أركان هذه العاطفة أو مقوماتها ، ونجملها فى :

(أ) الأسباب البعيدة للحب :

وذلك أنه حدد النظرة سببا لبداية الحب ولما كان ليس بالضرورة أن تنتهى كل نظرة الى حب ، فقد وجب البحث عن تعليل أكثر غورا والتصاقا بالنفس الانسانية أو الجانب الغامض منها ومحاولته فى البحث عن هذا التعليل جديرة بأن نتعرف على تفاصيلها :

« وقد ذكرنا من أقاويل الشعراء فى الهوى أنه يقع ابتداءه من النظر والسمع ما فى بعضه بلاغ ثم نحن ان شاء الله ذاكرون ما فى ذلك الأمر الذى أوقعه السماع والنظر ، ولو وقع وكيف وقع اذ قد صح كونه عند العامة وخفى سببه على الخاصة .. عن النبى (ﷺ) أنه قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

وفى مثل ذلك يقول طرفة بن العبد :

تعارف أرواح الرجال اذا التقوا فمنهم عدو يتقى و خليل
وان امرءا لم يعف يوما فكاهة لم لم يرد سوءا بها لجهول

وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضا فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق لمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم .

وقد قال جميل فى ذلك :

تعلق روحى قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس اذا متنا بمنقضى العهد
ولكنه باق على كل حالة وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

وهنا نتأمل كيف بدأ بحديث نبوى عقب عليه بأبيات جاهلية قريبة من معناه ، ثم قفز راجعا الى أفلاطون مؤيدا زعمه بأبيات من العصر الأموى وكأنها قد لقيت (فى ذلك) .

وليس هذا السبب الميتافزيقى - ان صح التعبير - هو التعليق الوحيد لنشأة الحب فهناك التفسير الفلكى ، حيث تتحكم الأبراج فى اتفاق الأرواح فلا يجد المرء بدا من أن يحب صاحبه ، أو فى ترابط المنافع أو مشاعر الحزن والفرح « فأما اتفاق الأرواح فانه يكون من كون الشمس والقمر فى المولدين فى برج واحد ويتناظران من تثليت أو تسديس نظر مودة فانه اذا كان كذلك ، كان صاحبا المولدين مطبوعين على مودة كل واحد منهما لصاحبه » .

وتوافق البرج يعنى توافق المزاج وهنا يظهر فى عالم الحب مصطلح جديد سيلعب دورا أساسيا فى تفسيره عند كل من كتب بعد ابن داود تقريبا وهو « المشاكلة » ، وقد جاء المصطلح الجديد فى صورة « زعم » لجالينوس . وتعليل الحب بالمشاكلة يتجاوز السبب المحدث لهذه المشاكلة وهل هو النجوم أو غيرها كما سنرى : « وزعم جالينوس أن المحبة قد تقع من العاقلين من باب تشاكلهما فى العقل ولا تقع بين الأحمق من باب تشاكلهما فى الحمق ؛ لأن العقل يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » . فهذا هو « التوافق النفسى » بلغة عصرنا أو تجاذب الأشياء .

ثم يأتى السبب أو التفسير الثالث ويمكن أن ندعوه التفسير العلمى وهو يتلمس السبب فى نشاط الغدد المستجيبة لحركة الشعور فتتبادل معه التأثير :

« وقال بعض المتطبيين ان العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع اليه مواد من الحرص فكلما قوى ، ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة الشهوة وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالتة الى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها الى السوداء . ومن طغيان السوداء فساد الفكر ، ومع فساد الفكر تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى ما لا يتم ، حتى يؤدى ذلك الى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غما وربما نظر الى معشوقه فيموت فرحا أو أسفا . . . » .

(ب) أطوار الحب :

وأصدق ما يصور رايه مجملا يقوله تعقيبا على قصيدة عمر بن أبى ربيعة النونية والتي تنتهى بقوله :

قلت : يا سيدتى عذبتينى قالت : اللهم عذبنى اذن

يقول ابن داود :

« ولو لم يصبر المحب على امتحان الفه الا بسماع مثل هذا من لفظه ، لكان ذلك حظا جزيلا ودركا جليلا فكيف وحال الصفاء اذا ابتدأت بين امتحابين بالمشاكلة الطبيعية ، ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق الدنية ، ثم عذبت بالرعايات الاختيارية بلغت بهما الحال الى حيث انقطعت بهم دونه الآمال » .

هذا اجمال لأطوار الحب وحالاته تمثل المشاكلة نقطة البدء فيه ، حيث يتم التجاذب والتلاقى على عاطفة واحدة ثم يبدأ جهاد المحبين سلبيا بعدم الوقوع في الخطأ أو الخطيئة ، ثم ايجابيا برعاية هذه العاطفة وما ينبغي أن تنال من الطرفين من آداب وأفعال وأقوال .

أما مراتب الحب تفصيلا فانها تبدأ بالسماع والنظر فيتولد عنهما الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة ثم تقوى المودة فتصير محبة ثم تقوى المحبة فتصير خلة ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى فاذا قوى الهوى صار عشقا ثم يزداد العشق فيصير تتيما ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، وهو قمة ما يبلغه المحب ، اذ معناه الخروج عن حدود الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز .

فالحب عند ابن داود نوع من الاستلاب يتخلى فيه المحب عن التفكير والانتخيل والاحساس بأي شيء سوى المحبوب ، ومن ثم قد يعاني حالات من الشك والقلق والجحود والرغبة في النكوص ، ولكنه لن يكون محبا ان ترك هذه الهواجس تقترب منه أو تؤثر في توحده عاطفته فالحب الحق « هو ما لا يريد بالبر ولا ينقص بالجفاء » وهذا يعنى فى النهاية أنه تصور عاطفة المحب بمعزل عن المحبوب ذاته فليس الحب شركة بين طرفين يضحيان في سبيل غاية واحدة هي سعادة كل منهما بوجوده مع الآخر ، بل هو موقف فكرى فردى ينبغي على المحب الصادق التزامه بصرف النظر عن موقف الطرف الآخر ولهذا يبدى اعجابه بقول الشاعر :

ان الذين بخير كنت تذكرهم هم اهلكوك وعنهم كنت انهاكا
لا تطلبن حياة عند غيرهم فليس يحييك الا من توفاك

فهذا المحب قد صبر على مضاضة دائه ، مع علمه بأن صبره يزيد في الداء « ولم ير أن ينعطف الى سواء ولا طلب الراحة الا من عند من ابتلاه » .
ويقبل بتحفظ قول الآخر :

ولما أبى الا جماحا فؤاده ولم يسئل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها فاذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

« وهذا وان كان مخالفا لذلك فى أنه جرب الأدوية على نفسه والتمس الراحة فى الف غير الفه ، فانه موافق للذى يقدمه فى التماسه من نحو الجهة

التي حدث عنها الداء في رجوع نفسه الى وطنها واقبالها بعد الانحراف على سكنها » .



(ج) آداب الحب :

لا بد لنا أن نلقى نظرات الى القواعد التي قررها ابن داود للعاطفة العذرية والمقاييس التي جعلها حكما في هذا المجال ، فهي جانب أصيل في كتاب الزهرة الذي لم يرد له صاحبه أن يكون معرضا لنتاج العاطفة فحسب . بل أراد منه أن يصبح سجلا لقوانين العاطفة التي اكتسبها الذوق العربي واستشعرها وجدان المجتمع الاسلامي في عصره وقبله .

وابن داود يعتمد في تقريره لهذه القواعد على شعر العاطفة العذرية للشعراء الأمويين والعباسيين الذين اشتهروا بهذا اللون ، مثل جميل وكثير وذى الرمة والعباس بين الأحنف والمؤمل والنميرى وغيرهم ، والذين سمت لديهم صور التعبير عن العاطفة وان لم يشتهروا بالعشق مثل ابن تمام والبحتري .

ولذا ، فان عرض هذه المبادئ التي قررها ابن داود لابد أن يقترن بالاستدلال عليها من الشعر ، وقد أفسح ابن داود المجال لهذه المختارات ، وقد كان ابن داود وهو يجمع هذه المختارات على وعى بما تحويه من اتجاهات .

ويرى ابن داود أن العاطفة مراتب تتفاوت في القوة والضعف وترقى في القلب حالا بعد حال .

وقبل أن يذكر لنا ابن داود هذه المراتب ينقل عن جالينوس أن « العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد » وفي الدماغ ثلاثة مساكن للتخيل وهو في مقدم الرأس والفكر وهو في وسطه والذكر وهو في مؤخره ، وليس يكمل لأحد اسم عاشق الا حتى اذا فارق من يعشقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره وقلبه وكبدته ؛ فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد ومن النوم باشتغال الدماغ والتخيل والذكر له والفكر فيه ؛ فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقا فاذا لقيه خلت هذه المساكن .

وهنا تنهياً أذهاننا لمعرفة مراتب المحبة التي يوردها ابن داود حسب وقوعها حالا فحالا .

فأول من يتوالد عن النظر والسمع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الارادة فمن ود انسانا ود أن يكون له خلا ، ومن ود عرضا ود أن يكون له ملكا ثم تقوى المودة فتصير محبة والمحبة سبب الطاعة .

وفى ذلك يقول محمود الوراق :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا محال فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ان المحب لمن أحب مطيع

ثم تقوى المحبة فتصير خلة ، والخلة بين الآدميين أن تكون محبة أحدهما قد تمكنت من صاحبه حتى أسقطت السرائر بينه وبينه فصار متخللا لسرائره ومطلعا على ضمائره .

ثم تقوى الحلة فتصير عشقا والعاشق يمنع من سرعة الانخراط فى هوى معشوقه اشفاقه عليه وضنه به ، حتى ان ابقاءه عليه ليدعوه الى مخالفته وترك الاقبال عليه . فمن الناس من يتوهم لهذه العلة أن الهوى أتم من العشق وليس الأمر كذلك .

ثم يزداد العشق فيصير تتيما . وهو أن تصير حالة العشق مستولية للعاشق ، فلا يكون معها فضل لغيرها ولا تريد بقياسه شيئا الا وجدته متكاملا فيها .

وفى مثل هذا المعنى يقول أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هـواك لذينة حبا لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم اذا كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ما من يهون عليك ممن يكرم

« ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، والوله هو الخروج عن حد الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز ، حتى نراه يطلب ما لا يرضاه ويتمنى ما لا يهواه ، ثم لا يحتذى مع ذلك مثالا ولا يستوطن حالا .

وقد قال حبيب بن أوس الطائي في نحو هذا :

ولهته العلي فليس يعد الـ بؤس بؤسا ولا النعيم نعيما
والشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال والمستحسن يشترى الى
ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها
الاشتياق ، فالحب وما أشبهه يتهيأ كتمانها فإذا بلغت الاشتياق بطل
الكتمان .

ذلك من حيث مراتب العشق وترقى أحواله ، ويؤكد ابن داود أن
العشق إذا تمكن من القلب فلا حيلة له ولا تدبير . يذكر لبعض أهل
عصره أبياتا منها :

وقد كان يسبى القلب في كل ليلة ثمانون بل تسعون نفسا وأرجع
يهم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من فوره حين يصبح
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلست أراه عن وداك يبرح
رميت بهجر منك أن كنت كاذبا وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني عندي يملح
فان شئت واصلني وان شئت لم تصل فلست أرى قلبي لغيرك يصلح
ثم يقول :

« فالمحبة ما دامت لهوا ونظرا فهي عذبة المبتدأ سريعة الانقضاء فإذا
وقعت مرتبة على التمام في المصافاة ، تعذرت قدرة القلب على هواه فحينئذ
تضل أفهام التمييزين وتبطل حيل المتفلسفين » .

وذلك يصدق على واقع ابن داود ويصور مأساته في غلبة الهوى
عليه وتمكنه من قلبه حتى أعياه أمره وجر عليه التلف ؛ فلم يقو على
الخلاص منه .



(د) من أعراض العشق وأحواله :

تناول ابن داود في كتاب الزهرة ما يعرض في العشق من أحوال
وما يترقى فيه من مراتب مختلفة بين السرور والحزن والرجاء واليأس
واللقاء والفراق ، وما يوقظ الجوى في النفوس وما يبعث الشوق في الفؤاد
من مظاهر الطبيعة ومشاهد الكون .

ووسيلته في ذلك عرض الصور الشعرية الكثيرة ، التي تشهد لقوله
أو تثبت رأيه أو تدل على فكرته .

فهو في ذلك يضع الشواهد الشعرية في مواضعها المناسبة ويرتبها
على أحوالها اللائقة .

ولن يتسع هذا العرض لمتابعة ما أورده ابن داود في كل أحواله ،
ولكننا نتتبع الأفكار الكلية والتحليلات الدقيقة التي كان فيها ابن داود
رائدا أصيلا ، ونختار القليل من الشواهد التي سجلها .

سوء الظن من شدة الفن :

يعمل ابن داود الغيرة التي تبدو على العاشقين تجاه من يهوون ، بأن
ذلك ناشئ عن حرصهم وضمنهم على غيرهم أن يشاركوهم في هواهم .

فالعباس بن الأحنف من سوء الظن وشدة الغيرة تبلغ به المدى
فلا يسمع محزوننا يفضي بشكوى إلا خطر بباله أنه يعني محبوبته ،
مبالغة في الحذر وحرصا ألا يشاركه في هواه أحد ، برغم ثقته بمن يحب
فيقول :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه إلا ظننتك ذلك المحبوبا
حذرا عليك واننى بك واثق ألا ينال سواى منك نصيبا

بل ان المحب يشتد قلقه حين يتفكر في مصير محبوبه بعد موته :
هل يقيم على العهد أم يشتغل بسواه كما يقول البحتري :

اعظم الرزء أن تقدم قلبى ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذرا أن تكون الفسا لغيرى اذ تفردت بالهوى فيك وحدى

وقد يستولى سوء الظن على قلب المحب فلا يصفى لنداء العقل
فيقترب الجريمة التي يندم عليها طول حياته ومن هذا القبيل قصة ديك
الجن ، وهو شاعر عباسى ذكرت المصادر الأدبية بعض أخباره .

قال ابن داود :

« واتصل بى أن ديك الجن قدم من سفر فوجد جاريتته ، وقد كان
يهواها ، عند أخيه تسأله عن خبره لابطاء كان منها ، فقتلها وقتل أمها وقال
في ذلك :

يا مهجة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعليها وما وطئ الثرى شيء أعز على من نعليها
ما كان قتلها لأنى لم أكن أبكى اذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت عن العيون بلحظها وأنفت من نظر العداة اليها

فديك الجن يصرح بسر مأساته التي دفعته الى القتل ، ثم أورثته الحزن المقيم فقد بخل عن العيون بلحظها وأنف من تطلع الأبصار اليها وقد خامره - دون شك - من ذلك الشعور ما يذهل ويأسر .

وقد ظل ديك الجن يبكى جارته تلك أحر ما يكون البكاء فى أسى صادق ولوعة غير مصنوعة فيقول :

قمر انا أستخلصه من دجنة لبليتي وجلبته من خدره
فقتلته وبه على كرامة ملء الحشى وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتا كأحسن نائم والدمع يجرح مقلتي فى نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده بالحى منه بكى له فى قبره
غصص الزمان تفيض منها روحه وتكاد تنزع قلبه من صدره

ومع ذلك الحزن الصادق ، لم يخلص ديك الجن من وساوس الغدر التى ساورتها تجاه جاريته تلك ، وبرغم الأسى الذى يخلق أشعاره فانه لم يندم على فعله بل كان أسفه على غدر جاريته يقول :

ليتنى لم أكن لعطفك ملت والى ذلك الوصال وصلت
فالذى منى اشتملت عليه ولعار ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل لم جهلت ولا أعلم أنى حلمت حتى جهلت
لائم لى بجهله ولماذا أنا وحدى أحبيت ثم قتلت
سوف آسى طول الحياة وأبكيك لك على ما فعلت لا ما فعلت

ويرى ابن داود فى هذه الأبيات احتمال أن يكون ديك الجن مغلوبا فيها على عقله ، أما اذا لم يكن كذلك « فظنه الظن الذى لا غاية بعده ، وذلك أنه قد آيس من حبيبه بقتله له . وهو غير نادم على فعله بل مصوب له وراجع باللوم على نفسه فيما آلاه من الغدر » .

وحين يتأمل الناظر هذه الغصص التي يتجرعها العاشقون في ضمنهم
وظنهم واشفاقهم ووساوسهم يرى صدق قول القائل :

وما في الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا في كل حين مخافة فرقة ، أو لاشتياق
فيبكي ان تأوا شوقا اليهم ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التناهي وتسخن عينه عند التلاقي
أما ابن داود فانه يرى أن « تلك المكاره كلها أثمار الملاذ التي قبلها » .

فعنده أن الأمر يترقى بالمحبين من مرتبة الى أخرى حتى ينتهي بهم
الى هذه الحال المقلقة ، ويشرح لنا ابن داود كيف يصل العاشق الى درجة
الضن وسوء الظن فيقول : « فان من هوى انسانا ، فان قصاراه حين يهواه
أن يعيد نظره اليه فيروى من شخصه ويستمتع من لفظه » ويطرق به ذلك
الى كثرة التلاقي والمواصلة وهو في تلك الحال لا ينتبه الى موقف محبوبه
ممن سواه ، لأنه مشغول بحظوظ نفسه « بل يجب أن يكون الفه سمحا
بمواصلة لمن علم أنه يوده ؛ ليكون ذلك سببا له الى مواصلته وتسهيلا
له السبب الى معاشرته » .

وبعد ذلك يتشاغل المحب بالمطالبة بحقوق الفه . بعد أن يفرغ من
المطالبة بحظوظ نفسه له من معاشرة غيره ، بل انه يصون الفه ويشفق عليه
من مخالطته وعندئذ تبدر بوادر الشك وتهب رياح الظن ؛ فيعود الى ما كان
يحسب له به مكرمة من براه به فيجعله عليه هجنة ويوهم نفسه أن ذلك
الذي ناله ممنوح من كل من سألته .

ألم تسمع الذي يقول :

فلا تكثري قولا منحتك ودنا فقولك هذا في الفؤاد مريب
تعدين ما أوليتني منك نائلا وللقابس العجلان منك نصيب
« فحينئذ يظن المحب ما لا يخشاه ويتمنى ما لا يهواه ويفسد عليه
أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الذي ذكرناه » .

ومعنى ذلك أن هذه الحال من شدة الضن وسوء الظن تقتصر على
مرتبة الوله وهي مرتبة فوق العشق ، أما مرتبة العشق فانها « توجب على
المحب طاعة المحبوب في كل ما أحب حتى لا يعصى له أمرا ولا يقبح له
فعلا » .

ابن داود وتأثيره

ما المصادر التي يمكن أن نرجع كتاب الزهرة إليها ؟
هل هي كتب بذاتها ؟ أم هي أجناس من الأدب والعلم ؟ وهل يعود
الى الثقافة العربية وحدها ؟ أم أن فيه ألوانا من الثقافات الأخرى ؟

وأول ما نلمحه في كتاب الزهرة أنه ليس تأليفا بالمعنى المفهوم من
الكلمة وهو النظر في نتاج السابقين والاختيار من آرائهم وأقوالهم ،
فليس مستقى من كتب ولا صادرا عن دراسات سابقة ، إذ أنه لم تسبق
دراسة ابن داود للعشق دراسة يقول عليها ويؤخذ عنها .

ومن هنا كان كتاب الزهرة كتابا رائدا في موضوعه ، اختط لنفسه
منهجاً جديداً وأقام بناءً كما يحلوه ، ودون أن يثقله عناء النقل عن الكتب
ودراسة الوجهات السابقة .

ويدل على ذلك قول ابن داود في مقدمته : « انتزعتك لك من خواطري
واخترته من غريب ما اتصل بمسامعي » .

فكتاب الزهرة كما يقول د . مصطفى عبد الواحد في كتابه
« دراسات الحب في الأدب العربي » عبارة عن أجناس أدبية وعلمية ، مزج
بينها ذوق دقيق وفكر منظم ووجدان رقيق وهذه الأجناس هي :

- ١ - الشعر العربي في عصوره الجاهلية والأموية والعباسية .
- ٢ - النقد الأدبي .
- ٣ - الأخبار الأدبية .
- ٤ - معلومات من الحكمة والفلسفة .
- ٥ - التحليلات والتأملات النفسية .
- ٦ - أحاديث ولمحات دينية .

وبذلك يتمثل في هذا الكتاب كل ألوان الثقافة الأدبية بمعناها
الشائع في الفترة التي عاشها ابن داود .

وهذه الثقافة التي يصدر عنها ابن داود في كتابه ثقافة عربية اسلامية ، تنتسب الى البيئة التي عاش فيها ابن داود ولا تمد بجذور الى سواها .

ومن هنا ، فلا يمكن احدا نسبة كتاب الزهرة الى مصادر دخيلة على الثقافة العربية فهو لا يمت في غايته او وسيلته الى جذور غير عربية .

فقد نشأ هذا الكتاب استجابة لحاجة اجتماعية ، حين حاول ابن داود أن يقدم للصفوة المتأدبة في مجتمعه تحليلا لحقيقة الحب وصورة مكتملة لقواعده وآدابه ، واستعان في ذلك بكل الوسائل الثقافية والأدبية المعاصرة له التي تناسب موضوعه وتحقق غايته . ويدل على الصبغة العربية لكتاب الزهرة أن الشعر كان سداً ولحمة بحيث يمثل أعظم جانب فيه فهو اذن مستقى من الوجدان العربي قائم على صورته وأخيلته .

ويستطرد د . مصطفى عبد الواحد قائلا :

« ولسنا ننفي بذلك أن يكون لابن داود اطلاع على الثقافات المترجمة كالفلسفة اليونانية، فإن من الثابت أن ابن داود قد طالع جانبا من هذه الفلسفة التي ترجمت قبل مولده في بداية العصر العباسي، بدليل ما يذكره في كتابه من اشارات موجزة اليها ؛ ولكننا ننفي أن يكون كتاب الزهرة صادرا عنها أو أثرا من آثارها ، فإن الحيز الذي شغلته الفلسفة في كتاب الزهرة حيز ضئيل بحيث لا يمثل عنصر ذا أهمية فيه ، ولو أنك حذفتها من الكتاب ثم قرأته لم تجد فيه حلقة مفقودة ولا فجوة بارزة . »

وأغلب الظن أن ابن داود ضمن كتابه هذه اللمحات القليلة من الفلسفة والعلوم الطبيعية حلية لكتابه وشارة الى نواحي ثقافته ، فإن الفلسفة في ذلك العصر كانت لاتزال طريفة جديدة على الأذهان أو كانت طابع التجديد وشارة التفوق . »

وعلى كل ، فإن أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن داود في كتابه هو الشعر بحيث نستطيع اعتباره مجموعا من المجاميع الشعرية الضخمة حفظت لنا جانبا هاما من تراثنا الشعري في أعذب صورة وأرقها وهو جانب العاطفة المشبوبة والمشاعر المحلقة ، أما المصادر العلمية من فلسفة ودين ونقد فهي لا تمثل في الكتاب جوهره ، بل تضيف اليه حلية أو تستكمل زينة ، ويبقى بعد ذلك عمل الرجل في تحليل هذه الأبيات الشعرية وفي الإفضاء بنظراته في قواعده العشق وآدابه وتحليلاته النفسية لخواطره وخلجاته وإن كان جانب الشعر قد طغى على التحليل والتعليل .

وقد اعتمد ابن داود في إيراد الشعر في كتابه على الرواية الشفهية عن معاصريه أمثال البحتري ، وعلى الرواية الأدبية عن العصور السابقة وقد كان المتأدبون يتفاوتون بمقدار روايتهم للشعر وكثرة حفظهم منه .

أما جانب التحليل والتأمل في الكتاب، فقد صدر عن ذهن ابن داود وانبعث من وجدانه فليس له فيه مرجع سابق وليس لهذا الشأن أصل مقدم .

وقد دل ابن داود في تحليله للخواطر والأفكار في كتابه - على ملكة أصلية وذوق دقيق ، ولو أنه أفسح المجال لهذا التحليل لخرجنا بدراسة نفسية مكتملة للمشاعر والخواطر والأفكار التي تتصل بموضوع العشق ، ولكن التزامه بقدر معين من الشعر جعله يفسح له المجال ويبث خواطره وآراءه على قدر .

أما تأثير كتاب الزهرة في الدراسات الأدبية في موضوع العشق ، فإنه لا يبدو واضحا في كتاب بعينه ، بقدر ما يبدو في كتاب طوق الحمامة لابن حزم .

وما عدا ذلك، فلم ينح منحى ابن داود أحد من الكاتبين في موضوع العشق .

ولا شك في أن كتاب الزهرة كان ذا تأثير قوى في كل الكتب التي تناولت موضوع العشق من بعده من حيث المادة الشعرية الحافلة التي حواها ، والتي حفظت جانبا كبيرا من شعر الأعراب والأفراد غير المشتهرين، ولولاه لضاع جانب هام من تراثنا الأدبي ولفقدت حلقة تعبر عن أرق جانب في الوجدان العربي ، كما أن ترتيبه لدرجات العشق ووضعها لقواعده وآدابه ظلت هي النموذج المرعى في الدراسات التي اهتمت بالتحليل والترتيب مثل طوق الحمامة وذم الهوى لابن الجوزي وغير ذلك .

مروج الذهب

المسعودي

القرن العاشر الميلادي

من ميزات المؤلفات التاريخية التي دونتها أقلام المؤرخين العرب الذين عاشوا وكتبوا في العصر العباسي الثاني وما تلاه ، اتجاهها نحو المنهج العلمي وميلها الى الدقة التي تتطلبها كتب التاريخ بشكل عام . ويمثل هذا الاتجاه الجديد في التأليف التاريخي ثلاثة هم : الطبري والمسعودي ومسكويه .

وقد تحدثنا في الأجزاء السابقة من الموسوعة عن كل من الطبري ومسكويه ، واذ نتحدث في هذا الجزء عن المسعودي سنجد أن المسعودي المؤرخ يسير على نهج الطبري في بعض الأمور : فهو مثلا مؤرخ حسب السنين لا حسب الموضوع ويذكر أكثر من رواية في الموضوع الواحد ويستقي مواده من أقوال من سبقوه من المؤرخين بعد أن يتحرى الصدق فيما يجمع؛ ولكنه يفاير منحي سلفه في أمور كثيرة أخرى لظروف فرضتها بيئته وثقافته وعصره وغير ذلك ، وقبل أن نبسط القول في خصائص مؤلفاته ونهجه في البحث لنعش معه حياته كما تصورناها لنا المعلومات القليلة التي نراها مبعثرة في ثنايا بعض كتب التراجم والأخبار .

مولد المسعودي

المسعودي واسمه الكامل أبو الحسن علي بن الحسين لا تبدأ حياته بسنة مولد ومكان ولادة . بل يكتنف الغموض سنة مولده وفي المصادر أكثر من رواية حول مكان ولادته . فابن النديم صاحب الفهرست مثلا يذكر أنه من أهل المغرب ، في حين أن غيره من كتاب التراجم كالذهبي وياقوت الرومي وابن شاكر وغيرهم يجمعون على أنه من مواليد بغداد ، وأنه من نسل الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود . ويؤيد هذا الزعم ما يذكره المسعودي نفسه في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » حيث يعدد أوصاف الأقاليم المختلفة فيقول : « وأوسط الأقاليم الذي ولدنا به وإن كانت الأيام أنات بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه وولدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا وهو إقليم بابل وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما » وهكذا يمكننا أن نقول في تحديدنا لمكان ولادته انه أبصر النور في بغداد ، مسقط رأسه ومستقر أهله وذويه من نسل صاحب رسول الله عبد الله بن مسعود . أما زمان ولادته فتهمله المصادر التي بين أيدينا ولا تتعرض له بذكر وهذا أمر طبيعي ، لأن أحدا لم يكن يتوقع له الشهرة وذيوع الصيت حين ولد ؛ ولكنه حين نبغ واحتل بين رجال عصره مكانا مرموقا سلطت الأنوار عليه

وتناقلت اسمه الألسن فحرص رجال التراجم على تلوين سنة وفاته والمصادر ، الا أن بعضها القليل ، تجمع على أن وفاته كانت في العام ٣٤٦ للهجرة ، كما أن في بعضها ما يدل على أنه دخل الحياة العامة وأخذ يجول الأقطار طلبا للعلم والمعرفة في مطلع القرن الرابع للهجرة . وهذا ان كان لا يرشد الى سنة مولده الحقيقية ، فانه يسمح لنا بالاعتقاد بأنه ولد في أخريات القرن الثالث الهجري وأنه لم يعمل له ذكر الا منذ مطلع القرن الرابع ، ولذا فهو يعد من مؤرخي هذا القرن الأخير .

أسفار المسعودي

وقد أحب المسعودي الأسفار منذ شبابه فسافر سنة ٣٠٥ الى اصطخر في فارس وزار في السنة التي تلت بعض مناطق الهند وسيلان وبلاد سيمور ، وانضم الى فريق من التجار في رحلة في بحر الصين وعبر البحر الأحمر وزار مدغشقر كما زار زنجبار وعمان . وحوالي سنة ٣١٤ نجده يجوب بحر الحرز (بحر قزوين) ومناطقه ، وينتقل بعدها لزيارة طبرية وفلسطين ، وقد قام في سنة ٣٣٢ بزيارة لأنطاكية ، وبعض مدن الحدود السورية . واستغرقت زيارته لهذه المناطق مدة سنتين أقام أثناءها في بعض مدن الثغور الشامية والبصرة . حتى كان العام ٣٢٤ فتوجه الى دمشق وأمضى فيها بعض الوقت . وانتقل منها الى مصر ليعيش متنقلا بينها وبين سوريا حتى آخر حياته . وقد توفي سنة ٣٤٦ وهو مقيم في القسطنطينية .

هيرودوت العرب

وقد دفع المسعودي للقيام بهذه الرحلات الطويلة المتناوبة حبه للعلم ورغبته في طلبه والاستزادة منه . فهو بهذا يشبه المقدسي والبيروني . وقد أتاحت له هذه الأسفار أن يعنى بمعارفه الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، وأن يتعرف على لغات وعادات وتقاليد وأخلاق وسياسات الأمم المختلفة التي زارها . وهو في جمعه بين المعرفة الجغرافية الواسعة بنتيجة الرحلات والأسفار وشغفه بالحقيقة التاريخية والأخبار بوجه عام ، يلتقى بهيرودوت أبي التاريخ عند اليونان فكلاهما رحالة زار البلاد وجاب الأقطار ، وكلاهما جمع أخبار الأمم التي زارها ، وكلاهما مزج بين التاريخ والجغرافيا في مؤلفاته . وقد دعا هذا بحق المستشرق فون كريبم أن يشير الى المسعودي في كتابه « تاريخ الثقافة في الشرق » باسم هيرودوت العرب .

ينقل ولا ينقد

ياخذ البعض على المسعودى أنه لم يكن يتمتع دوما بالروح العلمية العميقة ، وأنه كان فى بعض الأحيان سطحيًا يقبل الخرافات والأساطير ويسردها فى كتبه كما تصل إليه دونما تمحيص أو نقد . ولكن المستشرق سيديو لا يعتبر هذا عيبًا فى المسعودى بل يرجعه الى روح حب الاطلاع النامية عنده فيقول : « ولا نخشى التكذيب اذا قلنا انه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودى واذا كنا نراه محتاجا الى روح النقد أحيانا ، فلنذكر أن حب الاطلاع الشديد فيه حفزه الى زيارة الأماكن الى أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق الى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه » .

المسعودى موسوعى

والمسعودى موسوعى لا يؤمن بالموضوع الواحد ولا يقنعه الاختصاص الضيق فيما يكتب واذا كان لهذا النهج مساوئه ، فهو لا يخلو من محاسن تدل على سعة أفق المؤلف وشمول نظراته وتعدد جوانب ثقافته ويحدثنا هو عن تنوع الموضوعات التى يضمها المؤلف الواحد من مؤلفاته فيقول فى الباب الذى يذكر فيه جوامع أغراض كتابه المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ما يلى مما يستدل منه على تضمينه هذا الكتاب أبحاثا فى التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب وأخبار الملوك وسياستهم وغير ذلك . يقول المسعودى : « أما بعد ، اننا صنفنا كتابنا فى أخبار الزمان وقدمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها... ثم أتبعناه بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة... ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الأخبار على التاريخ ومن درج فى السنين الماضية... ونعتذر عن تقصير ان كان وتتنصل من الغفال ان عرض لما قد شاب خواطرننا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة فتارة بأقصى خراسان وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان وطورا بالعراق وطورا بالشام... نسري فى الآفاق سري الشمس فى الاشراف... كما قال بعضهم :

تيمم اقطار البلاد فتارة
لدى شرقها الاقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى
الى افق ناء يقصر بالركب

وفأوضنا أصناف الملوك على تفاير أخلاقهم وتباين همهم وتباعده
دارهم . . .

وهكذا يصنف لنا الموضوعات التي تطرق الى بحثها في كتابه
وينقلنا معه في أسفاره واصفا متاعبه في رحلاته واطلاعه الواسع على ما ألف
من قبله ومعددا بعضا مما ديج قلبه من مؤلفات في التاريخ والجغرافيا
وغيرها . وهو كغيره من المؤرخين العرب لا يتبع نظاما موحدا في عرض
مادته ونراه في كثير من الأحيان يخرج عن جادة الموضوع الأصلي ليذكر
أشياء لا تمت الى ما يبحث بصلة أو نسب . ولكنه يهتم يبحث جميع
الأشياء التي يعتبرها المتعلم في عصره أساسية ؛ لذلك جاءت مؤلفاته
جامعة لكثير من المعلومات المتشعبة المتفرعة . وهو يلتفت بشكل خاص
الى الأمور الاجتماعية والدينية والعلمية التي تميز بها العرب قبل اسلامهم
ويقارن بينهم وبين العجم وغيرهم من الأمم ، محاولا اظهار فضل العرب
وتقدمهم فتراه عند ذكر سير الملوك والخلفاء يستقصى أدق أخبارهم
الخاصة فيدخل بيوتهم ويعيش معهم في مجالسهم ويصف ملامحهم
وعاداتهم في المآكل والمشرب والملبس مما لا تجده عند غيره . وقل الأمر
نفسه عن اهتمامه بما كانت عليه أمة العرب من معتقدات دينية وإيمان
بآلهة وأوثان وزجر الطير وسوانحه وبوارحه والكهانة والعرافة ، حتى
يصل الى علومهم ومجالس أنسهم وقيانهم وآلات طربهم التي ضاع أغلبها
ولم يصل اليها منها الا القليل .

تصانيف السعوى

ومن تصانيفه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أخبار الزمان ومن
أباده الحدثان ، التنبيه والاشراف ، أخبار الخوارج ، ذخائر العلوم
وما كان في سالف الدهور ، الرسائل ، الاستذكار بما مر في سالف
الأعصار ، أخبار الأمم من العرب والعجم ، خزائن الملوك وسر العالمين ،
المقالات في أصول الديانات ، البيان في أسماء الأئمة ، المسائل والعلل
في المذاهب والملل ، الابانة عن أصول الديانة ، سر الحياة ، الاستبصار
في الامامة ، والسياحة المدنية في السياسة والاجتماع ، ويبدو أن أوسع

كتبه كان كتابه « أخبار الزمان ومن أباداه الجدثان » . وهو كتاب فى التاريخ العام والجغرافيا بدأ فى تأليفه سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م . وقد بلغ عدد أجزاء هذا الكتاب ثلاثين مجلدا ، عرض فيها المسعودى الحوادث حتى سنة تأليفه . وقد ضاعت أجزاء هذا الكتاب كلها ولم يبق منها الا مجلد واحد اشتراه المستشرق فون كريمر من مكتبة فى حلب وحفظه فى مكتبة فيينا . ويذكر السائح الانجليزى بوركهارت فى كتابه « رحلات فى بلاد النوبة » ان شيخا قاهريا قص عليه فى مطلع القرن التاسع هذا الكتاب فى ملازم من أربع ورقات فى مكتبة فى جامع أياصوفيا بالقسطنطينية ويبحث المسعودى فى هذا الكتاب تاريخ العلم وجغرافية ديار الحرب (أى بلاد غير المسلمين) كما يبحث أيضا فى الأساطير التى تتحدث عن تاريخ مصر القديم . وقد نقل جزءا مما كتبه فى هذا الكتاب فى كتابه « الكتاب الأوسط » الذى لم يبق منه أيضا الا مجلد واحد محفوظ فى مكتبة البودليان فى أكسفورد .

وقد اختصر المسعودى المعلومات التى أوردها فى هذين الكتابين (كتاب أخبار الزمان والكتاب الأوسط) وجمعها فى كتابه المسمى « مروج الذهب » الذى انتهى من تأليفه سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وأعاد النظر به سنة ٩٤٥ هـ / ٩٥٦ م أى قبل وفاته بقليل .

كتاب التنبيه والاشراف

وللمسعودى كتاب مطبوع آخر هو كتاب « التنبيه والاشراف » الذى ألفه قبل وفاته بقليل ، وهو على حد تعبير المؤلف نفسه مقدمة لكتبه وتكملة لها . وهذا الكتاب عظيم الأهمية ؛ لأنه يحوى كل ما حصله المؤلف من الأخبار بعد أن كتب « مروج الذهب » ، الكتابة الأولى وهى التى وصلت إلينا وقبل أن يعيد النظر به كما ذكرنا آنفا . وهو كتاب جغرافى أودع المؤلف فيه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها وتراكيبها وأقسام الأزمنة والفصول السنوية ومنازلها والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها وتأثير النواحي والآفاق على السكان والعروض والأطوال والأقاليم السبعة والأنهار ومصايبها . كما يذكر فى هذا الكتاب الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها، كما يذكر ملوك الفرس والروم وأخبارهم وأخبار الأنبياء وسيرة الخلفاء حتى سنة ٣٤٥ للهجرة . وميزة هذا الكتاب أنه يحوى الكثير من المعلومات الجديدة التى لم يضمنها المسعودى مؤلفاته الأخرى . وقد طبع النص العربى الكامل لهذا الكتاب المستشرق دو خويه

فى سلسلة « مكتبة جغرافى العرب » وذلك فى مدينة ليدن عام ١٨٩٤ ،
وقد ترجم النص العربى هذا الى الفرنسية المستشرق كارا دى فو ، ونشره
ضمن منشورات الجمعية الآسيوية - مجموعة الكتب الشرقية - وذلك
فى باريس عام ١٨٩٧ .

واذا كان لحرص المستشرقين والمهتمين بتاريخ العرب والاسلام على
ترجمة كتب المسعودى الى اللغة الأجنبية وطبعها ونشرها من دلالة ، فهى
تقديرهم البالغ لآثار هذا المؤلف وحرصهم على الافادة منها ويلخص
فازيليف فى كتابه « العرب والروم » اعجاب المؤلفين الغربيين بكتب مؤرخنا
المسعودى بقوله : « وكتب المسعودى مما يقرؤه المسلمون والأوربيون على
السواء فيجدونه ممتعا طليا وذلك راجع الى تنوع الاخبار التى يسوقها
المؤلف والى قدرته على جعل سرده حيا فى كتبه » .

كتاب مروج الذهب

لا شك فى أن كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » من أعظم كتب
المسعودى خاصة ومن أبرز المصنفات العربية عامة . تحدث المسعودى عن
سبب تسمية كتابه بهذا الاسم فقال : « وقد سميت كتابى هذا بكتاب
(مروج الذهب ومعادن الجوهر) لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى
عليه : من طوابع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة فى معناه وغرر مؤلفاتنا
فى مغزاه جعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات ؛ لما قد تضمنته
من جمل ما تدعو الحاجة اليه وتنازع النفوس الى عمله من دراية ما سلف
وغبر فى الزمان » .

وكتاب « مروج الذهب » دراسة تاريخية جغرافية ربط بها المسعودى
بين الزمان والمكان . تحدث المسعودى عن محتوياته فقال انه تحدث فيه
عن « التاريخ واخبار العالم وما مضى فى أكناف الزمان من اخبار الانبياء
والملوك وسيرها والأمم ومساكنها » .

ويتميز كتاب « مروج الذهب » ايضا باهتمامه الواضح بالدراسات
الاجتماعية والاقتصادية ، فنجد فيه صورا كثيرة لحياة كثير من الشعوب
عربية وغير عربية . وكان المسعودى أول من اهتم بدراسة الحياة الاجتماعية
والاقتصادية .

وكتاب « مروج الذهب » ليس تاريخاً متصل الحلقات بعضه ببعض، ولكنه يتألف من مجموعة من الأحداث والخبار رتبها المسعودي ترتيباً موضوعياً ويمكننا أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية إلى قسمين متميزين : أما القسم الأول فيتحدث فيه المسعودي عن الخليفة وقصص الأنبياء والبحار والأرضين وما فيهما من العجائب ونواريخ الأمم القديمة من الفرس واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم والشهور والتقاويم ، ثم تحدث المسعودي في آخر القسم الأول عن البعثة النبوية والدولة العربية الإسلامية منذ عهد الرسول إلى خلافة عثمان ابن عفان . أما القسم الثاني فيبدأ بخلافة علي بن أبي طالب . ثم يتناول الخلافة الأموية ثم يتحدث عن الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المطيع لله العباسي سنة ٣٤٥ هـ إذ توفي المسعودي في سنة ٣٤٦ هـ .

أشار المسعودي في كتابه « مروج الذهب » إلى كثير من كتبه التي ضاعت فلم تصل إلينا، وإلى كتب غيره من المؤلفين التي لاقت نفس المصير، مما يدل على أن المسعودي قد قرأ كثيراً من الكتب واعتبرها مصادراً لكتابته إلى جانب مشاهداته وما سمعه خلال رحلاته وإن كانت بعض المعلومات الجغرافية التي أوردها المسعودي في كتابه « مروج الذهب » قد ورد ذكرها في كتب من سبقوه إلا أنه ينفرد بمزية لم يشاركه فيها من سبقه من الجغرافيين العرب ، إذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامي في عصره . كما تميز عنهم بالدقة والعمق وطرق المسعودي مواضيع جديدة لم يطرقها من سبقه من المؤرخين المسلمين : فقد تحدث عن تواريخ الهند والفرس والروم واليهود ، كما أبرز تاريخ العرب في العصر الجاهلي وأديانهم وعاداتهم وأيامهم .

رسم المسعودي لمن يقرأ كتابه « مروج الذهب » طريقة الاستفادة منه ، وحتى يدرك القارئ المجهود الكبير الذي بذله في تأليفه ، أشار المسعودي إلى رحلاته العديدة وأنه ينتهج مذهب الحساد التاريخي فلا يتعصب ولا ينحاز إلى أحد ولا يعرض بأحد فيقول المسعودي في كتابه « مروج الذهب » : « وجميع ما أوردناه في هذا الكتاب لا يسع ذوى الدراية جهله ولا يعذر في تركه والتغافل عنه ، فمن عد أبواب كتابي هذا ولم يمعن النظر في قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ولا عرف للعلم مقداره فلقد جمعنا ما فيه في عدة سنين باجتهاد وتقى عظيم وجولان في الأسفار وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام . فمن قرأ كتابنا هذا فليستدبره بعين المحبة وليتفضل

بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناصح وصنحة الكاتب وليرع لى نسبة العلم وحرمة الأدب وموجبات الرواية وما تجشمت من التعب فيها فان منزلتى فيه وفى نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهرا منشورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكا واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقيا لطلابه . وليعلم من نظر فيه أنى لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيزت الى قول ولا حكيت عن الناس الا مجالس أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك .

نال كتاب « مروج الذهب » اهتمام المفكرين فى الشرق والغرب . فقد ترجمه المستشرق « باريه دى مينار » الى اللغة الفرنسية وطبع الكتاب فى باريس سنة ١٨٧٢ فى ٩ مجلدات ؛ كما ترجم الأستاذ « سيرنجر » الكتاب أيضا الى اللغة الانجليزية وظهر الجزء الاول فى لندن سنة ١٨٤١ . كما ظهرت طبعات عربية عديدة للكتاب فى كثير من العواصم العربية .

مع مقتطفات من مروج الذهب

(١) الجزء الأول :

١ - فى الباب الأول من كتاب « مروج الذهب » نرى المسعودى وقد سلك مسلك المؤلفين المحدثين فيتحدث عن دافعه الى تأليف هذا الكتاب والمصادر التى اعتمد عليها مع عقد مقارنة بينها . يبدأ الباب الأول بحديث المسعودى عن كتابه « أخبار الزمان » وقد لخص المسعودى أبواب هذا الكتاب على النحو الذى ذكرناه آنفا عند حديثنا عن آثار المسعودى . ثم يتحدث المسعودى عن كتابه الثانى « الأوسط فى الأخبار على التاريخ » ، ثم تحدث عن الدافع له على تأليف كتاب « مروج الذهب » فقال : « رأينا انجاز ما بسطناه واختصار ما وسطناه فى كتاب لطيف نودعه لمع ما فى ذينك الكتابين مما ضمناهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والأعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما » .

ويظهر المسعودى بمظهر المتواضع فهو يعتذر عما قد يلاقيه القارىء من تقصير ويفلل ذلك التقصير بقوله : « على أن نعتذر من تقصير ان كان وبتنصل من اغفال ان عرض لما قد شأب خواطرننا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر ... »

ثم مفاوضنا أصناف الملوك على تفاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم على أن العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه العناء وقل الفهماء فلا تعاین الا خمولا جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا قد منع بالظنون ، وعمى عن اليقين .

ثم تحدث المسعودى عن كتبه ومؤلفاته ودون نبذة مختصرة عن كل كتاب منها ثم حدد أهدافه من تأليف « مروج الذهب » فقال انه أراد « احتذاء الشاكلة التى قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلميا منظوما عتيذا ، وأراد المسعودى أن يثبت للمقارىء أن كتابه يتميز عن كتب من سبقوه فقال : « فانا وجدنا مصنفى الكتب فى ذلك مجيدا ومقصرا ، ومسهبيا ومختصرا ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غلب البارع منها على الفطن الذكى ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ولكل اقليم عجائب يقتصر على علمها أهله » . ويفخر المسعودى على أقرانه المؤلفين إذ قد رحل كثيرا واستفاد من رحلاته فيقول : « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نرى اليه من الأخبار من اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من ممكنه » .

وأشار المسعودى الى كتب من سبقه من المؤلفين ونقدتها نقدا علميا ، وأبرز ما فيها من محاسن ومميزات وأشار الى بعضها اشارات عابرة وأطنب فى مدح بعضها الآخر ، واشتد فى انتقاد سنان بن ثابت قره الحرائى . وقال اجمالا عنهم : « وقد ألف الناس كتباً فى التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف فأصاب البعض وأخطأ البعض وكل قد اجتهد بغاية إمكانه وأظهر مكنون جوهر فطنته » وخشى المسعودى أن يكون قد أغفل ذكر بعض الكتب الأخرى فلم يشر اليها فقال : « ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار الا ما اشتهر مصنفوها ، وعرف مؤلفوها ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث فى معرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم ، إذ كان ذلك كله أكثر من أن نأتى على ذكره فى هذا الكتاب » .

ثم أشاد المسعودى بكتابه « مروج الذهب » وعدد مزاياه فقال : « ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الأخبار ولا طريقة من الآثار الا أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات أو لوحدنا اليه بفحوى من العبارات » .

وينهى المؤلف عن التصرف فى الكتاب فى أية صورة ويخوف من ذلك ويذكرنا هذا بما نراه اليوم فى مقدمات بعض الكتب الحديثة التى يحذر مؤلفوها كل من تسول له نفسه أن ينقلها أو يترجمها أو يطبعها بدون إذن المؤلف !! وإن كان المؤلف المحدث يهدد اليوم باللجوء الى القضاء فالمسعودى يهدد من يعيث بكتابه بغضب الله عليه وسرعة نقمته وإن الله سينزل به البلاء ويجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين ، ثم يقول المسعودى : « وقد جعلت هذا التخويف فى أول كتابى هذا وآخره ليكون رادعا لمن ميله هوى أو غلبه شقاء فيراقب الله ربه وليحاذر منقلبه فالمنة يسيرة والمسافة قصيرة والى الله المصير » .

٢ - تحدث المسعودى فى الباب الثانى من كتابه عن محتويات جميع أبواب الكتاب فهو بمثابة فهرس مفصل بمواضع الكتاب وقد بلغ عددها ١٣٢ بابا . وختم المسعودى هذا العرض بقوله : « فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب على أنه قد يأتى فى كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم ، بأبواب نفردا عن سيرهم والجوامع مما كان فى أعصارهم وأخبار وزرائهم وما جرى من أنواع العلوم فى مجالسهم ملوحن بذلك الى ما سلف من تصنيفنا وتقدم من تأليفنا فى هذه المعانى والفنون » .

٣ - يتحدث المسعودى فى الجزء الأول من الكتاب عن عدد كبير من الموضوعات يغلب عليها الطابع التاريخى وهو أن التزم الطريقة الموضوعية ، إلا أنه حافظ أيضا على التسلسل الزمنى فبدأ المسعودى حديثه عن ذكر مبدأ الخلق وتحدث عن آدم وحواء وأولادهما ثم تحدث عن الأنبياء واحدا بعد واحد فبدأ بنوح وولديه حام وسام وأولادهما ثم تحدث عن اسماعيل بن ابراهيم ويعقوب بن اسحاق وأيوب وموسى وشعيب وهارون ويوشع وداود وسليمان ولقمان الحكيم . ثم أشار الى ملوك بنى اسرائيل بعد سليمان وتحدث عن مولد عيسى بن مريم عليه السلام ثم لخص أحداث الفترة بين المسيح ومحمد (ﷺ) فتحدث عن ذى القرنين وقصة أصحاب الكهف وحبيب النجار واهتم المسعودى بالفترة السابقة لظهور الاسلام ، فتحدث عن اليمن وتنكيل ذى نواس بالمسيحيين فى نجران باليمن بعد اعتناق هذا الملك الحميرى لليهودية ، كما تحدث المسعودى عن أبرز الشخصيات العربية فى العصر الجاهلى مثل أسعد أبو كرب الحميرى وقس بن ساعدة الأيادى وزيد بن عمرو بن نفيل وأمىة بن أبى الصلت الثقفى وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب .

٤ - ثم ترك المسعودى التاريخ جانبا وانتقل الى موضوعات يغلب عليها الطابع الجغرافى وان طعمها بجوانب تاريخية واجتماعية ودينية فبدأ هذه الموضوعات بالحديث عن أخبار الهند وملوكها ، وحكمة الهند ورأيهم فى بدء العالم ، وتحدث عن البراهمة وأشار الى الملك دبشليم وتأليف كتاب كليله ودعنه وتحدث عن صنع الشطرنج وملك كورشر ، وعادات أهل الهند فى تملك ملوكهم والاحتفال بموتهم .

ثم دخل المسعودى فى صميم الدراسات الجغرافية فوصف الأرض والبحار ومبادئ الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وترتيب الأفلاك ، وناقش رأى بطليموس فى صفة الأرض والأفلاك ومساحة الأرض ، وتحدث عن كروية البحار والأدلة على ذلك ومنزلة الأرض من الكواكب ، وختم هذا الجزء بوصف هياكل الصابئة وترتيبها على ترتيب الأفلاك السبعة وعدد المراتب الدينية لرجال النصرانية .

ثم يخصص المسعودى صفحات كثيرة للحديث عن البحار والأنهار فتحدث عن تحركات البحار وأسباب تكونها وأشاد بنهر النيل ، ثم نقد ما رده الجاحظ الذى زعم أن نهر السند يستمد من النيل ، وكتب المسعودى عدة صفحات عن أنهار جيحون وجنحس بالهند والفرات ودجلة وأنهار البصرة وتحدث بالتفصيل عن البحر الحبشى وسعته ومعادنه وخاصة اللؤلؤ والياقوت ودرس ظاهرة المد والجزر واختصاص بعض البحار بها دون غيرها ، ثم تحدث عن عدة بحار وخصص صفحات للحديث عن التين والآراء المختلفة حوله . وأشار الى أن الماء المالح أثقل من الماء العذب ، وعدد العلامات التى تدل على وجود المياه فى جوف الأرض .

وانتقل المسعودى الى تفصيل الحديث عن بلاد الصين ، فطرق جوانب مختلفة فتحدث عن ملوكهم وشعوبهم وعقد دراسة مقارنة بينهم وبين القبائل العربية ودرس تاريخ الصين وأخبار ملوكهم .

وعاود المسعودى حديثه مرة أخرى عن البحار وما حولها من العجائب والأمم وما فيها من معادن وخاصة بحار الصين والهند وفارس واليمن .

٥ - ثم طرق المسعودى عدة مواضيع مختلفة ، تجمع بين التاريخ والجغرافيا والرحلات فهو يتحدث عن المسك ، ثم عن ملوك صقلية وأفريقية قبل الإسلام ثم يصف أرض الحبشة والسودان ثم ينف قليلا عند وصف حيوان الكركند ويناقش ما ذكره الجاحظ عنه ثم تحدث عن

عادات أهل الهند ومملكة طبرستان وجبلان ، وعادة حرق الموتى ويصف
شعوب الروس والترك ويتحدث عن بعض الطيور مثل البباز والصقر
وبعض الحيوانات مثل القردة . ويشير الى كثير من الممالك القديمة وحروبها
وملوكتها ، وخاصة ملوك السريان وبابل والفرس .

ويعود المسعودى ثانية الى الاحداث التاريخية فيفصل الحديث عن
الصابئة وعبادة الكواكب وزرادشت نبى الفرس المجوسى ، ويشيد بانتصار
العرب على الفرس فى موقعة ذى قار . ثم يعهد ملوك اليونان ويفصل
الحديث عن الاسكندر ويناقش من قالوا انه ذو القرنين ويتحدث عن ملوك
اليونان بعد الاسكندر ، ثم ملوك الروم وموقفهم من المسيحية ويروى
قصة أصحاب الكهف واعتناق قسطنطين المسيحية .

وينخصص المسعودى صفحات كثيرة عن تاريخ مصر قبل الفتح
العربى فيبدأ بوصف مصر ونهر النيل ويصف الاحتفال بليلة الغطاس
وعادات المصريين فيها ويصف مقاييس النيل ومدينة الفيوم وبحيرة
قائس ودمياط . ويصف الأهرام وطريقة بنائها ويشير الى بعض
عجائب مصر ومن نزلها من أبناء نوح ويتحدث عن بعض ملوك مصر ومدنها
وبداية انتشار المسيحية فيها ويفسر كلمة فرعون ، ويفصل الحديث
عن الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها ومنازلها .

(ب) الجزء الثانى :

١ - يتحدث المسعودى فى الفصول الأولى من الجزء الثانى عن
موضوعات كثيرة متنوعة تتناول الجغرافية والرحلات يبدؤها بالحديث
عن السودان وأنسابهم وأجناسهم وملوكهم ثم يتحدث عن حيوان الزرافة،
واقليمى ملك الزنج ، وصيد الفيلة ولعب الشطرنج وأفيال بلاد الهند
ثم يصف الزبرقان بأنه (حيوان عجيب) ويتحدث عن عادات الزنج فى
لباسهم وحليهم ويتحدث عن البجة والحيش وجزيرة سقوطرة ، وينتقل
الى مصر فيتحدث عن قوص وقفت والواحات . ثم يطوف المسعودى
بالقارىء بين عدة شعوب فيتحدث عن الصقالبة ومساكنها وملوكها
وأجناسها ثم يذكر الافرنجة والجلالقة والنوكبرد وملوكها .

٢ - وينتقل المسعودى الى مواضيع تاريخية تهتد لظهور الاسلام
ويطعمها كماداته بالوان جغرافية وصور من رحلاته ومساعداته ، فيبدأ
الحديث عن عاد وثمود والنبي صالح ومكة وبناء الكعبة وتقدم ابراهيم

الخليل الى مكة وزواج اسماعيل من جرهم ، وسبب تسمية اسماعيل بهذا الاسم . ويعدد أبناء اسماعيل ويفصل الحديث عن الكعبة ومن قول الاشراف عليها من جرهم ومن أبناء اسماعيل ثم يتحدث عن سكان مكة الأقدمين مثل العماليق وطسّم وجديس . ثم ينتقل الى الفترة التي تولت فيها خزاعة الاشراف على الكعبة ويتحدث عن ظهور قبيلة قريش وبطونها وما وقع بين الأحلاف والمطيين ويتحدث عن الأيلاف والتقريش ورحلتى قريش الى الشام واليمن .

٣ - وينتقل المسعودي من هذه الدراسة التاريخية الى دراسة الجغرافية فيصف عدة أقطار هي : الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق . ويتحدث عن سكنى الجبال وتأثير البيئة الطبيعية ثم يعود الى تخصيص الحديث عن بعض الأقطار مثل خراسان وفارس وخوزستان وأرض الجزيرة والهند والصين وبلاد الروم ، ولا ينسى المسعودي أنه ينتسب الى بلاد العراق فيتحدث عن موطنه اقليم بابل ويتحدث عن الحنين الى الوطن .

٤ - ورأى المسعودي أن يفرد قسماً كبيراً من الجزء الثاني للحديث عن بلاد اليمن قبل الاسلام ، فيذكر سبب تسمية اليمن بهذا الاسم مع مقارنة بدوافع تسمية العراق والشام بأسمائها ؛ ويفصل الحديث عن العرب اليمنيين وانتسابهم الى قحطان وملوكهم الأقدمين من سبا وحير . وتحدث عن التبابعة ، وما حدث بين بلقيس وسليمان بن داود . ويروي قصة الملك ذي نواس الذي اعتنق اليهودية وقتل المسيحيين في أجاديده . وأشار الى سقوط الدولة الحميرية على يد الجيش الحبشي ، واستعانة العرب الحميريين بالفرس للخلاص من الاستعمار الحبشي .

٥ - وأراد المسعودي أن يغطي أخبار العرب قبل الاسلام فانتقل من الحديث عن اليمن الى الحديث عن امارتى الحيرة والغساسنة وعلاقتهما بالدولتين الفارسية والرومانية .

٦ - ثم عاد الى الجزيرة العربية ليتحدث عن أحوالها قبل الاسلام فبدأ حديثه ببلاد الحجاز فتحدث عن البعر ومنصب مكناهم الخيام وأشار الى أيام العرب وهي حروبهم القبلية الجاهلية وعند أديان العرب وأرخ للهجوم الحبشي على مكة بقيادة أبرهة . وتناول المسعودي بين القبائل العربية فتحدث عن عاد وثمود وجديس وطسّم وجرهم . كما تحدث عن

المدينتين الحجازيتين : الطائف ويشرب . وفصل الحديث عن عقائد العرب في الفيلان والهاتف والجن والقيافة والزجر والسانع والبسارح والكهانة والعرافة وادعاء الغيب ، ودرس هذه الجوانب دراسة علمية واهتم بالدوافع النفسية وعقد مقارنة بين عقائد العرب وغيرهم من الشعوب .

٧ - ثم خصص المسعودي صفحات عديدة للحديث عن التاريخ وتقسيمه الى سننات وشهور عند كل من العرب والفرس والاقباط والسريان مع عقد دراسة مقارنة . وتحدث عن الأعياد الفارسية والمسيحية وأسباب تسمية الشهور الفارسية والعربية والرومانية .

٨ - وانتقل المسعودي بعد ذلك الى موضوعات جغرافية فتحدث عن أقسام الأرض وعن الكواكب والجن . واثّر البيئة الجغرافية في طبائع الناس وتأثير الكواكب في حياة البشر وتوجههم بالعبادة لها ويشعة المؤرخ أنه استطرد كثيرا ؛ ولذا فهو يعتذر للقارئ فيقول انه أدرك اختلاف القراء في الطبائع وفي دوافعهم لقراءة كتابه ، فرأى أن يجمع ألوانا مختلفة من الموضوعات .

٩ - ويفصل المسعودي بعد ذلك الحديث عن الأديان فيتحدث عن ظهور الوثنية والهيكل وبيوت النار والأصنام . وعقائد الهند والصين وعبادة الكواكب وعقيدة العالم في البيت الحرام ، ودين الصابئة وعبادة النار . ثم يتحدث عن معابد وديانات اليونان والرومان والصقالبة والصينيين والفرس .

١٠ - ويمهد المسعودي للتاريخ العربي الاسلامي فليخص أحداث التاريخ منذ بدء العالم الى ظهور الرسول (ﷺ) ، ثم يبدأ السيرة النبوية فيتحدث عن مولد الرسول (ﷺ) ونسبه وكنيته ويفصل الحديث عن طفولته وصباه . ثم البعثة النبوية والمسلمين الأوائل وحديث الهجرة والجهاد والغزوات ، ثم وفاة الرسول (ﷺ) . والمسعودي في هذا الفصل يتبع المنهج الموضوعي ، الا أننا نراه بعد فراغه من دراسة السيرة النبوية يلجأ الى التاريخ بالسنين ، فقد رأى أن هناك أخبارا كثيرة عن الرسول (ﷺ) لم يدرجها في نطاق الموضوعات التي أشار إليها ؛ ولذا رأى أن يتحدث عنها متخذًا السنوات محورا لدراسته ونهج في ذلك نهجا جديدا ، فهو يقسم الأحداث على سنوات حياة الرسول (ﷺ) قبل الهجرة ، فيذكر ما حدث في السنة الأولى من مولده ثم ما حدث في السنة الخامسة ثم السادسة ثم التاسعة حتى يصل الى السنة التي هاجر الرسول (ﷺ) فيها فيتخذ السنة الهجرية محورا لأخباره .

١١ - ويبدأ المسعودي دراسته لتاريخ الدولة العربية الإسلامية ويتخذ من شخصيات الخلفاء محاور دراسته ، فيهتم بترجمة حياة الخليفة وأعماله وأحوال الدولة في عهده . وينتهي الجزء الثاني من مروج الذهب بنهاية عصر الخلفاء الراشدين الأربعة .

(ج) الجزءان الثالث والرابع :

١ - يختلف الجزءان الثالث والرابع عن الجزئين الأولين ، فهما يكادان يخلوان من الدراسات الجغرافية والحديث عن الرحلات ويجعل المسعودي الشخصيات التاريخية محورا لدراسته . ويبدأ الجزء الثالث بخلافة الحسن بن علي بن أبي طالب ثم يتحدث عن قيام الدولة الأموية . ويمضي الكتاب مع أحداث العصر الأموي حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، ويفصل المسعودي الحديث عن الخلفاء العباسيين وينتهي الجزء الثالث بنهاية عهد الخليفة العباسي السادس الأمين .

٢ - يبدأ الجزء الرابع بعهد الخليفة العباسي السابع المأمون ، ويتحدث المسعودي عن الخلفاء العباسيين حتى عهد الخليفة المطيع لله .

٣ - وينهج المسعودي منهج المؤرخين المحدثين فيضع لكتابه خاتمة طويلة . ويبدأ خاتمته بأن يربط بين ما ذكره في كتابه مروج الذهب وكتابه الآخرين « أخبار الزمان » و « الأوسط » . ويذكر أنه انتهى من كتاب مروج الذهب في جمادى الأولى سنة (٣٣٦ هـ) وتحدث عن يتولون الحكم والسلطة في هذه السنة ، وهم من الأسرة البويهية ، ويلمح باستئثار البويهيين بالنفوذ دون الخليفة العباسي المطيع .

٤ - ويحاول المسعودي أن يوضح للقارئ أنه لم يكرر في كتابه مروج الذهب ما ذكره في كتابيه الآخرين وتحدث عن أبرز ما تناوله من موضوعات في مروج الذهب فقال : « ودلنا على كتابنا هذا بقليل على الكثير ، بالخبر اليسير على الجليل الخطير ، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم يذكره في الآخر إلا ما لا يسع تركه ولم نجد بدا من إيراد ما دعت الضرورة إلى وصفه وأتيننا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا . مع ما أسلفناه في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر والعامر منهما والفاقر والملوك وسيرهم والأمم وأخبارها » .

٥ - وأبدى المسعودي أمله في أن تطول حياته فيؤلف كتابا آخر يضمه « فنونا من الأخبار وأنواعا من طرائف الآثار » ، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنع من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار ، واختار المسعودي اسما هو « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » ، ولم يتحقق أمنية المسعودي اذ وافته منيته .

٦ - عقد المسعودي في نهاية الكتاب فصلا تحدث فيه عن مدة حكم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، ثم عقد فصلا آخر عن أمراء الحج منذ عهد الرسول الى السنة التي أتم فيها كتابه .

٧ - وكانت آخر فقرات الكتاب اعتذارا من المؤلف عما يكون في الكتاب من سهو أو تصحيف أو نقص أو تغيير قد يقع فيه الناسخ لكتابه فيقول : « وقد قدمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سهو أو عرض أو تصحيف أو تغيير من الكاتب ان وقع ، ولما قد دفعنا اليه من الأسفار المتواترة والحركة المتصلة : تارة مشرقين وتارة مغربين وطورا متيامنين وطورا متشائمين ، وما يلحقنا من سهو الانسانية ويصحبنا من عجز البشرية عن بلوغ الغاية ، وتقصى النهاية ولو كان لا يؤلف كتابا الا من حوى جميع العلوم اذن ما ألف أحد كتابا ، ولا تأتي له تصنيف ؛ لأن الله عز وجل يقول : (وفوق كل ذي علم عليم) . وينهى المسعودي كتابه « مروج الذهب » بحمد الله تعالى والصلاة على النبي وآله .

مقامات بديع الزمان بديع الزمان الهمذاني

القرن العاشر / الحادي عشر الميلادي

نشأة المقامة

اختلفت الآراء في تفسير لفظة « مقامة » ويبدو أنها اكتسبت مدلولات تطورت مع الزمن .

فقد جاء في لسان العرب : المقام : موضع القدمين . والمقام والمقامة : بالضم : الإقامة والمقامة بالفتح : المجلس والجماعة من الناس .

وأطلق اللفظ أيضا على المجلس الذي تسمع فيه الموعظة : « يلقيها الرجل بين يدي الخليفة أو الأمير أو جماعة من المتأدبين ، ولا بد كي يكون لها التأثير والاقناع على السامعين من أن تعتمد مذهبا بليغا من الكلام يقرع الأسماع ويدخل الى النفس ويستهوئ القلوب ، ثم انتهت الكلمة الى معنى « موعظة » أهل الكدية حتى اتخذها الهمداني لتسمية القصص المعروفة بالمقامات » .

ثم يقول الدكتور فيكتور الكك في كتابه « بديعات الزمان الهمداني » :

« والجدير بالذكر أن معنى المقامة انحرف في القرن الثالث الهجري فتدنى الى الدلالة على كلام الشحاذين ، الذين اضطروا في توسلهم الى المحسنين بدعاءات توجيحية الى أن يستعملوا لغة مختارة منمقة . ذلك أن الثقافة الأدبية التي كانت فيما سلف من مميزات البلاطات وروادها أخذت في الانتشار بين طبقات الشعب » .

أما الدكتور زكي مبارك فقد عقد فصلا عن المقامة جاء فيه : « وأظهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع هو فن المقامات وهي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو فطرية وجدانية ، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون » .

ولشوقي ضيف رأى في هذا الموضوع جاء فيه :

« ليست المقامة قصة وإنما هي حديث أدبي بليغ . وهي أدنى الى الحياة منها الى القصة . فليس فيها من القصة الا الظاهر فقط أما في حقيقتها فحيلة يعرفنا بها البديع وغيره لتطلع من جهة على حادثة معينة ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة . بل ان الحادثة التي تحدث

للبطل لا أهمية لها اذ ليست هي الغاية . انما الغاية التعليم والأسلوب الذى تعرض به الحادثة . ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة .

فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً ، وانما هو خليط ضئيل تغشى عليه الغاية التعليمية . فالأساس العرض الخارجى ، وكان لذلك وجه من ائنفج ، فان الأدباء انساقوا الى الثروة اللفظية وأخذوا يبتكرون صورا جديدة للتعبير ، ولكن فى حدود سطحية وكأنما أجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم فلم يتجهوا بالمقامة الى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا الى الافساح للعقل كى يعبر عن العواطف ويحللها ، وانما اتجهوا بها الى ناحية لفظية صرفة اذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كل ما لفنهم من جمال فى اللغة وأساليبها . وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها .

والمقامات أقاصيص خيالية مختلفة الأغراض والموضوعات . فمنها الأدبية ، ومنها العلمية ومنها الدينية ومنها الاجتماعية أو الخلقية ومنها المجونية . وفيها سخر شديد ، ونقد لاذع ، وفيها ضروب من التخالب والاحتيال ، للتكسب والتعيش . وفيها صور متلونة لطبائع المجتمع وعاداته .

ومدار المقامات على بطل متبدل الألوان ، كثير الاحتيال ، فيه شر كبير وفيه خير كبير . فهو دين منافق ، صادق كاذب ، متزهده ماجن ، واعظ مخادع . كل شئ وضده ، وهو الى ذلك واسع العلم والأدب شاعر خطيب متكلم راوية تجده فى كل مقامة ، وقلما خلت مقامة منه ويتولى الحديث عنه راوية خيالى مثله يفاجئه فى كل مقامة ويفضح أسرارہ وينقل أخباره .

والفن القصصى ضعيف فى المقامات لقصرها ، ثم لأن القصة ليست غاية فيها بل واسطة لظهار شخصية بطلها فى مختلف أحواله ، ولقد تدر مقامات غثة باردة لا قيمة فيها للقصة البتة .

وتتمتاز المقامات فى جمال لغتها وكثرة غريبها واعتمادها على المجاز أكثر من الحقيقة واصطباغها بالصبغة أكثر من الطبع، فهي ملتزمة السجعات أنيقة العبارات حافلة بالمحسنات المعنوية واللفظية . فيها الأمثال والأشعار والآيات والأحاديث فكل مقامة قطعة أدبية لغتها لغة الشعر على الأكثر لا لغة النثر .

حياة بديع الزمان :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني المشهور ببديع الزمان . ولد في همدان (١) في يوم ١٣ من جمادى الآخرة سنة ٣٥٨ هـ - يونية ٩٦٩ م .

ويبدو أن أول من أطلق عليه لقب الهمداني الامام أبو منصور الثعالبي : « وهو أحمد بن الحسين بديع الزمان ومعجزة همدان وتادرة الفلك وبكر عطاردة وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في القريحة ، وسرعة الخاطر » .

ومن رسائله نفهم أنه من أسرة عربية استوطنت ديار العجم . وهو شديد التعصب للعرب على غيرهم إذ يقول في إحدى رسائله : « انى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وحمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » .

ومن يتصل بنسبه إلى قبيلة مضر ، وبنشأته إلى فارس لا شك سيكون نابعة عصره وزمانه . فبديع الزمان ورث الخلق العربي وعاش به في بلاد العجم فظهرت عبقريته الحارقة وذكاؤه الوقاد ، بالإضافة إلى تمازج واختلاط وتزاوج بين آباءه وأجداده العرب بين عائلات الفرس في تلك المنطقة العجمية ، كما أن أخاه الحسين بن يحيى كان مفتي البلدة .

نشأته :

اهتم أبوه بتعليمه وتثقيفه فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء في بلدته ، وتلقى على أيديهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية .

كان معلمه الأول أبا الحسين أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوي العظيم في عصره ، وقد تتلمذ ببديع الزمان عليه ونهل من فيض علمه . كما تتلمذ على ابن بكر الفراء . وتعلم دراسة الحديث والرواية .

وبقى يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتم دروسه وتحصيله من اللغة والشعر والنثر .

والامر الذي لا شك فيه أن بديع الزمان لم تكن ثقافته عربية فقط بل كانت عربية وفارسية . وهذا التضلع في الفارسية وآدابها أسدى إليه أكبر فائدة في إنتاجه العربي .

وما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى فارق مسقط رأسه
همدان سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م . فقدم على صاحب بن عباد فى الرى .

فأعجب الصاحب بذكائه وقدمه فى مجلسه وقربه منه ورأى فيه
ذكاء شديدا وذاكرة قوية . ولعل هذا الذى حمل معاصريه أمثال الثعالبى
على القول فيه : « هو من لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ،
وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ومن لم يدرك قرينه فى ظرف
النثر ، وملحه غرر النظم ونكتته ، ولم ير ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه
من لب الأدب وسره ، وجاء مثل اعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب
وبدائع وغرائب » .

لكن أواخر المودة اضطربت بين بديع الزمان والصاحب بن عباد
وقد يكون مرد ذلك الى الحسد . ولعل الصاحب تخوف من البديع .
وهو المحدث اللبق فخاف على منزلته الأدبية من أن يصبح الهمداني محور
الحلقات والمجالس .

فما كان من بديع الزمان الا أن اتجه الى جرجان وهى بلدة مشهورة
بالعلم والمعرفة ، فقيها نشأ عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الاعجاز
وأسرار البلاغة .

وهناك خالط علماءها وهم من الاسماعيلية واستفاد من علمهم
واقتبس من فلسفتهم .

ولكن اقامة بديع الزمان فى جرجان لم تكن طويلة لخلاف نشأ بينه
وبين أحد الاسماعيليين ، فاتجه الى نيسابور وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ
وهى تعد من أحسن مدن خراسان ، وكانت مجمع العلماء والفضلاء
حيث يأتون اليها من كل صوب .

وكان لبديع الزمان معركة أدبية مع شيخ كتاب عصره أبى بكر
الخوارزمى الأديب الذائع الصيت الذى طرقت آدابه أسماع الناس
برسائله وشعره ، وكان بديع الزمان شديد الرغبة فى الاتصال به راغبا
فى علمه . فكتب له رسائل فى هذا الموضوع . وقد دخل البديع الى
نيسابور رث الثياب خالى اليدين بعد أن سطا عليه اللصوص فى الطريق
وسلبوه ما يملك .

وعندما التقى البديع بالخوارزمي لم يهتم به هذا ولم يحسن لقائه كما أنه لم يعجب بكبريائه . فحصلت بينهما جفوة ومقاطعة وبغضاء واستغل بعض الناس هذه العداوة ، فهاؤا لذلك مناظرة استعمل فيها بديع الزمان قريحته وسرعة بديهته فبدا الخوارزمي منهزما أمام الناس !

لمح اسم بديع في نيسابور بعد المناظرة وذاع صيته في الآفاق وأصبح له تلامذة كثيرون فامل عليهم مقاماته المشهورة ، حيث اصطنع فيها الأساليب المنمقة من سجع وتنسيق . ولكنه لم يلبث أن ترك نيسابور رغم اشتهاره بها وعلو مكانته . فاتجه الى سجستان وكان حاكمها في ذلك الوقت الأمير خلف بن أحمد فلقى منه البديع كل تكريم فمدحه بقصائد وبست مقامات أشاد فيها بكرمه . ثم عاد يطوف في البلاد حتى استقر في هراة وهناك تزوج فيها من ابنة ابن علي الحسين بن محمد الحشنامي ، أحد أغنيائها وساداتها وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا .

شخصيته : صفاته وأخلاقه :

وصفه الثعالبي في يتيمة الدهر ، فقال : « مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصح الظرف ، عظيم الخلق شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة » .

وكثرة أسفاره تدل على طموحه لتوطيد المجد وبناء الشهرة . وقد اجتمعت فيه الصفتان : طالب علم وطالب مال .

ولم يكن الدهاء ينقص الهمداني ، فهو واسع الحيلة وكان في كل مقال يمزج ويتهمك ، فهو أناني والويل لمن يفضل الخوارزمي عليه .

كان سريع الحافظة : « انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى . وينظر في الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سردا . وهذه حالة في الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفزع منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها » .

وفاته :

وتوفي بديع الزمان في هراة يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (٣٩٨ هـ) . ويذكر ابن خلكان رأيين في وفاته : « الرأي الأول أنه مات مسموما بهراة . أما الرأي الثاني ويشاركة فيه كثيرون من مؤرخي الأدب فهو أنه أصيب بغيبوبة فظن أنه مات وعجل بدفنه فأفاق في قبره وسمع صوته في الليل فنبش عنه فوجد ميتا وقد قبض على لحيته بيده ومات من هول القبر !! » .

مؤلفاته :

مؤلفات البديع ثلاثة أنواع :

- ١ - أولها ديوان شعر ومعظمه يدور على المحسنات اللفظية والمعنوية .
- ٢ - ثانيها مجموعة رسائل نظر فيها وفسر غوامضها الشيخ ابراهيم الأحمب . وهي تدور حول أغراض هي :

(أ) المدح لأن بديع الزمان كان يتكسب بأدبه فيتذرع بالمدح والثناء حين يستجدي .

(ب) الاعتذار والاستعطاف .

(ج) العتاب .

(د) الشكوى .

(هـ) الهجاء .

(و) الود والصداقة .

(ح) النصيح والحكم .

(ط) الوصف .

- ٣ - ثالثها : المقامات المشهورة وهي اثنتان وخمسون مقامة .



تحليل مقامات البديع :

لهذه المقامات راوية خيالي يعرف بغيسى بن هشام ، رجل آخر سافر ، لا يستقر به مكان ، وربما اتخذ صفة التجار أو صفة المكيدين ، ولها بطل يعرف بابي الفتح الاسكندرزي يظهر في أكثرها وينقل أخباره غيسى بن

هشام . وأبو الفتح هذا رجل خيالي أيضا : « من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية » (٢) . صاحب خبث وحيال يصطنع جميع المهن التي يحترفها الناس من أجل الكدية وابتزاز المال . وقلما خلت مقامة من الكدية والاحتيال ، وتراه مرة شيخا جليلا وقف في الناس واعظا ينصح ويحذر ، ومرة قرادا يسلي الناس ويضحكهم ، وأخرى مشعوذا يدعى صنع المعجزات خديعة للقوم الساذجين . فيدر عليه الرزق وينتفع بشعوذته وخداعه فهو أشجع الناس وأبرعهم تسالا . وهو إلى ذلك أخطبهم وأشعرهم ، وأعرفهم بعلوم عصره . وقد اختلفت أغراض مقاماته وتنوعت أبوابها فمنها الأدبية كالمقامة الجاحظية والمقامة القريضية ، وفيها رواية وشعر ونقد . ومنها الدينية والخلقية والاجتماعية ، فمن شيخ يتظاهر بالتقوى والتنسك ليعطف عليه الناس ويعطوه . ومتسول يطوف ومعه طفل فصيح يسترق القلوب . وتاجر حديث النعمة معجب بنفسه كثير الكلام يضجر مستمعيه . ومجنون عاقل متبحر في علم الكلام ، يرد على أحد شيوخ الاعتزال . وغير ذلك مما يقع بين الناس في مصاحبتهم ومخالفاتهم .

وحوادث هذه المقامات تقع على الغالب في الأمصار المتحضرة ، وقلما عنى البديع بالكلام على أهل البادية كما في مقاماته الغيلانية ، والأسدية ، والبشرية ، والفزارية ، والأسودية ، وهي في أكثرها قصيرة ضعيفة الفن القصصي تكاد تكون غثة باردة لولا حسن الصياغة وبراعة التصرف في ضروب الكلام . وأما ما طال منها فانه جميل موزن كالمقامة المضيرية والبشرية والأسدية وسواها .

ورواية بديع الزمان وبطله لا ينحصران في زمان محدود ، فان عيسى بن هشام يحدثك في المقامة الغيلانية عن الفرزدق وذى الرمة كأنه معاصر لهما ، ثم يحدثك في المقامة الحميدانية عن سيف الدولة بن حمدان . ويحدثك عن خلف بن أحمد وكان واليا على سجستان معاصرا للهمذاني . وقد خصه البديع ببعض مقاماته وأشاد فيها بذكره وأطراه .

وسنقتصر بتحليل مقامتين من مقاماته أحدهما المضيرية ، وفيها تظهر براعة البديع في الوصف ودقة التصوير على شيء كثير من السخر وخفة الروح . والأخرى البشرية وهي التي وفق بها صاحبنا لاختراع شاعر جاهل تبناه التاريخ من بعده ألا وهو بشر بن عوانة العبدي .

نص المقامة المصيرية (٣)

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندري ، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار قدمت الينا مضية تشنى على الحضارة ، وتترجرج في الفضاورة وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، في قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندري يلعبها ، وصاحبها ، ويمقتها وأكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناها يمزح فإذا الأمر بالفساد ، وإذا المزاج عين الجذ ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الاخوان ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه (٤) وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في أثرها الفؤاد ، ولكننا ساعدناه على هجرها وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتي معها أطول من مصيبتى فيها ، لو حدثتكم بها لم آمن المقت واضاعة الوقت ، قلنا : هات .

قال : دعاني بعض التجار الى مضية وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى أن أجبته اليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يشنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ، ويقول : يا مولاي ، لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهي تلور في الدور ، من التنور الى القنور ، ومن القدر الى التنور ، تنفث فيها النار ، وتلق بيديها الابزار . لو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته ، وأن يسعد بطبعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته . وهي ابنة عمى لحا . طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وارومتها أرومتى . لكنها أوسع منى خلقا ، وأحسن خلقا ، وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته . ثم قال : يا مولاي ، ترى هذه المحلة . هي أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها ، ويتفاير الكبار فى حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجوار . ودأرى فى السطة (٥) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟ قلته تخميننا ، أن لم تعرفه يقينا . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ، وتنفس الصعداء ، وقال سبحانه من يعلم الأشياء .

وانتهينا الى باب داره . فقال : هذه دزى كم تقدر يا مولاي ، أنفقت على هذه الطاقة ؟ . أنفقت والله عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرايت بالله مثلها ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وانظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب . اتخذته من كم ؟ قل : ومن أين أعلم . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض (٦) ولا عفن . اذا حرك أن ، واذا نقر طن . من اتخذته يا سيدي ؟ اتخذته أبو اسحق بن محمد البصري ، وهو والله رجل نظيف الأثواب . بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل . لله در ذلك الرجل ! بحياتي لا استعنت الا به على مثله .

وهذه الحلقة تراها ؟ اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزية ، وكم فيها يا سيدي من الشبة ؟ فيها ستة أرتال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله دورها ، ثم انقرها وابصرها ، وحياتي عليك لا اشتريت الحلق الا منه فليس يبيع الا الأعلاق .

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يادار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمنن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟ كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره انوزن ، مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزقه بين النرد والقمر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، الى بيع الدار فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأنقطع عليها حسرات الى يوم الممات ، فعدت الى أثواب لا تنض (٧) تجارتها ، فحملتها اليه وعرضتها عليه ، وساوته على أن يشتريها نسية (٨) والمدير يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فأتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ووثيقة فى يدي ففعل . ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاي ، انى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه اذ قرع علينا الباب . فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل . فى جلدة ماء ورقة آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها أخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ،

وسيكون له نفع ظاهر وربح وافر ، بعون الله ودولتك . وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبسط الماء من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصديق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك . اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد . والدهر جلى ليس يدري ما تلد . ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق . وهذا يعرض فى الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا دينارا . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعتة ولونه فهو عظيم القدر لا يقع مثله الا فى الندر . وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا توجد أعلاق الحصر الا عنده . فبحياتى لا اشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، ولا سيما من تحرم بخوانه .

ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطست والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج . وتقدم الغلام فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رومى الأصل عراقى النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل الغلام ذلك وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخاس . وضع الطست ، وهات الابريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر الى هذا الشبه (٩) ، كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شبة الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان (١٠) الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته ! اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الابريق ، فقدمه ، وأخذه التاجر فقلبه ثم قال : وأنبويه منه . لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست ، الا فى هذا البيت . ولا يجل هذا البيت الا مع هذا الضيف .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيبي البلور ، استقى من الفرات واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدفعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الاناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصديق من نظافة شرابه . وهذا المنديل ! سلنى عن قصته . فهو نسج جرجان وعمل ارجان ، وقع الى فاشتريته ، فاتخذت امرأتى بعضه مندبلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزته .

ثم رددته في السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخرته للظروف ،
من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لما فيها ، فلكل
علق يوم ولكل آلة قوم .

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصصاع ، فقد طال
المصاع (١١) . والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه
التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجبه بالأسنان ، وقال : عمر الله
بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ،
وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل فمتى الأكل ؟ فقال :
الآن عجل يا غلام ، الطعام . لكن الخوان قوائمه منه .

قال أبو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : لقد بقي الخبز وآلاته ،
والخبز وصفاته والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكرى لها
حملا ، وفي أي رحى طحن ، واجانة (١٢) عجن ، وأي تنور سجر ، وخباز
اساجر ، وبقي الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صنف حتى
جفف وحبس ، حتى يبس . وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ،
والدقيق ومدحه ، والحمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السكرجات (١٣)
من اتخذها ، وكيف انتقذها ، ومن عملها ، والخل كيف انتقى عنه ،
واشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبه . وكيف
قير حبه (١٤) ، وكم يساوى دنه ، وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف ،
وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف
اشترى لحمها ، وفي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت
أبزارها ، حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم .

فقلت فقال : أين تريد ؟ فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يا مولاي
تريد كنيفا يزري بربى الأمير ، وخريفى الوزير ، قد جصص علاه
وصهرج أسفله ، وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه
الذر فلا يعلق ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه (١٥)
من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل
فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو
يتبعنى ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى
فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل .

الحجر بعمامته فقاص في هامته . فأخذت من النعال بما قدم وحدث ،
ومن الصنع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك
النحس ، فنذرت أن لا أكل مضيرة ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل همدان
ظالم ؟

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديما
جنت المضيرة على الأحرار ؛ وقدمت الأراذل على الأخيار .

تحليل المقامة المضيرية :

يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها بإسناد الحديث الى
راويته : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتوح
الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه
وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت اليها مضيرة » . وبعد أن وصف
المضيرة وقصعتها وشغف المدعويين بها قال : « قام أبو الفتوح الاسكندري
يلعنها وصاحبها ويمقتها وآكلها ... ورفعناها فارتفعت معها القلوب
وسافرت خلفها العيون وتحلبت لها الأفواه وتلمظت لها الشفاه » . وسئل
أبو الفتح عن أمرها ، فأخبر أنه دعاه بعض التجار في بغداد الى المضيرة
فصار معه الى بيته وطفق التاجر وهو في الطريق يصف زوجته حتى
ينتهي هذا المشهد بقول أبو الفتح : « وصعدني بصفات زوجته حتى
انتهينا الى مخلته » فشرع التاجر يصف المحلة وعظمة دورها وجعل داره
كالجوهرة الوسطى من العقد . وانتهيا الى باب الدار . فوقف يصف
طاقتها فبايها فحلقة الباب . ودخلا الدهليز فجار التاجر بالدعاء :
« عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار » . وشرع يقص على أبي الفتح
كيف امتلك الدار وممن اشتراها ، ثم استطرد الى ذكر حظه الحسن فذكر
خبر عقد من اللؤلؤ اشتراه بثمن بخس ، حتى اذا انتهى عاد الى داره فروي
حادثه حصر اشتراه بالمناداة ونعت صانعه ونصح لأبي الفتح أن يشتري
الحصر من عنده . ثم عاد الى حديث المضيرة فطلب من الغلام الطست
والماء . فقال أبو الفتح : « الله أكبر ربما قرب الفرج وسهل المخرج »
وما أن أقبل الغلام حتى شرع التاجر يعرض أوصاف الابريق فالماء
فالمنديل ودعا بالخوان ؛ فجاء به الغلام فراح يقلبه وينقره بالبنان ويعجبه
بالأسنان ويقص قصته وينعته أحسن النعوت فجاشت نفس أبي الفتح
وقد تحقق له أن التاجر سيصف كل شيء يعرض على الخوان ويذكر كيف
اشتراه ومن أين اشتراه . ومن حينئذ فحاول الانصراف تخلصا ، فظلمه
التاجر يريد الخروج في حاجة نفسه فأنبرى يصف له الكنيف وجسده

الى أن قال : « يتمنى الضيف أن يأكل فيه ! » . قال أبو الفتح : « فقلت : كل أنت من هذا الجراب لم يكن الكنيف في الحساب وخرجت نحو الباب وأسرعت في الذهاب وجعات أعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه : فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر فلقى رجل الحجر بعمامة فغاص في هامته فأخذت من النعال بما قدم وحدث ومن الصفع بما طاب وخبث وحشرت الى الحبس فأقمت عامين في ذلك النحس فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت » .

فهذه المقامة من أبدع ما صنع الهمذاني ففيها جمال القصص وروعة الفن ودقة الوصف وحسن الانتقال ، واتساق الأفكار وفيها السخر والفكاهة والنكتة ، ولو وفق البديع في جميع مقاماته توفيقه فيها يبلغ في هذه الصنعة غاية الغايات .

نص المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال : ما رأيت كاليوم . فقالت :

أهجب بشرا محورا في عيني وساعد أبيض كاللجين
ودونه مسرح طرف العين خمصانة (١٦) ترفل في حجلين
أحسن من يمشى على رجلين لو ضم بشر بينها وبينى
أدام هجرى وأطال يمينى ولو يقيس زينا بزيمى
لأسفر الصبح لذى عينين

قال بشر : ويحك . من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة فقال : أمى من الحسن بحيث وصفت ؟ . قالت : وأزيد أو أكثر فأنشأ يقول :

ويحك يا ذات الثنايا البيض ما خلتنى منك بمستعيض
فالآن اذ لوحى بالتعريض خلوت جوا فاصفرى وبيض
لا ضم جفناى على تغميض فما لم أشل (١٧) عرضى من الحضيض
كم خاطب فى أمرها ألحا وهى اليك ابنة عم ألحا

ثم أرسل الى عمه يخطب ابنته ومنعه العم أمنيته فألى ألا يرعى (١٨)
على أحد منهم ان لم يزوجه ابنته ، ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معرفته
اليهم فاجتمع رجال الحى الى عمه وقالوا : لا تلبسونى عارا وأمهلونى
حتى أهلكه ببعض الحيل فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمه : انى آليت
أن لا أزوج ابنتى هذه الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها
الا من نوق خزاعة ، وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين
خزاعة فيفترسه الأسد ، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق
وكان فيه أسد يسمى اذا وحية تدعى شجاعا يقول فيهم قائلهم :

أفتك من داذ ومن شجاع ان يك داذ سيد السباع
فانها سيدة الافاعي

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق فما نصفه حتى لقي الأسد وقمص
مهرة فنزل وعقره ، ثم اخترط سيفه الى الأسد واعترضه ، وقطه (١٩)
ثم كتب بدم الأسد على قميصه الى ابنة عمه :

أفظم لو شهدت ببطن خبت	وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
اذا لرأيت ليثا زار ليثا	هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس (٢٠) ثم أحجم عنه مهرى	محاذرة فقلت : عقرت مهرا
أنل قدمى ظهر الأرض أنى	رأيت الأرض أثبت منك ظهرا
وقلت وقد أبدى نصالا	محسدة ووجها مكفها
يكفكف غيلة احدى يديه	وييسط للوثوب على أخرى
يدل بمخلب ويحد فاب	وباللحظات تحسبهن جمرا
وفى يمناي ماضى الحذ أبقى	بمضربه قراع الموت أثرا (٢١) :
ألم يبلغك ما فعلت طلباه	بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبى مثل قلبك ليس يخشى	مصاولة فكيف يخاف ذعرا
وأنت تروم للأشبال قوتا	وأطلب لابنة الأعمام مهرا
فقيم تسوم مثلى ان يولى	ويجعل فى يدك النفس قسرا
نصحتك فالتمس ياليت غيرى	طعما ان لحمى كان مرا
فلما ظن أن الغش نصحى	وخالفنى كأنى قلت هجرا
مشى ومشيت من أسدين راما	مراما كان اذ طلباه وعرا
هزرت له الحسام فخلت أنى	شقت به لدى الظلياء فجرا

وجدت له بجائشة أرتة بأن كذبتة ما منتة غدرا
وأطلقت المهند من يميني فقد له من الأضلاع عشرة
فخر مجدلا بدم كاني هدمت به بناء مشمخرا
وقلت له يعز على أني قتلت مناسبي جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمني فرارا لعمر أبيك قد حاولت نكرا
فلا تجزع فقد لاقيت حرا يحاذر أن يعاب فمت حرا
فإن تك قد قتلت فليس عارا فقد لاقيت ذا طرفين حرا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على ما منعه تزويجها وخشى أن تفتاله
الحية فقام في أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية . فلما رأى عمه أخذته
حمية الجاهلية فجعل يده في الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشر الى المجد بعينه همه لما رآه بالعراء عمه
قد ثكلته نفسه وأمه جاشت به جائشة تهمة
قام الى ابن للفلا يؤمه فغاب فيه يده وكمه
ونفسه نفسى وسمى سمة

فلما قتل الحية قال عمه : اني عرضتك طمعا في أمر قد ثنى الله
عناني عنه ، فارجع لأزوجك ابنتي . فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخرا
حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا في سلاحه فقال بشر : يا عم
اني أسمع حس صيد ، وخرج فاذا بغلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك
يا بشر ، ان قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا ! أنت في أمان ان
سلمت عمك فقال بشر : من أنت لا أم لك ؟ قال : اليوم الأسود والموت
الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك من سلحتك (٢٢) فقال : يا بشر ومن
سلحتك .

وكرر كل واحد منهما على صاحبه فلم يتمكن بشر منه وأمكن الغلام
عشرون طعنة في كلية بشر كلما مسه شبا السنان (٢٣) حماء عن بدنه
إبقاء عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى أليس لو أردت لأطعمتك أنياب
الرمح ؟ ثم ألقى رمحه واستل سيفه فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض
السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب
في أمان ، قال : نعم ولكن بشرطة ان تقول لي من أنت فقال : أنا ابنك .

فقال : يا سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنى لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك انعصا من هذه العصية (٢٤) هل تلد الحية الا الحية
وحلف لأركب حصانا ولا تزوج حصانا (٢٥) ، ثم زوج ابنة عمه
لابنه .



تحليل المقامة البشرية :

تمتاز هذه المقامة عن سائر أخواتها من مقامات بديع الزمان فى أنها
اصطنعت شاعرا لم تعرفه القرون الحالية ، وزفتة الى تاريف الأدب فاحتفل
به المؤرخون وأعظموا شأنه ولم يجدوا مشقة فى تحديد عصره فجعلوا
وفاته فى أواخر القرن السادس للمسيح . وهذا الشاعر هو بشر بن
عوانة العبدى .

لم يعتمد البديع الصنعة فى هذه المقامة ولا التزم السجع والتزيين،
بل تركها تجرى مع الطبع فبعد بها شيئا عن انشاء المقامات . فكأنه وهو
ينحدث عن شاعر فى الجاهلية ، أبى الا أن يجعل كلامه ملائما لعصر
شاعره . وهذا من بعض حسناته إلا أنه لم يتأت له أن يبعد بقصته عن
الاعراب فهى على لطفها وفكاهتها وحسن سياقها ، فيها أشياء كثيرة لا يطمئن
اليها العقل ولا يسلم بها المنطق . ولو لم تتخذ هذه المقامة تاريخا لحياة
شاعر حقيقى ، لما عنيينا بنقد ما فيها من الاعراب لأنه مستملح فى قصص
خيالية كالمقامات .

لا يظهر فى هذه المقامة أبو الفتح الاسكندرى، الا أن عيسى بن هشام
يروىها وهو من عرفت وأولها : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر
ابن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها
وقال : « ما رأيت كاليوم » . فأنشدته السبية أبياتا وصفت بها جارية
حسنة وقال بشر : « ويحك من عنييت ؟ » فقالت : « بنت عمك فاطمة » .
فقال : « أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ » قالت : « وتزيد وأكثر » .
فنرى ان بشرا لم يعرف أن له بنت عم حسنة الا من امرأة غريبة سبها
فى إحدى غاراته فلما عرف ذلك مل جانبها وطلقها : « ثم أرسل الى عمه

يخطب ابنته ومنعه العجم أمنيته فآلى ألا يرعى على أحد منهم أن لم يزوجه ابنته . ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معراته (٢٦) اليهم . فاجتمع رجال الجحى الى عمه وقالوا : « كف عنا مجنونك » . فقال : « لا تلبسونى عارا وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الجليل » . فقالوا له : « أنت وذاك » . ثم قال له عمه : « انى آليت أن لا أزوج ابنتى هذه الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها الا من نوق خزاعة » . وغرض العجم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة فيفتريه الأسد ؛ لأن العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسد يسمى اذا وحية تدعى شجاعا - كما أسلفنا القول - .

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق ، فما نصيفه حتى لقي الأسد وقمص مهره (٢٧) فنزل وعقره (٢٨) ثم اخترط بسيفه الى الأسد ، واعترضه وقطعه ثم كتب بدم الأسد على قميصه الى ابنة عمه : « أفاطم لو شهدت . . . » .

وهذه القصيدة شهيرة متداولة وفق فيها بديع الزمان كل التوفيق فقد ضمنها دقة الوصف وجمال التصوير وأفرغها فى قالب شائق متخير الالفاظ منسجم التعابير . ولكنها على طبيعتها وجزالتها تنهاى سلاسة ورقة ووضوحا فتجعلك تشك فى جاهليتها لأن الشعر الجاهلى مهما سهل ولان ، لا يخلو من خشونة البداوة وغموض بعض التراكيب ولا سيما شعر قيل فى وصف الوحوش والابل والقفار ، فان عاطفة الجاهلى تتصلب فى مثل هذه الحالات فتصلب معها ألفاظه ، وبوسعك أن تلمس أية قصيدة جاهلية شئت فترى اختلافا بينا فى لغتها اذا اجتمع من أغراضها الغزل والاستعطاف أو الرثاء الى وصف الوحوش والابل والقفار . ومعلوم أن بشرا من صعاليك العرب وهؤلاء يعيشون فى البرارى المقفرة ولا يخالطون غير الوحوش فيصبحون من الخشونة على جانب عظيم . وتخشوشن معهم لغتهم . ولنا فى شعر الشنفرى وتأبط شرا أمثلة صادقة للغة أولئك الصعاليك . أما قصيدة بشر فحضرية أكثر منها بدوية وليس ورود بعض الغريب فيها بدليل على جاهليتها وهو قليل تافه لا تأثير له فى أثبات اللفظ المانوس .

وأرسل بشر القميص الى ابنة عمه لتقرأ القصيدة ولا تعلم من كان رسوله اليها ، لأن صاحب المقامات لم يذكره ولا ذكره من أرخ بشرا بعده . غير أننا نعلم أن بشرا ذهب يطلب النوق منفردا وسلك طريقا تحامت عنه العرب .

ولكن وصلت القصيدة الى ابنة عمه . وقرأها عمه ففاضت عاطفته فجأة واحتل حب بشر قلبه على حين غرة وندم على ما فعل وخشى أن تغتاله الحية فجاء في أثره مخاطرا بنفسه : « وبلغه وقد ملكته سورة الحية » (٢٩) . وادراكه اياه على هذه الصورة يجعل القصة أشد تأثيرا في النفس . « فلما رأى عمه أخذته حمية البجاهلية فجعل يده في فم الحية وحكم سيفه فيها » .

وكان ختام هذه القصة أطروفة في غاية اللطف والفكاهة ، بينة الاغراب والاصطناع : « فلما رجع جعل بشرا يملأ فمه فخرا حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا في سلاحه فقال بشر : « يا عم انى أسمع حسن صيد » وخرج فاذا بسلام على قيد (٣٠) . فقال : « ثكلتك أمك يا بشر أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا : أنت في أمان ان سلمت عمك » . فبارزه بشر فقهره الغلام ولو شاء لقتله . ثم قال : « يا بشر سلم عمك واذهب في أمان » . قال : « نعم ولكن بشرطة أن تقول لى من أنت ؟ » فقال : « أنا ابنك » فقال : « سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فانى هذه المنحة ؟ » فقال : « أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك » . فقال بشر :

« تلك العصا من هذه العصية هل تلد الحية الا الحيه ؟!
وحلف لأركب حصانا ولأتزوج حصانا ثم زوج ابنة عمه لابنه » .



منزلة بديع الزمان :

قال الثعالبي : « هو بديع للزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد وفرد الدهر وغرة العصر » .

وفى هذه النعوت ما يدل على شدة اعجاب صاحب اليتيمة به ولم ينفرده بهذا الاعجاب أبو منصور وحده ، بل شاركه فيه جمهرة المتأدبين فى عصره وبعد عصره . وحسب البديع منزلة أن ينتظم له حزب يلف لفه وهو ما برح فتى غض الشباب : فقد علمت كيف انشق الناس شطرين بعد مناظرته لأبى بكر وكان الشطر الأعظم بجانبه يشد أزره ويفضله

على خصمه وقد استحق صاحبنا هذه المنزلة بذكائه النادر وسرعة خاطره واستبحاره في اللغة وآدابها وبلاغة انشائه وحسن مائه وروائه ، وطول باعه في الوصف والتصوير ودقة نظره في مراقبة الأشياء وبراعته في التوليد والابتكار وهو خير مصور للحياة في لذتها وألمها ، ولأخلاق الناس ولا سيما المحتالون الذين يتوسلون الحيل لابتزاز الأموال ، وأول من ابتكر فن المقامات فترسمه فيه أخلاقه فنحتوا من صخره واغترفوا من بحرهِ . وكفاه فخرا أنه خلق لتاريخ الآداب شاعرا خدع به صياغة الأدباء . فرووا شعره وأثبتوا خبره وظل حديث المجالس وحلقات الطلب زهاء عشرة قرون ، وبديع الزمان أحد زعماء الأسلوب المنمق وأبعدهم صيتا وأوسعهم شهرة وأنبههم ذكرا ! .



الهوامش

- (١) همذان : مدينة جبلية بفارس • تقع غربى طهران • كانت لها مكانة علمية وأدبية • وقد تخرج منها كثير من أدباء القرن الرابع الهجرى •
- (٢) الأسكندرية : ثغر - ثغور الأندلس •
- (٣) المضيرية : نسبة الى المضيرة • وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض •
- (٤) سال لعابها •
- (٥) الوسط •
- (٦) المأروض : الذى أكلته الأرض •
- (٧) كاسدة •
- (٨) بيع بثمن مؤجل •
- (٩) الشبة : النحاس الأصفر أو البرونزى •
- (١٠) الرث البالى •
- (١١) المجالدة والمقاتلة •
- (١٢) المكن الذى يعجن فيه •
- (١٣) أنية الطعام •
- (١٤) كيف اتصلت به بالشراء •
- (١٥) فواصله •
- (١٦) خمصانة : ضامرة •
- (١٧) أشل : أرفع •
- (١٨) يبقى •
- (١٩) قطعه عرضا •
- (٢٠) تبختر •
- (٢١) الأثر : يضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف •
- (٢٢) من ألفتك - من بطنها •
- (٢٣) شبا السنان : حده • •
- (٢٤) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمها •
- (٢٥) الحصان : بفتح الحاء المراء العفيفة •
- (٢٦) معراته : أنياته ، واحدتها معرة •
- (٢٧) قمص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وعجن برجليه من الفزع •
- (٢٨) عقره : قطع قوائمه •
- (٢٩) سورة الحية : سطوتها وحدتها •
- (٣٠) القيد : المقدار • والمراد على قيد رمح أو ميل أى مقدار طوله •

الدیکھا میرون
بوکامشیو
القرن الرابع عشر الميلادی

بوكاشيو الضاحك الباكي

بوكاشيو كان أول من نبغ بين الكتاب الايطاليين فى النشر القصصى، بل ان كثيرا من النقاد يذهبون الى أنه لا يزال حتى يومنا هذا رب القصة القصيرة وسيدها .



والحق أن قصص الديكاميرون ممتعة تشتمل على كثير من مواقف الجد والهزل : فيها سخرية بالقساوسة والرهبان الذين غصت بهم العصور الوسطى ، وفيها أصول لكثير جدا من الملاحى التى جرت بها أقلام الكتاب المسرحيين ، وفيها بهجة ومرح ومجون . ولعل خير ما يوصف به هذا الكتاب هذه العبارة الموجزة الجامعة التى اختارها له مترجمه الى الانجليزية قبل القرن السابع عشر وهى : « نموذج للمرح والبديهة الحاضرة والفصاحة وحسن الحديث » فموضوعات هذه القصص من التنوع والتباين بحيث لا تجد لها فى ذلك ضريبا ، فمنها ما يخوض فى مهاترات الحمقى ومنها ما يستدر أرق العواطف وأرقاها ، وبعضها يخرج على حدود العرف الاجتماعى ، بحيث لا يصلح أن ينشر اليوم فى مجلة تطالعها عامة الناس؛ ولكنك لن تجد فى هذه القصص المائة واحدة قد زلت فيما يزل فيه الكثير من الآثار الأدبية وهو جمود العاطفة وبرودها .

ان من الآثار الأدبية ما يصور للانسان مثله الأعلى ليجتذبه نحوه ، ومنها ما يصور له عيوبه ليضحكه من نفسه فالكوميديا الالهية لدانتى من الضرب الأول والديكاميرون لبوكاشيو من الضرب الثانى ، ان الانسان حيوانى طموح تراه دائما يزخرف حقائق طبيعته بأوهام ؛ ليتوهم أنه كامل أو مقترب من الكمال ، ولذا تراه أحيانا يبذل مجهودا محمودا محاولا أن يحيا وفق أوهامه لعله يدنو فعلا مما رسمه لنفسه من مثل أعلى ، لكنه كثيرا ما يفشل ضعفا وعجزا ، فيجد العزاء والسلوى حين يقرأ كتابا كالديكاميرون يذكره بأن فى الناس آلافا يماثلونه ضعفا ونقصا .

ان الكوميديا الالهية تمثل ذروة ما بلغه الأدب فى العصور الوسطى وان الديكاميرون يمثل البادرة التى بشرت بالنهوض والاحياء فمن أين

أتى هذا الخلاف ؟ هو فى أن الكوميديا الالهية تهيب القارىء لحياة الآخرة بينما أريد بالديكاميرون أن يعد الانسان نفسه للحياة على هذه الأرض .
وها هنا يقع الفارق بين روح العصور الوسطى وروح العصر الحديث .

ان الديكاميرون من أكثر الآثار الأدبية ميلا الى تصوير الواقع من غير تأثير بالميل والهوى ، فأدبه موضوعى متطرف اذ لا تلمس شخصية المؤلف فى أى موضع من الكتاب ولا هو يلون القصة بميوله الخلقية فالحكايات تروى من وجهة نظر انسان متفرج ، يقص علينا أن شيئا معيناً وقع على نحو معين ، دون أن يضيف الكاتب عاطفته من اشفاق أو تأنيب ؛ لذلك ترى بعض ما يثير الأسى والحزن فى شخصيات القصة يثير فينا الضحك ، وهذا تصوير دقيق لما يحدث فى الحياة الواقعة . فقد يحب فتى فتاة وتقوم فى وجهه عقبات تستدعى منه سلوكا معيناً فيه غرابة فمثل هذا السلوك فى عين صاحبه فرض محتوم عليه لا قبل له برده ، ولكنه حين يروى لنا قد نراه مضحكا . واذن ، فالقصة الواحدة قد تضحك وقد تبكى حسب أسلوب روايتها ، وقد حكى بوكاشيو حكايته على نحو يثير فى قارئه الضحك من ضعف الانسان ؛ لأنه حكى الواقع والواقع أكبر المهازل .

كان بوكاشيو مبتكرا لبعض حكاياته ، لكنه لم يصنع فى بعضها الآخر غير الصياغة والتعبير ، اذ كان منها ما هو شائع يحكيه الناس بعضهم لبعض ومنها ما ترجمه عن الخرافات الفرنسية القديمة . ومهما يكن من أمر مصادر الكتاب ، فقد أصبح الديكاميرون جزءا من الأدب العالمى ولا يزال الشعراء الانجليز من أقدمهم الى أحدثهم يردون حوضه الغزير ويستقون منه ، وقد ترجم الى اللغات الأوروبية وظهرت أول ترجمة انجليزية له فى سنة ١٦٢٠ وقد تم نقله الى الانجليزية حديثا ، كما نقلته الكاتبة القصصية « فرانسز ونور » .

ذلك هو كتاب ديكاميرون الذى قال عنه أحد النقاد ان الأدب قد انفل به « من منطقة ما وراء الطبيعة والقصة الرمزية واللاهوت وأخذ يخيا حياة جديدة وفق الأصول الكلاسيكية القديمة التى تعمل على تقليد الطبيعة تقليدا مباشرا » .



ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣ لآب كان يشغل منصبا على كثير من الوجاهة واليسار ، فقد كان فى مقدمة رجال التجارة فى مدينة فلورنسا ، فى وقت كانت تسود المدينة فيه جماعة من الطبقة الوسطى أثرت فأزاحت الطبقة العليا عن عرشها ، وقضت أعمال التجارة أن يذهب

الوالد الى باريس في رحلة قصيرة فالتصنت الأسباب بينه وبين امرأة فرنسية وكان جيوفاني ثمرة ذلك الاتصال تم عائد الوالد مع وليده الى بلده فلورنسا .

ولما شب الغلام أراد أبوه أن يعلمه التجارة وشؤون المال فأرسله الى نابولي ؛ ليمارس تلك الأعمال في أحد أفرع تجارته الممتدة الأطراف ، غير أن بوكاشيو الصغير لم يتعلم شيئا عن البيع والشراء ، اذ لم تصادف التجارة من نفسه الا نفورا ؛ لكنه وجد الحياة هنالك زاخرة فعب منها عبا وقد قال بوكاشيو في نابولي اذ ذاك : « انها مدينة بهيجة غنية فاخرة تفوق سائر المدن الايطالية جميعا يملؤها اللهو واللعب وأسباب المرح معبودة الناس ، فقد بلغت الأخلاق فيها غايتها من الانحلال وانغمس الناس في المجون ، حيث جاز أن ينازع الملك « روبرت الحكيم » رجلا من أهل نابولي في أبوة طفلة ولدتها زوجة ذلك الرجل !! »

وشاء القدر أن تكون هذه الطفلة أشد المثيرات الوجدانية في حياة بوكاشيو ، فقد شهد بها في الكنيسة لأول مرة وكانت عندئذ في عامها السابع عشر تصغره بعام واحد وكانت قد تزوجت قبل ذلك بعامين ، فأحبها للنظرة الأولى وأخذ يحقق فيها حتى اضطرت الفتاة الى أن تسدل على وجهها قناعها ، على أنه لم تمض أيام حتى توثقت بينهما الصلات وهي التي أشار اليها بوكاشيو في حكاياته باسم « فيامتا » ، وما مضت على حبهما عشر سنوات حتى قضى عليها « وباء الطاعون » ، ثم لم يلبث أن ألت به ملامة أخرى وهي أن أباه أضاع كل ماله فهوت الأسرة كلها في مسغبة ، ردت عنها الأصدقاء فلما أثقل الهم قلب بوكاشيو ، حج الى قبر فيرجيل وهنالك قطع على نفسه عهدا أن يهب حياته للأدب .

وأول ثمراته في الأدب قصيدة « فيلوستراتو » التي تتكون كل مقطوعة فيها من ثمانية أشطر وقد نسج على منوالها « تشوسر » قصته « ترويلس وكرسدا » ، وكذلك أثر حبه للأدب أثرا أدبيا آخر هو قطعة نثرية عنوانها « فيلوكولو » كتبها ليدخل السرور على قلب حبيبته ثم قصة « فيامتا » التي قيل عنها انها أول قصة تحليلية عرفت في الآداب الأوروبية وهي تعالج عواطف الزوجة التي هجرها الحبيب . وبعدئذ أنشد قصيدة « ننفيل فيسولو » التي قال عنها انها خير ما أنشد من شعر .

ولم يمض طويل زمن بعد موت حبيبته « فيامتا » حتى عاد بوكاشيو الى فلورنسا ، وأخذ في انشاء آيته الكبرى وهي كتاب « ديكاميون » .

وبعد أن فرغ بوكاشيو من كتابه ديكاميون بلهجته التسكانية ، حدث أن ذهب الى « يادوا » مبعوثا من جمهورية فلورنسا ليعيد بترارك من منفاه ، وكان بوكاشيو قد حفظ أغاني بترارك عن ظهر قلب وأعجب به منذ الصبا فلما التقى بترارك وجلسه مشتغلا بأحياء اللاتينية واليونانية القديمتين ، أحياء جعله أبا للنهضة الأدبية غير مدافع وقد تأثر به بوكاشيو فأمسك عن الكتابة باللهجة التسكانية ليكتب باللاتينية كتابة العلماء . ومما نذكره عن بوكاشيو أنه هو الذي أضاف الى عنوان ملحمة دانتي لفظة « الالهية » فأصبح « الكوميديا الالهية » كما هو اليوم .

ومات بوكاشيو في ديسمبر من سنة ١٣٧٥ وهو في عامه الثاني والستين بعد أن أنفق أواخر أعوامه في فاقة مريرة ، وحزن أليم ، لكنه كان قد شق طريق الخلاص من العصور الوسطى وقد كان في أوله طريقا ضيقا وعرا ، فهو ضيق لأن الرائد الأول كان لابد له أن يحصر انتباهه في البقعة التي أمامه ؛ ولذلك جاء كتاب بوكاشيو صورة لمكان بعينه وزمان بعينه حتى ليصح أن يقال عنه أنه يصور إيطاليا في القرن السابع عشر وهو وعرا لأن تفتيت الصخر عمل مجهد شاق ؛ لكن الطريق الجديد سلك بالنزعة الجديدة عبر جبال الألب الى مسالك فسيحة طيبة هي آفاق الأدب الأوروبي الحديث .



الكتاب

أتم بوكاشيو الديكاميون فيما بين عامي ١٣٤٨ - ١٣٥٣ م ، مستوحيا فترته من وباء الطاعون الذي حل بفلورنسا عام ١٣٤٨ ، يصدر بوكاشيو كتابه بوصف مؤثر لذلك الوباء الممصر الذي كان يفتك بالسكان فتكا ذريعا ، حتى يمهّد الى اجتماع شمل الأبطال الذين تروي القصص على لسانهم وهم سبع فتيات حسان وثلاثة شبان فروا الى مكان آمن للنجاة من الطاعون ، وأخذوا يسلون أنفسهم طوال عشرة أيام برواية القصص فيروي كل واحد من منهم قصة كل يوم بحيث يتألف من الأيام العشرة مائة قصة هي قوام ذلك الكتاب الخالد الذي أمتع القراء في العالم لمدة ستة قرون ولا يزال حتى يومنا هذا مادة ممتعة تحتل مكانة ممتازة في جميع آداب العالم بعد أن ترجم الى مختلف اللغات .

ورغم أن بوكاشيو لم يعن حينذاك بأن يقرن ذلك العمل باسمه ،
الا أن الديكاميرون كان السبب المباشر فيما أحرزه بوكاشيو من شهرة
واسعة .

مقدمة الديكاميرون :

يستهل بوكاشيو الديكاميرون بفصل افتتاحي ، يمهّد به للقصص
المائة التي تروى على لسان الأبطال الذين اختارهم ويصف كيف اجتاح
وباء الطاعون مدينة فلورنسا عام ١٣٤٨ ، فأصبحت معزولة عن العالم بعد
ازدهارها وكيف تفشى فيها المرض بحيث أصبح الموت هو القدر المحتوم
لكل من ابتلى بالداء الويل ، فما تكاذ البقع القرمزية تظهر على البدن
حتى يموت المريض في غضون ثلاثة أيام .

« عم المدينة الرعب والكرب والفوضى وأهملت كافة القوانين من
وضعية وسماوية وأصبح كل فرد من أهالي فلورنسا يفعل ما يشاء ،
واقترح سفلة القوم قصور الأثرياء ليعيشوا عيشة ترف ورخاء ، زاعمين
أنه ما دامت النجاة من الطاعون أمرا مستطاعا ، فلا أقل من أن يلقوا الموت
وهم يرفلون في حلل النعيم .

وفضل البعض الآخر أن يحيا بمعزل عن العالم فأغلقوا الأبواب على
أنفسهم ليعيشوا على الطعام المخزون ، وهجر بضعة آلاف من السكان
بيوتهم ليعيشوا في الريف ، تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع
وثروات وأهل وأحباب .

« كان الأخ في ذلك الحين يفر من أخيه والزوجة من زوجها والأشد
من ذلك قسوة وأمر أن الآباء في غمرة الهلع الذي ساد البلاد كانوا يهجرون
فلذات أكبادهم . وكان من الخطر الداهم أن يسير الناس في الطرقات ؛
لأنهم كانوا يروعون بمنظر جثث الضحايا التعساء الذين صرعههم المرض
ولقد شاهدت الكلاب بعيني وهي ترد موارد الهلاك لمجرد أنها لمست
التياب المهلهلة للموتى .

« فيما بين مارس ويوليو لقي مائة ألف من أهل فلورنسا حتفهم ،
رغم أنه لم يكن من المتوقع أن يبلغ عدد سكان المدينة هذا الرقم الضخم
قبل أن يندمها الوباء ، ولكن نفس تطير شعاعا عندما تصد ما حل
بمدينتنا من ألوان الشقاء ، ومن ثم سوف أمحو من الذاكرة كل ما يمكن .

محوه واكتفى بالاشارة الى أنه في الوقت الذي كادت تخلو فيه المدينة من أهلها التقت في صحن كنيسة سانت ماري مساء أحد أيام الثلاثاء سبع فتيات حسان وهن يرقفن في ثياب الحداد ومن هذا العدد القليل ، كان يتألف كل الجمهور المحتشد للعبادة .

كانت كل واحدة من الحسان تمت بصلة الى الاخرى . اما عن روابط الدم أو أواصر الصداقة الوثيقة ، وكانت بامبينا كبراهن تبلغ الثامنة بعد العشرين من عمرها ، أما فياميتا فقد كانت تصغرها بقليل ، في حين كانت فيلوميتا واميليا ولوريتا ونيفيل تصغرانها بسنوات ، أما ايليزا أصغرهن فلم تكن قد تجاوزت العام الثامن عشر من عمرها .

وعندما انتهت الطقوس انتحت الفتيات ركنا من الكنيسة وبدأن يتشاورن فيما ينبغي لهن أن يقدمن عليه ، بعد أن أصبحن وحيدات في الحياة . قالت بامبينا :

— اننى أنصح بأن نهجر فلورنسا ؛ لأن الحياة في المدينة باتت شديدة الخطر ليس لمجرد أن الوباء قد داهمها ، وانما لأن الرجال قد فقدوا صوابهم وأصبحوا يعيشون فسادا في الطرقات ويقتحمون البيوت دون وازع من القانون ، والأفضل لنا أن نلجأ الى الريف حيث الهواء النقي والتلال العشوشية وحقول القمح الناضج التي تذكرنا بالحياة ، بدلا مما يطالعا في جدران المدينة من هجران وأحزان .

وقالت فيلومينا معقبة :

— اننى أشك في أن تتحقق لنا هذه الأمنية بغير أن يتقدم لمساعدتنا بعض الرجال .

وصاحت ايليزا محتدة :

— من أين يأتينا مثل هذا العون وقد أصبح كل من يمت الينا بصلة القربى من الرجال في عداد الأموات ؛ بينما القلة التي سلمت من الموت قد آثرت الفرار ؟

وبينما هن يتداولن في الأمر ، دلف الى الكنيسة ثلاثة فرسان في ربيع العمر هم : بامفيلو وفيلوستراتو وديونيو ، وقد جاءوا الى الكنيسة يبحثون عن أسرات قلوبهم وكن بالمصادفة نيفيل ، وبامبينا وفيلومينا .

وقالت بامبينا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

— انظرون ! ان الحظ لا يزال في جانبنا ، لقد ألقى في طريقنا ثلاثة شبان أجلاء لا أشك لحظة في أنهم يجيبون مطلبنا لو أننا دعوناهم .

وأنبأت بامبينا الفرسان بحضتها راجية أن يقدموا العون لتنفيذها ، وطن الفتية في أول الأمر أن المسألة لا تخرج عن الدعاية . ولكنهم سرعان ما قرروا مصاحبة الفتيات عندما تبين لهم صدق ما عقدن العزم عليه ؛ لهذا لم تكذبوا كبير الصباح تلوح حتى تحرك موكب الفتيات الحسان تصاحبهن وصيفاتهن والفرسان مع أتباعهم من الرجال مدبرين عن فلورنسا . وعندما قطعوا من الرحلة ميلين كانوا قد بلغوا المكان المتفق عليه وهو عبارة عن تل يقع بمعزل عن الطريق تكثر فيه الأشجار الباسقة ويتربع على قمته قصر منيف ، يحيط به فناء متسع كالروضة الفيحاء وبداخله الأبناء والغرف الفسيحة التي تزينها الرسوم الرائعة ومن حوله تنتشر المروج الخضراء وحدائق ذوات رونق وبهاء ونافورات يتفجر منها الماء .

وعندما اطمان الجميع إلى أن كل شيء في القصر قد أعد بنظام لاستقبال الوافدين ، قامت الحسان بنزهة في الحديقة يصاحبهن الفرسان وهم ينشدون أهازيج الحب وينظمون أكاليل الأزهار ، حتى إذا ما بلغت الساعة تمام الثالثة أعدت المائدة في قاعة الاحتفالات . وعندما فرغ الجميع من تناول الطعام ، أخذ ديونيو ينفخ في قيثارته بينما تعزف فياميتا على العود ، وقد انتظم بقية الجميع في حلقة الرقص على أنغام الموسيقى ، وعندما انتهوا من الرقص أخذوا يغنون ، وهكذا استمروا في الرقص والغناء حتى حل الليل وحينئذ انسحب الفرسان إلى غرفهم وكذلك فعلت الفتيات ، بعد أن اتفق الجميع على أن تكون بامبينا منذ الغد ملكة على الحشد ، هي التي تشير بالرأى وتشرف على الطعام والحفلات .

وفي صباح اليوم التالي أرسلت الملكة بامبينا إلى الجميع تدعوهم إلى الاجتماع في تمام الساعة التاسعة ، قائلة أن النوم خلال ساعات النهار منافي للصحة وقادتهم إلى مرج كثير تظله الأشجار العالية وتابعت حديثها قائلة :

— من حماقة أن تفكر في التريض ما دامت الشمس قد علت كبد السماء والجو مشبع بالحرارة وليس غير أصوات الجنادب بين أشجار الزيتون ، لهذا دعونا نجلس في حلقة لنروى القصص وعندما تتم الدورة تكون حرارة الشمس قد هبطت فيتناخ لنا حينئذ أن نسلى أنفسنا على خير ما نحب .

وتابعت بامبينا حديثها قائلة للفارس الجالس على يمينها :

— والآن بامفيلو أرجوك أن تروى قصتك .

الى هنا تنتهى المقدمة الممتعة التى يمهّد بها بوكاشيو للقصة المائة ،
والتي تتم روايتها على ألسن الرواة فى عشرة أيام بحيث لا تمر الدورة
فى كل يوم حتى يشارك كل منهم بقصة .

وقبل أن نورد نماذج منتقاة من تلك القصص ، لا نحب أن نفل
جانبا له اعتباره بين ذلك القصص الانساني الحالد ذلك الذى يتعرض
للمواطن الانسانية الجامعة فى غمرة توقدها ، حينما تستسلم النفس
الانسانية الى الضعف وتغلب عليها الفريزة المتدفقة ، وتنكشف الستر
عن المتفعلن بالدين ، فيظهرون كالبشر العادى سواء بسواء ويستجيبون
لنواعج الحب وصباة العشاق . وتنكشف فى هذا اللون من القصص موهبة
بوكاشيو الضخمة ، عندما يهبط بالقصة من أبراج القصور الى أكواخ
السوقه وصوامع النساك فيجلوها بسحة من الواقعية التى أكسبتها
تلك الشهرة وذلك النبوغ .



القصص الانسانية :

نلمس فى كثير من القصص التى يضمها الديكاميرون النبضات
الانسانية الحية ، والتحليل الدقيق للمشاعر الانسانية النبيلة وقد
اخترنا نموذجا نلخصه فى عجالة .

فى قصة « الأب القامى » نجد تاندريند أمير ساليرنو يزوج ابنته
سيجيزموند وهى فى مقتبل العمر من زوج لا تكاد تتذوق معه أول متع
الحياة حتى يختطفه الموت فتعود الى قصر أبيها ، وينسى الأب فى غمرة
حبه وحنانه وعطفه على الابنة أن يفكر لها فى زواج جديد يعصمها من
الزلل ولا تستطيع سيجيزموند أن تقاوم الرغبة بعد أن تحرك فى أعماقها
ما كان ساكنا قبل الزواج ، فتختار لنفسها عشيقا من بين رجال القصر وهو
شاب من أصل متواضع يسمى جيشارد وتتخذ الأرملة الحسنة كل أسباب
الحيطة حتى لا يفتضح السر . ولكن الأب العجوز يتسلل ذات يوم الى
مخدع ابنته ليتبادل معها الحديث ، وعندما يجد الحجرة خالية والستر

مسدلة على السرير يجلس على مقعد تخفيه الستر بجوار السرير ويستسلم الى الكرى ، بينما يعود العاشقان في غفلة من عيون الرقباء ويسنيقظ الأب على أصوات تدغدغ حسه وحركات تثير سخطه وغضبه ، ولكنه يكتم تخبطه وينسحب في هدوء ثم يدع الحراس يقبضون على جيشارد ، دون أن تعلم ابنته ، ويذهب الأب العجوز الى حجرة ابنته ويفصح لها عن اكتشافه قائلا انه لم يكن يتصور أن ابنته تنحدر الى ذلك الدرك مع نكرة من رجاله ، بينما يوفر لها كل ما يستطيع من حب وحنان . ويخبرها أنه أجل البت في مصير العاشق حتى يسمع دفعاها . وينكس الأب رأسه في مذلة وينخرط في البكاء كالاطفال ولا تحاول ابنته أن تطلب الرحمة أو تستدر العطف وتعترف اعترافا صريحا وتقول :

« لقد أحببت جيشارد وسأظل وفية لحيته ما حييت ، وإن كنت أعلم إن ذلك العمر لن يطول وإذا كان للحب أن يعمر بعد الموت ، فإن هذا ما سيحدث من جانبي ، إن فضيلة هذا الشاب وفله المنايا التي نظرت بها الى موضوع زواجي كان لهما أعمق الأثر في نفسي ، وإذا كنت يا أبي لم تخلق من حديد أو رخام فلا بد أن تفكر في أن هذا هو حال ابنتك أيضا . وينبغي أن تذكر في هذه السن الطاعنة ما كان يزخر به قلبك في سنى الشباب من عواطف جياشة اننى مازلت في ربيع العمر وقد حرك في الزواج المبكر ما كان خامدا من العواطف . بحيث لم يعد في مقدورى أن أتجاهل الغريزة الصارخة . لقد كانت تلك الرغبات ولا شك هى التي أشعلت في قلبى جذوة الحب المتعطش للارتواء وعندما أيقنت ألا سبيل الى مقاومة رغباتى ، اتخذت كل أساليب الحيلة كي أغلف حبي بستر من الشرف . وهكذا جمعت بين اشباع الرغبة والمحافظة على السمعة وإذا كنت قد فضلت جيشارد على غيره من رجال القصر ، فانما كان ذلك بعد روية وطول تفكير . ويبدو أنك كنت تتسامح لو كان حبي لرجل نبيل الأصل ولكن الذنب ذنب الحظ وليس الخطأ من تديرى . إن الحظ أعمى وهو يختار أقل الناس استحقاقا له بينما يتخلى عن أولئك الذين تسمو عواطفهم ويستحقون أوفى تقدير . »

« ارجع الى الأصل لتجد اننا جميعا أبناء نفس الأب . واننا خلقنا من طينة واحدة ثم تفرقت بنا السبيل في الحياة ليكون هناك النبيل الأصل ووضيعه ، وكائنا ما يكون الخلل الذى دفع الضمير الانسانى الى فرض هذا القانون الجائر ، فانه لا تزال هناك نفوس سامية لا تزن هذه الأمور بهذا الميزان . ووفقا لهذه المقاييس الرقيقة تستطيع أن تقول انه

بقدر ما تتعدد هذه الفضائل في الفرد يكون سموه وعلو قدره ، ومن ثم
يعتبر جيشارد أعرق في السمو والنبالة من جميع رجال قصره ، .

واختتمت سيجيزموند حديثها قائلة انها تترك لآبيها أن يقضى في
مصير جيشارد بما يشاء ، ولكنها ستنفذ الحكم عينه على نفسها طائعة
طالبة من آبيها ألا يبيكها حينئذ .

وفكر الأب العجوز ثم هداه تفكيره الى قتل جيشارد وانتزاع قلبه
من صدره ، وأرسل لها القلب فوق صحيفة مع رسول يحمل هذه
الرسالة :

« يبعث اليك والدك الأمير بهذه الهدية لتعزيزك عن فقد أشد
ما تحبين » .

وأدركت سيجيزموند ما تحمله الرسالة من معنى وأسرعت الى
زجاجة من السم كانت قد أعدتها وتجرعت كل ما فيها وعندما علم الأب
بالأمر أسرع اليها ، وقالت سيجيزموند بضعف وهي تغالب سكرات
الموت :

— اذا كان قلبك لا يزال ينبض بحبى ، فاننى أتقدم اليك بآخر رجاء
اسى لا أطلب منك سوى السماح بأن أدفن علانية بجوار جيشارد ، حيث
أبيت الا أن أعيش سعيدة بجواره في الخفاء .

وخنقت الأب العبرات فلم يستطع أن يجيب ابنته المحضرة بكلمة
واحدة . ولم يكذ الأب يبارح الحجرة حتى لفظت سيجيزموند آخر أنفاسها
وهي تضم قلب العاشق الى صدرها . وندم الأب العجوز على قسوته ولكن
بعد فوان الأوان ، وسمح لجثتى العاشقين بأن تدفنا فى مقبرة واحدة .

قصة حب

حدث منذ زمان أن كان يعيش فى جزيرة قبرص رجل ذو أصل
عريق وثراء وفير يدعى أريستىوس ، وكان الرجل يحس ببالغ التعاسة من
جراه ابنه سيمون ، فرغم ما يتمتع به الفتى من جسم فارغ وطلعة ذات
حسن ، الا أنه كان ضعيف العقل وعندما اكتشف الأب أن أمهر المعلمين
قد عجز عن صب القليل من المعرفة فى عقل الابن ، قرر أن يباعد بينه وبين
ابنه حتى لا يقع عليه بصره وأرسله ليعيش بين العبيد فى منزله بالريف .

هناك اعتاد سيمون أن يكدح كما يفعل العبيد وأصبح في الواقع على شاكلتهم في خشونة الصوت وفضاظة الطباع . إلا أنه حدث ذات يوم بينما كان يجوس خلال المزرعة أن وقعت عيناه على غادة حسناء مستفرقة في النوم فوق العشب الأخضر الكثيف . ومن تحت أقدامها أغفت وصيفتان وخادم من رجالها ، لم يكن سيمون قد رأى قبل ذلك وجه امرأة قط فوقف يحملق في الفاتنة مبهورا وهو يسند على عصاه ، وقد تسربت الى ذهنه أفكار غريبة وتحركت في أعماقه عواطف لم يشعر بها من قبل . وظل يتأمل الحسناء فترة طويلة حتى رأى أهدابها تتحرك ثم رآها تستيقظ ببطء وأحس سيمون بنشوة غامرة تملأ جوانح نفسه وقالت الحسناء :

— لماذا تنظر الى هكذا ؟ أرجوك أن تبتعد عني اني أرتعد لمراآك .

وأجابها سيمون حالما :

— لن أبتعد اني لا أستطيع .

ورغم أن الفتاة كانت خائفة فانه لم يتخل عنها ، حتى صبحها الى دارها وحينئذ ذهب الفتى الى أبيه ليقول له انه يريد أن يعيش كسيد مهذب وانه لم يعد يطبق حياة العبيد . ودهش الأب عندما اكتشف أن صوت ابنه قد لان واكتسب عذوبة ورقة ، بينما تهذبت طباعه وهشت أساريه . وغير الأب ثياب ابنه وسربله بملابس تليق بعلو مكانته وسمح له بالذهاب الى المدرسة .

مضت أربع سنوات منذ وقع سيمون فريسة للحب وقد غدا الشاب ابنه شباب قبرص وأكثرهم أدبا وعلما ، وعندئذ ذهب الشاب الى والد ايفيجينيا . وذلك كان اسمها — طالبا يد ابنته ولكن الوالد أجابه بأن ابنته مخطوبة بالفعل لباسيمونداس وهو شاب من نبلاء رودس وأن احتفالات الزفاف توشك أن تقام ، وهمس سيمون لنفسه في مرارة وهو يستمع الى تلك الأنباء الأليمة :

— أواه يا ايفيجينيا ! لقد حان الوقت لاكشف لك عن مدى ولعي بك .

لقد كان حبك هو الذي خلق مني رجلا . والزواج منك كفيل بأن يجعلني سعيدا وعظيما كاله ! بك سأظفر والا فالموت عزائي .

سارع سيمون الى بعض أصدقائه من الاشراف طالبا منهم العون في تدبير سفينة للقتال . وعلى متن هذه السفينة تابع مسير السفينة التي ابهرت عليها ايفيجينيا قاصدة رودس وألقى على السفينة الأخرى بخطاف من الحديد وشدها نحوه حتى تلاقت السفينتان . ودون انتظار العون من أحد ، قفز سيمون بين خصومه وظل يدافعهم عن نفسه حتى ألقوا السلاح ، وهو يقول لهم :

- انى لم آت لسلبكم ، وانما جئت لأظفر بالحسناء النبيلة ايفيجينيا التي أحبها أكثر من أى شيء في الوجود ، خلوا بينى وبينها وأقسم ألا ألحق بكم ضررا .

جاءت اليه ايفيجينيا والدموع في مآقيها فقال لها برقة :

- لا تبكى يا فاتنتى الرقيقة أنا أسيرك سيمون . ان حبى العميق الدائم يساوى أكثر بكثير مما يعدك به باسيمونداس .

ابتسمت ايفيجينيا من بين دموعها ، بينما كان سيمون يصحبها الى ظهر السفينة ويبحر بها الى كريت حيث أهله وأقرباؤه وأصحابه ، الا أن عاصفة هوجاء هبت خلال الليل وألقت غلالها على جميع النجوم فى السماء ، وظلت السفينة تدور حول نفسها حتى ألقت بها العاصفة على شاطئ يقع على سواحل رودس . وقبل أن تتمكن السفينة من الاقلاع مرة أخرى هاجمها باسيمونداس وأخذ سيمون أسيرا وقاده الى كير قضاة رودس . وكان فى ذلك العام ليزيماخوس الذى أصدر الحكم بالسجن على سيمون وصحبه بالسجن مدى الحياة بتهمة القرصنة والاختطاف .

وبينما كان سيمون يقاسى مرارة السجن يائسا من أى أمل فى استرداد حريته ، كان باسيمونداس يعد العدة لحفل زواجه من ايفيجينيا ، وكان لباسيمونداس فى ذلك الحين أخ يصغره ويسعى هورميسداس . وكان يرغب فى الزواج من حسناء اسمها كاساندرا ، وكان ليزيماخوس كبير القضاة يحب بدوره هذه الأخيرة . فكر باسيمونداس فى أنه يستطيع أن يوفر قسطا كبيرا من المتاعب والنفقات لو أنه أقام احتفاله بزواجه وزواج أخيه فى نفس الوقت ، لهذا فقد أعد العدة لذلك مما أثار حفيظة ليزيماخوس وأغضبه أيما غضب . وبعد طول روية وتفكير تخلى الشرف عن مكانه للحب وعزم ليزيماخوس على أن يختطف كاساندرا غصبا .

ولكن من يعينه على قضاء مأربه من بين أصحابه ؟ هذا ما فكر فيه ليزيماخوس ولم يتردد لحظة في أن يستعين بسيمون وأعوانه . خف اليهم في السجن ليطلق سراحهم ويزودهم بالسلاح ويخفيهم في منزله ثم قسمهم في ليلة الزفاف الى ثلاث فرق، قصدت احداها الشاطئ لتستولي على احدى السفن ، بينما عهد الى الثانية بمراقبة بوابة قصر باسيميونداس ونصب من نفسه قائدا للفرقة الثالثة يسانده سيمون ، واقتحمت هذه الفرقة قاعة الاحتفال حيث تقام مراسم الزواج وقتلت العريس وحملت العروسين والدمع في ماقبيهما الى السفينة التي أبحرت بين تهليل ركاياها ومرحهم قاصدة كريت .

وهناك تزوج الشابان من الفاتنتين بين تهنئي الأقارب والأصدقاء ورغم أن قتالا عنيفا قد نشب بين أهل جزيرة كريت وقبرص من جراء فعلتهما الشنعاء ، الا أن الأمور سويت في النهاية على خير ما يرجى من سلام ، وحينئذ عاد سيمون مع ايفيجينيا الى قبرص وحمل ليزيماخوس عروسه كاساندرا الى رودس وعاش الجميع في خير وسعادة حتى آخر أيام العمر .

قصة صداقة

في الوقت الذي كان يحكم فيه روما اكتافوس قيصر - وهو الذي أصبح يلقب فيما بعد الامبراطور أوغسطس - كان يعيش في روما شاب يدعى تيتوس كوينتوس فلافوس . وقد قصد الشاب أثينا ليدرس الفلسفة وهناك نمت علاقة صداقة بينه وبين شاب من أشراف اثينا يدعى جيسيبيوس ، ودامت العلاقة بينهما ثلاث سنوات وهما يعيشان كأخوين شقيقين يدرسان معا ويعيشان تحت سقف واحد .

وذات يوم وقع جيسيبيوس في غرام حسناء من أثينا تسمى سوفورنيا وتعاهدا على الزواج . وصحب جيسيبيوس صديقه لزيارة خطيبته قبل الموعد المحدد للزفاف بأيام ، وكانت تلك أول مرة تقع فيها أنظار تيتوس على سوفورنيا وبمجرد أن تلاقت نظراتهما وشاهد جمالها ، أحس أنه أحبها حبا لم يسبق لرجل أن أحس بمثله نحو امرأة ، وتأججت العاطفة في قلبه الى درجة أنه لم يعد يستطيع الأكل أو ينعم بلذة النوم ، وبرز به المرض الى الدرجة التي أصبح معها غير قادر على النهوض من فراشه . وحزن جيسيبيوس أيما حزن وأحس بعميق الأسى من أجل ما ألم بصاحبة

من سقم . ولما كان يظن أن هذا البلاء وليد مرض عقلى أصاب صاحبه ، فقد ألح عليه كي يصارحه بسبب شقائه ولم يستطع تيتوس أن يخفى الحقيقة عن صاحبه فقال له ملتاعا :

- أواه جيسيبيوس ! ، انى غير جدير بأن ألقب بالصديق لقد وقعت فى غرام سوفورنيا ، وهذا العشق يقتلنى ، يا لى من شخص وضع ! . ولكنى ألتبس منك الصفع يا صديقى سوف ألقى الموت عاجلا جزاء ما اقترفت من اثم وعدم ولاء .

جده جيسيبيوس فى مكانه برهة وهو مشئت بين حبه لسوفورنيا وولائه لصديقه ، ولكنه استقر آخر الأمر على أن يرد الحياة لصاحبه ولو كان ذلك على حساب سعادته . وبعد بضعة أيام عندما أحضرت سوفورنيا الى بيته حتى يقام حفل الزواج تسلل جيسيبيوس بخفة الى غرفة العروس حيث كانت ترقد سوفورنيا (أطفأ الشموع ثم أسرع فى صمت الى تيتوس ، حيث أنباء أنه سيكون الزوج واعتري تيتوس خجل غامر ورفض أن يذهب الى العروس ، ولكن جيسيبيوس ظل يقنعه فى رفق وعطف حتى اقتنع . وسار تيتوس على أطراف أصابعه ودخل حجرة العروس المظلمة وسألها برقة عما اذا كانت تقبله زوجا ، ولما كانت سوفورنيا تعتقد أنه جيسيبيوس فقد ردت عليه بقولها : « نعم » وعندئذ وضع تيتوس فى اصبعها خاتما ثمينا وهو يقول : « وأنا سأكون زوجا لك » .

وفى الصباح اكتشفت سوفورنيا الخديعة التى كانت ضحية لها ، وتسملت من المنزل لتقص على أبيها وأمها كيف خدعها جيسيبيوس وزوجها لتيتوس وكان رد الفعل شديدا فى أثينا لما ارتكبه جيسيبيوس فى حق سوفورنيا التى تنتمى الى أسرة من أشراف أثينا . ولكن الأبوين وقد وجدا أن ما حدث لا يمكن اصلاحه وافقا على أن يصحب تيتوس عروسه الى روما حيث لا تروج أنباء الفضيحة . ولكنهما قررا بعد رحيل تيتوس أن يقتصا من جيسيبيوس وتحالفت ضده عصابة أخذت على عاتقها تلك المهمة ، ونجحت فى أن تجرده من كل ممتلكاته مع طرده من أثينا ، بعد أن صدر عليه حكم بالنفى حتى الموت .

عندما وجد جيسيبيوس نفسه خالى الوفاض لا صديق له ، رحل الى روما سيرا على الأقدام قاصدا أن يلجأ الى تيتوس ليلتمس منه العون ، وعندما وصل الى روما اكتشف أن صاحبه قد صادف الثراء الواسع والجاه

العريض وأنه أصبح يتمتع بعطف الأمير أوكتافيوس الشاب ويعيش في قصر منيف ، ولم يجرؤ جيسيبوس على أن يلج باب القصر وهو في أسفاله البالية وقنع بالوقوف كالشبح أمام البوابة ، على أمل أن يمر صديقه غيرا ويبادل له الحديث . ولكن تيتوس كان يخرج في كل مرة مندفعاً من العصر ولم يبطئ في سيره مرة واحدة حتى يراه وخيل لجيسيبوس أنه بات محتقراً من صاحبه فمضى في سبيله محسوراً مكدوداً .

سار جيسيبوس في شوارع روما على غير هدى حتى فاجأه الظلام فالتفت من مغارة تواجد اللصوص على الالتقاء فيها ، واستلقى جيسيبوس على الأرض الصلبة واستسلم لسبات عميق . وبينما كان يغط في نومه جاء لصان يحملان ما غنموا من أسلاب واختلفا على اقتسام المسروقات ونشب بينهما شجار عنيف وسقط أحدهما قتيلاً بينما فر القاتل متستراً بالظلام ، حتى إذا كان الصباح اكتشف أحد الحراس الجثة وجيسيبوس غير بعيد عنها فالتقى القبض عليه .

استسلم جيسيبوس لقدره واعترف بأنه القاتل حتى يلقي الموت بهذه الطريقة بدلاً من أن يقضى على نفسه بنفسه ، وإزاء اعترافه أصدر القاضي الحكم بصلبه وكانت تلك هي وسيلة الإعدام في ذلك الحين .

وتشاء الظروف العجيبة أن يكون تيتوس موجوداً في قاعة المحكمة بطريق المصادفة ليتولى الدفاع عن رجل فقير ، وتعرف في الحال على جيسيبوس واعتبرته الدهشة البالغة من جراء ما حدث لصاحبه من سوء المصير . وقرر أن ينقذ صاحبه مهما كلفه ذلك من ثمن ولكن القضية كانت قد قطعت شوطاً بعيداً وليس أمامه سوى حل واحد ، ولكن تيتوس لم يتردد برهة فقد تقدم من منصة القاضي بخطى ثابتة وقال بين دهشة جميع الحاضرين :

— أرجوك أن تسحب حكمك هذا الرجل براء . أنا القاتل !

تطلع جيسيبوس حوله في دهشته ليرى تيتوس أمامه ، وأدرك أن صاحبه يحاول أن ينقذ حياته بدافع من الصداقة القوية وقرر بدوره ألا يقبل هذه التضحية فقال للقاضي :

— لا تصدقه يا سيدي أنا القاتل ولا يستحق العقاب سوى .

دهش القاضي دهشة بالغة وهو يرى رجلين يسعى كل منهما الى حشفه ليفوز بالصلب ، كما لو أنه شرف لا يفدله شرف في الوجود .
وفجأة اندفع واحد من عتاة اللصوص كأن يتابع المحاكمة ليقول بين دهشة الجميع :

— لقد مست هذه المناظرة الغريبة شغاف قلبي . ومن ثم سوف اعترف لكم بكل شيء . لا يمكنك يا سيدي أن تصدق أن أحدا من هذين الرجلين يمكن أن يرتكب الجريمة فما الذي يدفع سيدا من علية القوم أصحاب الثراء الواسع كتينوس الى الذهاب الى مغارة يختلف اليهها اللصوص ، انه لم يذهب قط الى المكان . أما هذا الغريب البائس ذو الثياب المهلهلة ، فقد كان نائما في الوقت الذي وصلت فيه مع صاحبي الى المغارة واللصوص — كما تعلم يا سيدي — يختلفون في بعض الأحيان خصوصا اذا كانت الغنيمة ثمينة وقد كان هذا عين ما حدث البارحة فشرعت مديتي لأضع حدا للنزاع .

وقد كان ظهور رجل ثالث يعترف بالجرم مما زاد من حيرة القاضي فقرر أن يعرض القضية على أوكتافيوس قيصر . واستدعى قيصر الرجال الثلاثة فمثلوا بين يديه وعندئذ أفضى اليه تيتوس وجيسيبيوس بقصة صداقتهما الغريبة ، وفي الحال أصدر أوامره بإطلاق سراحهما وإكرامهما لهما أصدر العفو عن اللص القاتل .

وحينئذ صمم تيتوس على أن يعود معه جيسيبيوس الى قصره وأرغمه على قبول نصف ثروته وزوجه من أخته فلافيا ، وهي شابة ذات حسن ساحر وفتنة طاغية . وحتى آخر أيام عمرهم عاش تيتوس وسوفورنيا وجيسيبيوس وفلافيا في سعادة ورخاء يجمعهم في روما نفس القصر ، ولم يكن يمر يوم حتى يضيف الى سعادتهم ما يملأ القلوب غبطة وهناء .

قصة ذكاء

كما نأرا الكثير من الجدل حول الدين في فلورنسا ابان الفترة التي اجتاعها فيها الوباء ، فقد أعاد ذلك الى ذاكرتها قصة ميلشيز ديك . .
كان الرجل وهو من أثرياء اليهود ، يعيش في الاسكندرية أيام حكم السلطان العظيم صلاح الدين ، وكان السلطان في مسيس الحاجة الى المال بعد أن

استنزفت الحروب كل ما كان فى خزائن الدولة من أموال • وقرر صلاح الدين أن يحتال على اليهودى ؛ ليجرده من ثروته فبعث اليه رسولا يستدعيه وعندما مثل اليهودى بين يديه قال له السلطان :

لقد سمعت أنك من الحكماء فى مسائل الدين • أريد أن أعرف منك أى الأديان تراه الدين الحق : اليهودية أم المسيحية أم الاسلام ؟

أدرك اليهودى أن صلاح الدين يريد أن يورطه فلو أنه أجاب بأن اليهودية أو المسيحية هى الدين الحق فلا بد أن ينتقم منه السلطان ، ويحكم عليه بعدم الولاء ، ولو أنه صرح بأن دين الاسلام هو الدين الأفضل لطالبه بأن يتنازل عن جزء من ثروته للدولة مثلما فعل المؤمنون وتردد اليهودى وأعمل فكره لينجو من ورطته ثم أجاب بقوله :

كان يعيش فى قديم الزمان يا مولاي رجل يمتلك خاتما ذا رونق كبير وقيمة ذات بال ، وقد أعلن فى وصيته أن الابن الذى يترك له هذا الخاتم يصبح رب الأسرة من بعده وأن أبناء هذا الابن يسيطرون حكمهم على أحفاد أبنائه الآخرين •

وظلت رغبة الأب تنفذ على مدار أجيال كبيرة ؛ ولكن الخاتم كان فى النهاية من نصيب رجل له ثلاثة أبناء وكان كل منهم فاضلا شديد الولاء لأبيه • ويحب الأب أبنائه جميعا على قدم سواء :

ولما وجد الأب نفسه غير قادر على أن يفضل ولدا على ولد ، طلب الرجل من أحد الصناع الماهرين أن يصنع له خاتمين آخرين على غرار الأول ، وجاء الخاتمان مشابهيين له الى درجة يصعب معها التمييز أيها الحقيقى • وبعد الوفاة ادعى كل من الأبناء أنه وريث الأب فى حكم الأسرة ولكى يدعم كل منهم الرأى بالحجة أخرج خاتمه الذى تلقاه من أبيه ولكن الخواتيم كانت متشابهة ، الى الدرجة التى لا يمكن التمييز بينها ومعرفة الأصل منها ، ولم يستطع حتى هذه اللحظة أن يحسم الأمر انسان وهكذا حدث بالنسبة للأديان الثلاثة التى صدرت عن الرب يا مولاي : اليهودية والمسيحية والاسلام يظن كل من أصحابها أنه وريث الرب العلى ولكن الأمر بينهم غير مؤكد كما كان بالنسبة للخاتم الأصل .

اغتنب صلاح الدين أشد الاغتيباط وأعجبه الرد الذى استطاع ميلشيز ديك أن يتخلص به من الفخ الذى أعده له ، وبدلا من أن يستولى

السلطان على أموال اليهودي قسرا كما قدر قبل أن يستدعيه ، رغبة في أن يقدم له المال على سبيل القرض ، واستجاب ميلشيز ديك لهذا الرجاء وسرعان ما رد له السلطان الدين وأغدق عليه العطايا والمنح ، بالإضافة الى ما خلعه عليه من منصب كبير واتخاذ له صاحباً في مجلسه .

قصة الزوجة الصابرة

قضى الفرسان والحسان أمتع الأوقات في الرقص والغناء ورواية القصص . وعندما انحسرت موجة الوباء عن فلورنسا عاد الجميع الى المدينة ولكنهم قبل أن يبدؤوا رحلتهم اليها ، قص عليهم ديونيو قصة بالغة الغرابة شديدة التأثير قال ديونيو :

جری الرجال على أن يلصقوا بالنساء تهم القلب وعدم استقرار العاطفة . ولكن يحضر ذاكرتي قصة تدل على ثبات عاطفة المرأة وقسوة الرجل ، ولا شك في أنكم سوف ترحبون بالاستماع اليها .

كان المركيز جوالتيرو الحاكم الشاب لمدينة ساليرنو ، مؤمناً بأن النساء قلب(*) لا أمان لهن ولا ضمان لاستقرار عواطفهن . ومن أجل هذا السبب أضرب عن الزواج واكتفى من متع الحياة بالصيد والقنص ، إلا أن رعاياه لم يكونوا راضين عن مسلكه هذا خشية أن يموت دون وريث فيتركهم بلا سيد ، ومن ثم كانوا يلحون عليه في الزواج وقطعوا في ذلك شوطاً بعيداً الى حد أنهم عرضوا عليه في النهاية أن يختاروا له الزوج المناسبة وأغضبه ذلك أشد الغضب فقال لهم :

— اذا رغبت في اتخاذ زوجة أيها الأصدقاء فاني سأختارها بنفسى ومهما كان أصلها أو البيت الذي نشأت فيه ، فأنتم مطالبون بتقديم واجبات الاحترام لها بما يليق بمقامها كزوج لمولاكم ، والا فانكم سوف تلمسون بأنفسكم كم يشقيني أن اتخذت زوجاً حيث لم أكن أريد ! .

بعد ذلك ببضعة أيام بينما كان المركيز يمتطي صهوة جواده ماراً بقرية غير بعيدة عن موقع القصر ، لمح ابنة أحد الرعاة تنقل الماء من البئر الى منزل أبيها ، وسألها المركيز عن اسمها وأجابته الراعية الحسناء :

« جريزيلدا » . وقال لها مركيز ساليرنو :

(*) بضم القاف وتشديد مع فتح اللام : متقلبات .

– حسن يا جريزيلدا ! انى أبحث عن زوجة ولو أنى تزوجتك فسيكون من واجبك أن تتعلمى كيف تعملين على ارضائى وتنفيذ كل مطالبى مهما كانت غرايتها ، دون أن تند عنك همسة اعتراض أو نظرة اكتئاب .

وأجابته جريزيلدا بقولها :

– نعم يا مولاي .

وعلى الفور أرسل المركيز بعض خدمه ليشتروا بعض الثياب الفاخرة وارندت جريزيلدا الثياب الغالية ، ووضع المركيز على رأسها اكليلا من الازهار ، ثم صحبها الى القصر وأقام حفلة رائعة للزواج كما لو أنه كان يعقد زواجه على ابنة ملك فرنسا . وأثبتت جريزيلدا أنها زوج طيبة : فقد كانت ذات أخلاق دمثة وطباع رقيقة الى الدرجة التى خيل لزوجها أنه أصبح أسعد رجال العالم قاطبة . وقد أولاه رعايا زوجها ما يليق بمكانتها من التقدير والاحترام وأحبوها حبا جما ولشد ما كانت فرحتهم عندما أنجبت لهم طفلة حسناء ! .

ولسوء الحظ داخل زوجها شعور مبهم ، فقد خيل اليه أنها تتصرف بهذه الرقة والطيبة ؛ لأن الريح التى صادفتها كانت مواتية وقر عزمه على أن يمتحن قدرتها على الصبر عن طريق الأذى ، لذلك أنبأها أن رعاياه مستاءون لأنه اختار زوجا وضيعة الأصل ، وأنهم يتهامسون فيما بينهم لأنها أنجبت طفلة وأجابته جريزيلدا بقولها :

– انى أعلم يا مولاي أننى وضيعة الأصل وأن أقل رعاياك يفضلنى نسبيا وأنى غير جديرة بالشرف الذى أسبغته على . وأنى لأرجوك أن تتصرف على الوجه الذى يصبون شرفك ويحقق سعادتك دون تفكير فى صالحي .

وسرعان ما وافى جريزيلدا أحد خدم المركيز قائلا لها :

– سيدتى اما أن أفقد حياتى أو أنفذ مشيئة مولاي لقد أصدر الى سيدى أوامره بأن آخذ ابنتك و . . .

لزم الخادم الصمت ولم يزد حرفا ، وظنت جريزيلدا أن ما أصدر اليه من أوامر يقضى بقتل ابنتها ، ولم تتردد فى أن ترفعها من المهد لتقبلها برقة . ثم تلقى بها بين يديه وأرسل المركيز ابنته الصغيرة الى واحد من أقربائه فى بولونا لتنشأ هناك وتتلقى تعليمها . وبعد بضع سنوات

أخرى أنجبت جريزيلدا ولدا ، وكان ذلك من بواعث سعادة المركيز عندما علم أنه رزق بوريث ؛ ولكنه تمشيا مع خطته قرر حرمان الأم من مولودها فقال لها :

— لم يعد في مقدورى أن أواصل الحياة مع رعاياى انهم يقولون انهم لا يتسامحون فى أن يكون حفيد أحد الرغبة سييدا عليهم فى المستقبل ، ولا بد لى من التخلص من هذا المولود كما فعلت مع سابقه .

وأجابت جريزيلدا بقولها :

— مولاي . افعل ما تراه أفضل وأدعى لسعادتك دون أقل تفكير فى صالحى ، اننى لا أجد ثمة ما يسعدنى فيما يسبب لك الشقاء .

وفى اليوم التالى أرسل المركيز ابنه حيث أرسل ابنته من قبل ، وظن رعاياه أن الأب قد حكم على ولديه بالموت ووجهوا اليه شديد اللوم على ما تبدى من قسوته ولم يتوانوا عن اظهار عطفهم على الزوجة . ولكن جريزيلدا لم تكن لتسمح لهم بتقريع زوجها بل كانت تلمس له الأعذار .

ورغم كل ذلك فلم يكن المركيز قد اقتنع بعد باخلاص زوجته ، وبعد مرور ستة عشر عاما على زواجهما قرر الزوج أن يضعها أمام اختبار جديد فقال لها :

— أيتها المرأة لقد قررت أن أتخذ لى زوجة أخرى وسوف أعيدك الى كوخ أبيك على نفس الهيئة التى كانت لك قبل الزواج ، وسيكون اختيارى لزوجة من نفس طبقتى .

وبذلت جريزيلدا جهدا كبيرا كى تغالب دموعها ونكست رأسها فى تواضع ووافقت على الطلاق ، وجردها المركيز من ثيابها الفاخرة لترتدى الأسمال ، وقبل أن تسلك طريق العودة الى كوخ أبيها أخبرها انركيز أنه سيتزوج من ابنة كونت ياناو وقال لها :

— انى على وشك أن أبعث فى طلب العروس الجديدة ؛ ولكنى أفقر الى وصيفة تقوم باعداد الغرف والاشراف على الترتيبات اللازمة للاحتفال ، ولما كنت خبيرة بمسالك القصر أرى أن تقومى بالخدمة كوصيفة فى القصر يوما أو يومين عليك أن تنظمى كل شئ وتوجهى الدعوات للسيدات اللاتى سيحضرن الحفل وعندما تتم مراسم الزواج ، يتحتم عليك أن تعودى الى كوخ أبيك .

وكانت تلك الكلمات بمثابة طعنات الخنجر التي أدمت قلبها . فلم يكن من المستطاع أن تنزع حب زوجها من قلبها بالسهوة التي أحملت بها تخلي المجد والسلطان عنها ، وأخذت جريزيلدا تجول في ردهات القصر في ثيابها الحفيرة وهي تشارك الخدم في أعمالهم : تكنس الحجرات وتنظف الأثاث وعندما أتمت عملها قامت بتوجيه الدعوات إلى سيدات المقاطعة اللاتي سيحضرن الحفل . وفي اليوم المحدد شاركت في استقبال المدعوين في ثيابها الخشنة ولكن بوجه مشرق ونظرات حانية ووصل المركيز في الساعة المحددة متأبطاً ذراع الزوجة الجديدة التي كانت آية في الحسن حقاً ، وعندما فرغ المركيز من تقديمها لجميع الضيوف الذين هنأه أغلبهم على حسن توفيقه في الاختيار قال وهو ينظر باسماء إلى جريزيلدا :

— مارأيك في عروسي ؟

— مولاي . أنى أحبها حبا لا مزيد عليه ، ولو أنها كانت عاقلة مثلما هي رقيقة فلا شك أنك ستكون أسعد الناس معها ؛ ولكنى أرجو مخلصاً ألا تنهج مع هذه السيدة الوديدة مثلما سلكت مع زوجك السابقة ؛ لأنها من أصل رفيع وهي في ريعان الشباب وقد ربيت خبر تربية بينما نشأت الأخرى لتجالد ضراوة الحياة .

وقال المركيز برقة :

— اصفحني عنى . اصفحني عنى . اصفحني عنى . انى أعرف مدى ما عاملتك به من غلظة يا جريزيلدا ؛ ولكنى لم أكن أو من بإخلاص النساء وثبات عواطفهن ولم أكن أصدق حتى أثبت لى عكس ما اعتقدت . اسمحى لى فى دقيقة واحدة من اللحظات السعيدة أن أصلح بعض خطئى ، وأن أرد لك كل ما حرمت عليك من سعادة طوال السنين الماضية هذه الشابة الحسناء هى ابنتك وابنتى يا عزيزتى جريزيلدا . انظرى . هذا هو ابنك ينظر من خلفها .

وقاد المركيز جريزيلدا من ذراعها وهي تبكى من الفرح إلى ابنائها وحينئذ وقفت جميع المدعوات وصحبتهن إلى حجرتها ؛ لتبدل ثيابها وترتدى أفخر ما لديها من الثياب اللاتقة ولأزمنتها بضعة أيام وهن يحتفلن ويمرحن . وبعث المركيز إلى أبيهما الراعى الفقير وأقطعته جناحاً من القصر ليعيش مع ابنته وأحفاده وزوج ابنته ، وعاش الجميع فى أتم ما يكون من السعادة والصفاء .

وقد أثرت قصص الديكاميرون في الكتاب المعاصرين لبوكاشيو ومن جاءوا بعده الى يومنا هذا وكما عاش كثير من الكتاب على فتات مائدة هوميروس، فقد حظيت قصص الديكاميرون بنفس المنزلة وقدر لها الانتشار الواسع ، وكان مصدر الهام كذلك لدرايدن وكيثس وتنيسون ، وترجمت القصص الى كل اللغات ؛ لتكون متعة للقراء على الدوام .

رحلات جہلیفہ
سویفت
۱۷۲۶ م

الحرية • هي الطابع العام لأدب سويفت

الطابع العام لأدب سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة في زمنه في استخدام فكره النافذ ، وجراته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلي • حتى لقد قيل ان نقده العقلي المحض للقيم الراسخة والسائدة ، يهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد ، والواقع ان اطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التي يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويفض ب غضبا جائحا لكل حجر على هذه الحرية العقلية التي هي أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر في مواجهة الكون وغوامضه • ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بنقد شديد ، يخيل للناس في أحيان كثيرة أنه يقطر مرارة • ولهذا السبب أيضا لا يوجه اهتمامه الأدبي والفكري لمظاهر الحياة البشرية السوية ، بل لموطن التعفن والخلل في قدرة جسارة على التشريع والتجريح والهجاء •

وخلاصة جهاد يونانان سويفت الأدبي والفكري أنه طالب حقيقة ، شديد الحماسة مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة متجلدا في سخط لجميع الولايات التي تصيبه في هذه الحرب الضروس التي شنها شاملة في جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس • وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل في سبيل شرف الانسان باعتباره كائنا عاقلا ، لا يهدر شرفه شيء كما يهدره كل تكبيل وكل انحراف في سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلي الشاسع •

وفي كل مجال من المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يونانان سويفت هدفا معينا وموضوعا محددا ولا يخرج على هذه القاعدة الا في كتاب واحد هو بيت القصيد من هذه السطور ألا وهو « رحلات جليفر » ، ففيه يتسع هدف سويفت اتساعا غير مألوف لديه فهو دراسة السلوك البشري من طرفيه المتناقضين ضالة وضخامة • وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة في نسيج العمل الأدبي مع شيء كثير من السخرية التي لا تبتعد عن صميم الواقع وهي تحلق في عالم الأسطورة والخرافة متناولا

بالنقد والهجاء السلوك الانصيادي والتفكير العلمي ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه .

ومن أطرف عناصر رحلات جليفر بلا شك نصويره الساخر لعالم السياسة والملا الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته ، واللواجب الخفية الحقيرة غالباً التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة . فإدا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الحادعة ؛ ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة الا بالثناء والأزدراء .

ولا يعفى من مبضعه الحاد وأنواره الكاشفة الفضاحة النظام الملكى عموماً فى كل زمان ومكان ، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات . والى وسائل الرشوة والتحاسد والصغار فى الخصومة . وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقاة من المبادئ والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب .

وكى يصل يوناثان سويفت الى هدفه العريض هذا ، ينقلنا بين عالمين متناقضين : عالم الأقرام وعالم العمالقة ، وبهذا التغير الهائل فى « مستوى النظر » يتغير « المنظور » تغيراً شاملاً . وهو اذ يبدأ بعالم الأقرام ، يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فإذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقرام يمارسونها ، شئ سخييف مفرط فى السخف نستغرق منه فى الضحك وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين اليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان .

وحين ينتقل بنا الى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا، كما يكشف لنا أيضاً عن ضآلتنا وغرورنا فيخرج المرء من الرحلتين وقد املأت نفسه بتفاهة شأن الانسان وتفاهة كل تلك النظم التى يستهول أمرها ويتناحر حولها ، وهو شعور يملأ الجوانح أسى واشفاقاً وأسفاً .

ويضع جليفر أمام أنظار الانسان القدوة الجديرة به لا فى عالم من أقزام البشر ولا فى عالم من عمالقتهم بل فى أرض « الحبول الفيلسوفة » ، حيث نرى حياة الحيوان مثلاً يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثاً فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها . فهذه الدواب ذوات الأربع تنظر الى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولا معقولة ؛ لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية . فحضارتنا البراقاة بكل ما فيها من تقدم شئ جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة .

حياة سويفت

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر . وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مستمر يعاوده .

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده - فمع أنه ولد لأبوين انجليزين، فقد ولد فى أيرلندا وقضى هناك معظم حياته . وبدأ فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج : أثر أسلافه وأثر بيئته . فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب . فقد أباه وسنه ستة شهور فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته . فهى لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثا فى انجلترا حتى تبهر فى سفينة دون أن تخطر سيدها وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدها . ولم يعد جوناثان الى أمه الا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث ، وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير للانجيل وكلف شيطانى باللهو والمزاح .

وفى السادسة التحق بمدرسة كلكنى والتحق فى الرابعة عشرة بكنية ترينيتى بدبلن وهنا أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام . ولم ينل البكالوريوس الا بشق الأنفس ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية لخلافه مع مساعد العميد فعاد الى بلده يجلله العار .

ولكنه وفق رغم ذلك فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل . وهو من أوساط الأدباء . وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لفظ حاقد مريب الأب الطبيعى لجوناثان نفسه ، وفتح له المنصب عشرين جنيها فى السنة ومكانا على المائدة الثانية مع الخدم . فغنى السكرتير الألعى جيبا واضمحل شأنه . فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألعى . فاذا فرغ لنفسه - وقليل ما كان يحدث ذلك - نسخ خواطره بالشعر غالبا .

سويفت أشهر نكرة فى عصره !!

ثم تغير عمل جوناثان سويفت . فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن . وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى . ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسة الانجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأيرلندى . ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب مهم فى كنيسة انجلترا ، كانت الشئ الوحيد

الذي ينكره عليه رؤساؤه أشد الانكار . فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية ، فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها فقد ياقى بأية قنبلة في أية لحظة على عقيدة اخوانه في الكنيسة . وكان الجميع وقتئذ يترفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الديسية في أوروبا ، وان لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل) .

وهذا العنوان كما ذكر في المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة فهم اذا قابلوا حوتا ، ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة . ثم يمضى في الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب خلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية) ومارتن (كنيسة انجلترا) وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب : هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتكم وصحتكم ما حييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها . كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعا في منزل واحد كما يعيش الاخوة . فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل .

وأخذ الاخوة الثلاثة معاطفهم - كما يقول سويفت - وسرعان ما نسوا وصية أبيهم وأخذ كل منهم يعدل في شكل معطفه مرات حسب تغير النظر الى شكل الأزياء .

وأخيرا نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف وصار الناظر اليه لا يتبين فيه المعطف الذي أعطاه اياه أبوه ، ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه - دون شريك - صاحب المعطف الحقيقي الوحيد ، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه . وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء .

يقول سويفت : وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الانجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطتهما الأصلية المعقولة .

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح في المحاولة نجاحا لا بأس به : فقد انتزع من المعطف كل شيء لا ضرورة له ، ولم يحرص الا على استبقاء تلك الحلي التي تغنى في تقوية الثوب أو اخفاء عيبه . وأما جاك

فاندفع منحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة • فاذا أتى الناس ينظرون اليها ويضحكون منها •• كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث •

ولم تنشر قصة البرميل الا بعد ان مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف • وهذه القصة وان يكن المقصود بها أن تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها ، فانها قد فشلت مع ذلك فى ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار أساقفتها ، لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى • لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته • وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته وأنه بحاجة الى أن يدارى والى أن يراقب •

ويلقى سويفت فى شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا : « يا الهى يا لها من عبقرية تطامنت لى حين ألقت ذلك الكتاب ! » • فهذه هى مأساته التى جلبت عليه النحس • ان عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير وعمدت الى ابقائه أسيرا فى منصب مغمور بعد منصب مغمور : من كنيسة دبلن الى ابرشية ريفية فى لاراكور ومن كنيسة لاراكور يعاد الى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن • ولكنه لا يمنح وظيفة مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرؤوا على أن يجاوزوا به وظيفة أسقف • لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا • وتعشى مع رئيس الوزراء ولعب الورق مع وزير المالية • كل هذا ولا جدوى • وكلما طلب أن يعين فى أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب • لقد أوغل قلبه فى الضنى والضم • وأرسل ملتصقه ذات مرة الى الملكة مباشرة •• وكانت نفس النتيجة السلبية • وظل سويفت الأسقف أشهر نكرة فى عصره •

ولكنه يحتفظ فى ذلك كله بمظهر البشر وتمتلى أيامه بالنكات والضحك فيما خلا الدوار الذى كان يختلف اليه دائما • وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات •

رجل يعلو محياه البشر ، ويضطرب صدره غضبا كأنه الاتون • فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه • لكن كتب أن يمثل فى حضرتهم دور اتباع • لقد قدم الى لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب أيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من سياسة انجلترا هما بولنجروك وهارلى •

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه فالمرء في لندن يجب أن يتسابق بأطرافه الأربعة ؛ ولكنه ظل نديمهما الأثير وان كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل ديفو من قبل، ولكنه يفترق في أنه يرفض أن ينال جزاء مما كتب . وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس في يده خمسين جنيها . فألقى الكاتب الشائر بالورقة في وجه هارلى وغادر الحجرة مفضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى حتى زاره هارلى في منزله ليعتذر له بنفسه .

ان سويفت لا يبغى بعمله مالا . بل يبغى وظيفة كبيرة . وهذا ما عجز دائما عن بلوغه سواء من هارلى أو من سواء ، غير أن اقامته بنندن وان فشلت سياسيا فقد كانت نصرا فكريا ، فغدا سويفت الفارس المعلم في مشارب لندن التي تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للمبارز باللسان وكان (الأسقف العجوز) أmeer المبارزين جميعا . وان لم يكن أكيسهم دائما . كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة ، وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد الى الايلام حقا . قال أحد كتاب سيرته : لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل . وقلة حظه من المرونة والكياسة .

كان ذهنه فذا في الأذهان ولا يتلطف في تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذي يخفى قبح الحياة . . وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع .

كذلك كان العميد سويفت ذلك المتهمم الوديع الرشيق العابس ذلك الأديب الذي يصفق لعبقريته واواعظ الذي يزدرى لصراحته والمعلم الذي يستشهد بأقواله في كل مكان ولا يفهمه أحد . عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا . انه لجبار عملاق مقيد بالأغلال في أرض الأقسام .



أصبح العميد سويفت لا يؤدي من الطقوس في أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الانجيل الذي يلحن فيه أيوب يوم ميلاده . انه ليزيد كل يوم ذراية بالانسان وخدمة لبني جنسه . فهو يتحمس لتخفيف أعباء الأيرلنديين وهو يصليهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه حبا وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل في شيفخوخته وحصار مطعمه الذي غلبه على

كل مطمح هو أن يخفف هذه الآلام . حدث مرة أن اقترحت الحكومة الانجليزية قانونا جائرا بالاييرلنديين : فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة ؛ فاضطرت الحكومة الى سحب الاقتراح وهذه هي الخطابات التي أمهرها سويقت بتوقيع م. ب دراير صاحب حانوت لبيع البضائع الايرلندية والتي كسبت لسويقت شكران الايرلنديين وعرفانهم على مر الزمن .

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير لقد ساعدتهم - كما قال - لا حبا لهم بل كراهة منه للعبودية . انه يعرف تلون الدهماء فهم مستعدون لأن يهملوا لجرأته في النضال عنهم . لكن أتراهم يحركون اصبعاً لانقاذه من مغبة جرأته ؟ وهو يروي قصة لتوضيح هذه الفكرة . كان أسباني يهودي يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهور مسحس من الأتباع ويخشى الصبية أن يحرموا المتعة اذا هو أنكر التهمة فهم يرتبونه على ظهره صائحين مشجعين : « موسى أقم على ثباتك » .

وظل سويقت على ثباته رغم الصبية الطائشين والفضوليين الوحشيين في العالم ، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى في حنثه بايمانه وانفعالاته وسخافاتة واحتياله وحربه . كان يذهله عدم انسانية الانسان نحو الانسان .

بلغ سويقت الآن أعوام الحكمة البصيرة وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية ، رحلات جليفر ، وبعث بمخطوط القصة في ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ الى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع رينشارد سمبسون ، زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال : لقد ائتمنتي مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط في وصف رحلاته . . وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز . وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها أن هناك شيئا من التهكم في موضوع أو موضوعين . ولكن الرأي متفق على أنها لا تجرح أحدا . ثم يمضى مستر سمبسون في خطابه فيعرض مائتي جنيه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر .

ونشر الكتاب في خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى في أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذي شنّه جلفر على غباء الجنس البشرى الهمجي ، فقد حسب كل امرئ أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب انما المعنى جاره . فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل . لقد فشل

فى تحقيق ما هدف اليه « أردت أن أغيظ الناس وأستثيرهم ، لا أن أرفه عنهم وأسليهم » . وقصة رحلات جلفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول مليء بالباطل والزهو . ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه . اذن لقل البجشع وزادت الدماثة . وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس . وقلت القسوة وزادت الرحمة وقل البهرج وزاد المجد . وقلت الوقاحة وزادت الحكمة . كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول : طالما حاولت أن أنشئ صداقة بين عقلاء الناس جميعا، وهم قل أن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة فى كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا العالم أمامهم سوقا .

وقبل وفاته عام ١٧٤٥ كنب دعاء وجد بعد موته فى أوراقه التى لم تنشر « اللهم انك تهب نعمتك وتصب نعمتك كما يشاء عدلك ورحمتك للذان وسعا كل شئ . . . فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبوا اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك أن نمنى به » . كان دائم التفكير فى هناء الانسان . . ذلك الساخر الذى واجه بنى الانسان بالعواء والشحناء .



الرحلات

يصرح سويفت بأن غايته القصوى من كتابه (رحلات جليفر) فى العالمين الأكبر والأصغر وممالك شتى فى آفاق الأرض « أن يوبخ الناس ويقرعهم لا أن يسليهم ويرفه عنهم » . ولكن هذا العبقرى لم يبلغ غايته هذه من كتابه هذا . فقد شاء ما فطر عليه البشر من أنانية وقصر نظر أن يقلب هذه الغاية وأبى الناس منذ نشر الكتاب فى سنة ١٧٨٦ حتى اليوم ، إلا أن يجدوا فيه مصدرا للتسلية والترفيه لا يقفان عند حد ، ولم يلتفتوا الى ما فى الكتاب من زجر وتقريع وتعنيف .

وظلت الأجيال من الكبار والصغار تقبل على رحلات جليفر بروح الاستمتاع على مستويات مختلفة ، أما الدرس والاعتبار فلم يغيرا من طبيعتهم كثيرا ولا قليلا .

ويبدأ الكتاب على لسان جليفر فيروي طفولته ونشأته واحترافه الطب والجراحة آخر الأمر ، وركوبه البحر على متن السفن طبيا لركابها في رحلاتها الى المشرق . وفي سنة ١٦٩٩ كانت تمخر السفينة البحار الجنوبية عندما ارتطمت بصخرة فانشقت . وظل جليفر يسبح على غير هدى ودفعه المد واتجاه الريح حتى مست قدمه الأرض في ظلمة الليل وارتقى على شاطئ مجهدا واستغرقه النوم حتى الصباح . وحين أيقظته حرارة الشمس هم بالنهوض ، فاذا هو مقيد الى الأرض وهم بتحريك رأسه فوجدها مشدودة الوثاق أيضا وأحس شيئا يتحرك باطف فوق ساقه ثم فوق صدره فحرك عينيه الى أسفل ولم يلبث أن تبين مخلوقا بشريا لا يبلغ ارتفاعه ست بوصات (١٥ سنتيمترا) ، وفي يده قوس ونشاب، ثم شعر بعدد آخر من نظرائه يزحفون في أثره وبحركة عنيفة تمكن جليفر من تحطيم قيود ذراعه اليسرى ؛ ولكن هذه المخلوقات الصغيرة تمكنت من الفرار قبل أن يقبض عليها في راحة يده وأحس بمئات السهام ترشق في يده اليسرى فكان لها وقع كوخز الابر . وظل يئن أسى وألما الى أن أقدم بعضهم على قطع الحبال التي تقيد حركة رأسه وعندئذ استدار قليلا وأبصر شخصا يبدو زعيم القوم يلقي عليه حديثا طويلا لم يفهم منه شيئا . وحاول جليفر بالإشارة أن يفهمه مبلغ ما يحسه من الجوع . ففهم الزعيم مراده وسرعان ما جىء بسلالم كثيرة ألقيت على جانبيه وصعدا مئات من هؤلاء الأقزام محملين بالطعام والشراب فيصبون سلالهم ودلاءهم وقربهم في فمه !

ويبدو أن رسالة سريعة وصلت امبراطورهم بمجرد اكتشافه نائما على الشاطئ واجتمع مجلس البلاط وقرر العناية بتغذيته وتأمين سلامته ونقله الى العاصمة . ولهذا الغرض مزجوا الخمر التي صبوها في فمه بمخدر فاستغرقه النوم كرة أخرى . ولاحظ جليفر أن هؤلاء القوم وصلوا الى مستوى رفيع من الاتقان الآلى ؛ فاستطاعوا بواسطة الحبال والبكر أن يرفعوه فوق آلة ضخمة في زمن لا يزيد على ثلاث ساعات . وهذه الآلة معدة لنقل الأشجار الكبيرة وغيرها من الأحمال الثقال . وشد الى المركبة العجيبة ألف وخمسمائة جواد من أضخم جيادهم . ويبلغ ارتفاع كل منها نحو أربع بوصات ونصف (١٠ سنتيمترات تقريبا) ، وتولت جره الى العاصمة حيث حبسوه مقيدا بالسلاسل . وحضر الامبراطور لمشاهدته وعقد البلاط جلسات كثيرة احتدمت فيها المناقشات حول خطورة حجمه ، وما يترتب على تحطيمه لأغلاله واحتمالات المجاعة التي قد تنشأ عن الاحتفاظ به . بيد أن وداعة جليفر طمأنت بالهم وتوثقت الألفة بينه وبين الامبراطور . وأخذ يدرس أحوال هذا الشعب السياسية والاختلافات

التافهة بين مبادئها . فهناك مثلا خلاف حول ارتفاع كعب الحذاء . وهناك أيضا عداء بين جزيرة ليليبوت هذه وجزيرة بليفكسكو التي أعدت أسطولا للغزو . وأراد الامبراطور أن يستغل ضخامة جليفر في سحق أعدائه فأطلقه وخاض ماء البحر الذي وصل الى ركبتيه ثم شرع يحطم أسطول الأعداء أو يأسر سفنهم ويعود بها الى حلفائه . وطمع الامبراطور في استخدام جليفر لغزو هؤلاء الأعداء واحتلال بلادهم واستعباد أهلها ؛ فرفض جليفر أن يكون أداة لهذا الغرض الهمجي . فغضب الامبراطور وأخذ يدبر المكائد للانتقام منه وفطن جليفر الى الحقيقة فقرر الرحيل الى جزيرة الأعداء ومن هناك أعدوا له الوسائل للاقلاع عائدا الى بلاده ، وأعطوه الوفا من أغنامهم وأبقارهم التي يشبه حجمها النمل الكبير . وأخذ معه أنواعا من الطرائف في دقة حجمها وخصوصا من الكائنات الحية والمصنوعات المستخدمة في الحياة اليومية والفاكهة ، على أمل أن يربى سلالات من الأغنام والماشية والخيول في قرينته وأصر الملك على تفتيش جيوبه بدقة شديدة خشية أن يخفى فيها بعض رعاياه !

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام ، لمح على البعد شراع سفينة انجليزية فظل يصرخ ويلوح وأخيرا أبصره الربان وانتشله ، بعد أن وضع جليفر في جيوبه جميع أبقاره وأغنامه . ولكن فيران السفينة الانجليزية كانت تفرس أبقاره .. !!

وبعد اقامة وجيزة في انجلترا مع زوجته وأسرته عاوده الشوق الى المغامرات والأسفار ؛ فاستقل سفينة تجارية كبيرة متجهة الى الشرق أيضا . وبعد أن اجتازت السفينة مضيق مدغشقر هاجمتها الرياح الموسمية وضلت طريقها ونضب الماء العذب فنزل مع بعض البحارة الى أقرب جزيرة للبحث عن الماء . وظل يسير مقدار ميل على غير جدوى ثم هم بالعودة فأبصر رفاقه البحارة في زورقهم يجدفون بهمة ، عائدين الى السفينة ومن ورائهم مخلوق هائل يخوض الماء الى ركبتيه في أثرهم .

وهكذا وقع جليفر في أسر أهالي بروبدنجناح العمالقة الذين اجتمعوا حوله ينلهون به ويدفعونه بين السبابة والابهام ؛ ليتأملوه عن قرب وكأنه نوع غريب من الحشرات !

واحتفظ به صاحب الضيعة الذي أسره وفرحت زوجته بهذا المخلوق الصغير بعد أن صرخت لأول وهلة كما تصرخ سائر النساء لمنظر شيء يحسبونه فأرا . وزاد افتتان الزوجة به حين رآته يحسن الانعناء ويعاملها

بآداب المجتمع الراقى ، ويستخدم الشوكة والسكين اللتين كان يحملهما فى جيبه . ولم يجد جليفر عنثا الا من ابن ذلك المزارع وهو غلام فى العاشرة مدلل يعامل الحيوانات بقسوة . أما طفله الصغير الذى لا يتجاوز عمره العام فكان يعتبره ذميتة المفضلة . وفى الليل نام على وسادة صغيرة فى فراش الزوجين الضخم وهاجمه فأران فى حجم كلاب الصيد عندنا ولولا براعته فى استخدام خنجره بحيث جرح أحدهما فلاذت الفيران بالفرار لنهشته بسهولة .

وفكر المزارع فى استغلال جليفر تجاريا فراح يطوف به الموالد والقرى والمدن ويجتمع الناس لمشاهدته فيعرض عليهم العابه ؛ حتى جمع انرجل ثروة كبيرة وهزل جسم جليفر من شدة الارهاق فباعه الرجل للملكة بألف قطعة ذهبية . وهكذا صار مهرج الملكة القزم واستطاع أن يرى دخائل حياة البلاط عن كثب لسهولة اختفائه تحت الكراسى وخلف الستائر وقضى هناك ثلاث سنوات . وفى بعض الرحلات التى قام بها انبلاط حملته الوصيفة فى صندوق صغير خاص كأقفاص الطيور عندنا . وغفلت عنه الوصيفة على الشاطئ فحملة نسر هو وقفصه ووقعت بين النسر معركة على هذه الفريسة فسقط الصندوق فى البحر وتقاذفه الموج ، الى أن انتشلته سفينة انجليزية مارة من هناك فأعادته الى انجلترا ، حيث أقسمت زوجته ألا تدعه يركب البحر بعد ذلك . ولكن قبل انقضاء عشرة أيام زاره ربان كبير المقام وظل يغريه حتى قبل العمل طبيا وجراحا على سفينته المتجهة الى جزائر الهند الشرقية . وهكذا بدأت رحلة جليفر الثالثة الى ممالك كثيرة فى الشرق الأقصى حتى وصل الى اليابان وأحاط بعادات أهلها وشرائعهم .

أما رحلته الرابعة فهى التى صار فيها ربانا للباخرة وفى مجاهل البحر ثار عليه البحارة وحبسوه فى قمرته مدة طويلة ، ثم تركوه على شاطئ جزيرة مجهولة وسكانها هم « الخيول الفيلسوفة » وتعرف عاداتهم وأحوال معيشتهم . وحاول أسره أن يعلمه لغتهم ، ثم بدأ يلقنه مفهوم الحق والباطل والصواب والخطأ فى نظر هذه السلالة من الخيول الحكيمة ويبدأ اعتراضه ورفضه للمفهوم البشرى لهذه المعانى . ثم يتطرق الحوار الى مناقشة أحوال الحضارة الأوربية وأنظمة الحكم والدستور الانجليزى وسمات رؤساء الوزارات ، ومن خلال هذه المناقشات تبرز حكمة هذه الحيوانات أرجح فى مواطن كثيرة من سلوك البشر المتحضرين فى دول الغرب المتقدمة . . . ويفيض جليفر فى قصائل هذه

الحيوانات وأساليبها في تربية الأحداث ، ونظم السياسة والحكم لديها وسائر عاداتهم في أحوال المعاش المختلفة بما في ذلك أسلوب البناء وشعائر الدفن . ويطنب في وصف سعادتته بين ظهرائهم وتقدمه في المنطق والفضيلة؛ الى أن طلب اليه أن يغادر بلادهم وزودوه للسفر فارتحل حزينا على فراقهم الذي جاء على كره منه . ولولا ذلك لآثر البقاء .

الرسائل
قولية

١٧٣٢ م

فولتير .. خلاصة حياة عصر !!

استهل الكاتب البريطاني المؤرخ النقيادة توماس كارليتل مقاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسي الشهير فولتير بقوله : « لو قدر للطموح أن يختار طريقه ، وللارادة في المحاولات الانسانية أن ترادف الموهبة لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب » .

وفي موضع آخر من المقال نفسه يقول : « اذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية ؛ فانه ليس هناك أحد من رجال الفكر في العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوروبين خالصين مثل فولتير » .

والواقع أن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، قد بلغ في عصره من الشهرة الواسعة والمكانة المرموقة العالية ما لم يبلغه كاتب قبله أو بعده ، حتى أصبح علما على عصره ورمزا له وليس في مستطاع انسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير .

وقد كتب عن فولتير من زوايا عدة وتناقضت الأحكام في تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ولم يكن هناك مناص من ذلك ؛ فقد كان الرجل متعدد الجوانب وتناول في حياته موضوعات شتى وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره .



ووصفه فيكتور هوجو فقال : « ان ذكرت اسم فولتير فقد ذكرت أخص مميزات القرن الثامن عشر من أوله الى منتهاه » وقد اقتصت إيطاليا بعصر النهضة ، واقتصت ألمانيا بعهد الاصلاح اللوثرى ؛ ولكن فرنسا اقتصت بفولتير فقد كان يضم في برديه النهضة والاصلاح ونصف الثورة الفرنسية ، كما كان يجمع بين شك « مونتاني » وسخرية « رابليه » .

ووصفه لامارتين فقال : « ان الأقدار قد وهبت له عمرا قد جاوز الثمانين ، فاستطاع أن يقضى على فساد عصره وقد مكثه عمره الطويل أن يحارب الزمن فلما سقط في حومة الوغى كان سقوطه سقوط الظافر المنتصر » . ويوم وقعت عينا لويس السادس عشر - وهو في سجنه -

على مؤلفات فولتير وروسو قال : ان هذين الرجلين قد أوديا بفرنسا . .
وهو يقصد بفرنسا أسرته هو بالطبع .

ومن ماثور أقوال فولتير : « ان الكتب تحكم العالم أو على الأقل تحكم
الأمم ذوات اللغات المكتوبة . أما ما سواها فلا تدخل في الحساب . . » .

مولد فولتير ونشأته :

ما من رجل علم الكثيرين من معاصريه ومن بعد عصره أن يفكروا وأن
يستغلوا قواهم العقلية مثل فولتير ، وما من قوة استطاعت أن تطفىء ذلك
الضياء الذي انبثق في أنحاء أوروبا نتيجة لتعاليم فولتير والذي لا ينفك
يتألق في سمائها .

ولقد كان أولئك الذين لا يحبون أن يفكر الانسان لنفسه والذين
يحبون أن يظل العقل البشري جامدا يقولون ان فولتير رجل شاذ ؛ لأنه
كان يصر على أن من حق الانسان أن يشك فيما لا يستطيع أن يؤمن به .
والذين لم يطالعوا حرفا واحدا مما كتبه فولتير يؤكدون أنه كان رجلا
ملحدا ، على أن شعر فولتير كان خير جواب على هذا الاتهام - وان كان لم
يعن بتوجيهه الى هؤلاء القوم وانما كان يتوسل به الى الله - انه يقول :

يا الهى الذى لا نراه والذى تعلن عن وجوده أعماله .

يا الهى استمع الى كلماتى الأخيرة .

اذا كنت قد أخطأت فائما كنت أبحث عن قانونك .

وقد يضل قلبى ولكنه عامر بك .

وما كان هذا الحادا ولكنه نداء قلب خاشع مستكين وما تهجم فولتير
على عقيدة دينية ؛ ولكنه كان يسخر من الأضاليل المبتدعة التى لا تمت
الى العقائد بصلة .

ولد الطفل الذى يدعى بعد ذلك باسم فولتير (وهو الاسم الذى
عرف به فى كتاباته) فى مدينة باريس يوم ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤
وسمى فرانسوا - ماري أروا وتوفيت أمه بعد سبع سنوات من ولادته
وكانت صحته منذ بداية عهده فى هذه الحياة سيئة ، ولم يستطع على مر
الأيام أن ينفذ عن نفسه هذا الاعتلال الصحى ، كان طفلا نحيف الجسم
ذا ابتسامة شيطانية شديدة الجاذبية وله ولع غير طبيعى بدروسه .

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره أعلن أنه اعتزم أن يصبح من رجال
الأدب وكانما كان المداد يجرى فى عروقه ، فقد كان الشعر والمسرحيات
تتدفق منه فى غير توقف .

وكان أبوه رجلا من الطبقة المتوسطة يقترب قليلا من طبقة الأثرياء وكان طموحا من الوجهة الاجتماعية ، وأراد أن ينقذ ابنه من حياة مهينة حين دفع به الى مكتب محاماة ولكن الشاب فولتير أظهر فشله في هذه الناحية فألحقه أبوه بالسلك السياسي وبعث به الى هولندا وسرعان ما حطم أول قاعدة في عمله السياسي حين فر مع فتاة فعاد الى وطنه يحمل هذه الوسمة ومع هذا فقد كان لا ينفك يريد أن يكتب وصاح أبوه فيه : « انك بالكتابة ستموت جوعا » وكانما أراد أن يساعد القدر في مهمته ، فحرم ابنه من الميراث ، وسرعان ما خاب تنبؤ أبيه ففي خلال عشر سنوات نجح فولتير نجاحا ماليا فاق أحلام أى شاعر .

فولتير

ولقد كن من أكبر عوامل نجاح فولتير ما عند اليه الرقيب من مصادرة كل كتب فولتير تقريبا وما اتبعه رجال الشرطة من وقف تمثيل مسرحياته في الليلة الثالثة من عرضها ؛ وكان من نتيجة ذلك أن كانت المسارح تفص بالباريسيين في ليالى الافتتاح ، وإن كتبه كانت تباع وتقرأ كأنها مطبوعات صادرة من مؤسسة تختفى تحت الأرض عن أعين الرقباء وتسربت الكتب الى الأقطار المجاورة فطبقت شهر فولتير هذه الآفاق الجديدة . وكانت التهمة الرسمية الملصقة به أنه يفسد الأخلاق والمبادئ . أنعامه ، ولكنها لم تشر أية إشارة الى الخروج عن الآداب كان المبدأ وقتذاك أن التهجم على الحكومة وانتقاد أعمالها يعد من أسوأ ضروب (المنافاة للشرف والآداب) . ومسرحيات فولتير قد وضعت على أنها وقعت في بلاد الفرس واليونان وبيرو والصين إلا أن كل انسان كان يدرك المعانى المزدوجة وما بين السطور ويضح بالضحك الساخر ، والضحك شعلة لا تستطيع الحكومة أن تعمل على اطفائها ولم تملك الحكومة الفرنسية إلا أن تتبع مع فولتير طريقة استبدادية تعسفية فأودعته سجن الباستيل ، ولم تكن الحكومة في ذلك العهد ملزمة أن تثبت التهمة ضد انسان لى تودعه السجن ، فقد كان حسبها مجرد الشك والاشتباه ويبقى الانسان في السجن دون أن يفرج عنه الا اذا كان له أصدقاء أقوياء يبذلون جهودهم ونفوذهم في اخراجه ، وقد مكث أصدقاء فولتير أحد عشر شهرا حتى استطاعوا الافراج عنه بعد أن ازدادت صحته سوءا وضعفا وبعد أن أصبح أشد ضراوة وخطورة ، الى حد أن أحد النبلاء السخفاء ويدعى الشيفالبيه دى روهان وجه اليه كثيرا من الاهانات قابلها فولتير بما عهد فيه من السخرية اللاذعة فلم يسع الشيفالبيه الا أن يسلط عليه بعض خدمه لضربه والشيفالبيه يدير حركة المعركة وهو جالس في مركبته !

وكان في استطاعة فولتير أن يحتفل ما يحقق به من ظلم وعسف أما ما ينال الآخرين منهما فلا يستطيع احتمالها .

حين كانت أعظم ممثلات فرنسا، أدريين ليكوفريه، تحتضر كان فولتير قابعا الى جانب فراشها يستمع الى حديثها وهي تقص عليه كيف أن القسيس قد طلب منها أنه تعلن أن قننها التمثيل هو عمل معيب وكيف أنها رفضت هذا المطلب رفضا ياتا ؛ فتركها القسيس دون أن يمنحها الغفران الذي ولما ماتت هذه الممثلة العظيمة أسرع رجال البوليس بجثتها ودفنوها في حفرة وأهالوا عليها الحجر الحي .

منذ ذلك اليوم طوى بين جوانحه كراهية متأججة لا للدين المسيحي كما زعم البعض زورا ، بل للمقسوة التي تتنافى مع الدين السامع سواء أكانت هذه القسوة فرنسية أم غير فرنسية ، وبسواء أكانت صادرة من الكاثوليك أم البروتستانت وكان يقول : « ان الرجل الذي يقول لي : اتبع عقائدي والا حلت بك لعنة الله ، سيقول لي بعد ذلك : اتبع عقائدي والا قتلتك » .

ورجل له مثل هذا اللسان ، لا يمكن أن يكون في مأمن في بعض الأقطار حتى في عصرنا الحالي ؛ ولهذا فسرعان ما أودع فولتير سجين الياستيل للمرة الثانية ثم أطلق سراحه حين وعد بمغادرة فرنسا وأبحر الى انجلترا وهو متلهف القلب فوصل لندن عام ١٧٢٦ وقد تأثر أبلغ التأثير حين شاهد جنازة السير اسحاق نيوتن العالم الشهير فلم يعتد فولتير أن يرى حكومة فرنسا تبدي مثل هذا التقدير العظيم الذي أبدته الحكومة الانجليزية والشعب الانجليزي عند وفاة عالم مثل نيوتن والاحتفال بجنازته ودفنه في هذا الاحتفال الضخم ، كذلك أدهشه في انجلترا ما يسبغه الشعب الانجليزي على شعرائه من التعظيم والاحلال ، وما في مجلس العموم البريطاني من القوة والاستقلال في الرأي وأكثر من هذا وذلك ما رآه رأى العين من عدالة القضاء الانجليزي .

وفي عام ١٧٢٩ ، وكان فولتير قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، تسلم تصريحاً من الحكومة الفرنسية بعودته الى فرنسا ولم ينقض وقت طويل حتى ندمت فرنسا على هذا التصريح الذي منحه الى فولتير .

واستطاع فولتير بما اكتسبه من الخبرة التجارية مدة اقامته في انجلترا أن يشتغل بتصدير البضائع الى أمريكا والهند وغيرها من أقطار العالم فعادت عليه هذه التجارة بشروة جعلته من الأغنياء وكان بطبيعته

يحب حياة الرفاهية ، ومكنته ثروته من الاستمتاع بها وارتداء الثياب
الأنيقة واقتناء المركبات ، وراح يدعو غيره من الناس إلى الاستمتاع
ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فقد كان فولتير يحس بما يعانيه الناس من
الشقاء والتعاسة ، بيد أن فولتير كان له من الآراء الأخلاقية ما هو أنبل
من آراء ناقديه : لقد كان يرى أن الإنسان قد خلق حرا طليقا ومستولا عن
أعماله وأن ضميره وحده هو الذي يتولى الحكم على عمله كما قال في
شعره :

إذا كان الإنسان قد خلق حرا
فليه وجده أن يحكم نفسه
وإذا حكمه جبابرة ظالمون فعليه
أن ينتزعهم من فوق عروشهم .

وكان فولتير يهاجم هذه المساوىء بذكائه ونبوغه هجوما عنيفا وكان
يقول : « ان تجارتي هي أن أقول كل ما يجول في ذهني » وما جال في
ذهنه احتواه ٩٩ مجلدا . قال كل ما اضطرب به جنانه في مسرحياته وفي
شعره وفي رواياته وفي نشراته وفي مقالاته وفي رسائله التي بلغت
١٠٠٠٠ رسالة بعث بها إلى مشاهير القوم في جميع أنحاء أوروبا . ومن
بين هؤلاء كاترين الثانية قيصرة روسيا ، التي بعثت إليه بهدايا عظيمة
والملك كرسطيان السابع ملك الدنمارك وجوستاف الثالث ملك السويد
الذي وعد أن ينفذ ما أشار به فولتير وأنه سيحاول أن يرتفع بحياة قومه
إلى المستوى الانساني ولم يستطع فريدريك الكبير حين كان وليا للعهد
أن يغري فولتير بالقدوم إلى بوتسدام ؛ فرحل إليه متنكرا ليقدم إليه في
باريس فروض الاجلال .

على أنه جاء وقت على فولتير كان يتنقل من مكان إلى مكان مختفيا عن
الأنظار وعن العيون التي كانت تترقبه للقبض عليه ، وكان يضطر أحيانا
إلى الفرار من فرنسا إلى الأقطار الأجنبية : فقد كان كل كتاب جديد يحدث
انفجارا جديدا من الحقد والسخط عند أولياء الأمور ويصبح الكتاب
أو صاحبه في مازق حرج ، وكان من أثر ثورة حكومة فرنسا على كتب
فولتير أن وجدت هذه الكتب طريقها إلى الأقطار الأخرى .

بعد ذلك بادر بقبول دعوة فريدريك الأكبر التي ظلت قائمة وكان
كل من فريدريك وفولتير يتبادل الإعجاب مع صاحبه منذ شبابهما وكان
كلاهما عنيدا شديدا المراس أنانيا قويا ماهرا ذكيا . ولما وفد فولتير إلى

بروسيا وجد الملك أن ضيفه الشهير لا يمكن أن يقبل دور النديم كذلك تارت تأثرة فولتير على الروح العسكرية السائدة هناك وسرعان ما وقع الشقاق بينهما ؛ فوجد فولتير نفسه في الطريق الى خارج البلاد واذا به يجد كل حدود أوروبا مغلقة في وجهه بفضل نفوذ فريدريك الأكبر .

وفي عام ١٧٥٥ وجد الفيلسوف الكهل ملجأ له وملاذا في جمهورية جنوا الصغيرة وهناك ابتاع دارا أمها كل رجل عظيم في أوروبا استطاع أن يقوم بالرحلة اليها وفي هذه الدار كان فولتير يستقبلهم استقبالا حافلا ، وفي عينيه الخابيتين بريق وعلى وجهه المجمع ابتسامته القديمة الخبيثة وكان يحتسى القهوة بشراهة ويحدث ضيوفه أشهى الأحاديث وكان الضيوف يجيئون لقضاء ثلاثة أيام فيسكنون ثلاثة شهور .

وكان بره بالناس أقل علانية من ضيافته وكان الكثيرون من الفقراء أو المضطهدين دينيا أو سياسيا يقدمون اليه ويفدون عليه طلبا لنجدتهم ، وبدأ فولتير تشييد دور لهم حتى أصبحت ضيعته قرية صغيرة فشييد لأهلها كنيسة ومدرسة لأطفالهم ، وعهد اليهم بالأعمال التي يستطيعون أداءها ، وكان أغلب هؤلاء اللاجئين من ضناع الساعات السويسريين ، وسرعان ما وجد فولتير نفسه صاحب تجارة ساعات رابحة . فكان يبيع ساعاته أقل من غيره بمقدار ثلث الثمن . وكان يرسل رسالة شخصية مع كلب طلب ، ومثل هذه الرسائل أغلى وأقيم من كل الساعات التي أنتجها .

وكان في الامكان أن يعيش فولتير في سلام ودعة بعد أن أصبح واسع الثراء ؛ ولكن أشد معاركة المريزة وأعظم أعماله جميعا كانا عام ١٧٦٢ حين قام المتعصبون الدينيون في مدينة تولوز باحتفالاتهم لانقضاء مائتي عام على ذبح ٤٠٠٠ مارق من الدين وفي ذلك الوقت وجدوا شابا مشنوقا في بيدر (جرن) وذاعت الاشاعات ان هذا الشاب كان بروتستانتيا وأراد أن يصبح كاثوليكيًا ونشر المتعصبون الدينيون أن والد هذا الشاب وهو كهل فان هو الذي شنق ابنه الشاب القوي ، وبعد ضروب من التعذيب الرهيب لم يعترف المسكين بشيء وامتدت يد القانون بالانتقام من جميع أفراد الأسرة .

ولما اهتم فولتير بهذه القضية بدأ يكشف عن الطبيعة المرعبة للقانون الجنائي كما يطبق في فرنسا ، بل وفي كل البلاد الأوروبية ما عدا انجلترا ؛ لم يكن هناك محلفون ولا يسمح للمتهم بالاستعانة برجال القانون

ولا يسمح له بتقديم أية بينة في مصلحته والذين يقدمون الاتهام يقدمون شهادات سرية ويقيم القضاة من أنفسهم نوابا . وعلم فولتير الى جانب كل ذلك أن مواد القانون الجنائي ليست كلها مكتوبة ، بل كانت في رؤوس القائمين بالمحاكمات و « تترجم » كما يحلو لهم لاثبات الاتهام ولم يكن هذا بالأمر الجديد ، بل كان متبعا منذ العصور المظلمة . ولم يكن الأغنياء الممتازون يعرفون شيئا عن هذا القانون ، وكانوا يحسبون أن الفقراء والمساكين الذين يعاقبون إنما هم يستحقون هذا العقاب حقا .

واندفع فولتير بكل قوته ونبوغه في الهجوم على رجال القانون ورجال الكنيسة والملوك وجميع الصحف الأوروبية ، يطالبهم جميعا بإعادة التحقيق في تلك القضية ولم يسع الملك إلا أن يخضع للجماهير التي أثارها فولتير خلال ثلاث سنوات قضاها في هجومه لم يهدأ له بال ولم تغض له عين ولم تبتسم له شفاه وأعيد التحقيق في القضية وثبتت براءة الأموات والأحياء . وأرادت محكمة تولوز أن تمحو هذه القضية التي وصفتها بوصمة العار من سجلاتها وأعيد النظر في قانون الجنايات الذي ظل ٨٠٠ عام لا يفكر أحد في دراسته وكان كل ذلك بفضل ذلك الرجل الكهل « فولتير » .

وما كاد يصدر الحكم بالبراءة في تلك القضية ، حتى هرع كل مظلوم في القضايا القديمة الى فولتير فانطلق يكشف عن المآسي الرهيبة والمخازي ولا يهدأ له بال حتى يجرى العدل مجراه ، وراح يطالب بإبعاد الدين عن السياسة وعن القانون وأن يعكف رجال الدين على الأعمال الدينية والروحانية التي طال إهمالها . وظل فولتير في حملته يفسر الفرق بين مخالفة القانون وبين الخطيئة ويقول ان الله سيعاقب مرتكب الخطيئة اذا أراد أما من ناحية القانون « فأننا نحب القوانين ويجب أن نكون في خدمتها وأن نحمل كل أعبائها وكل من ينتهك حرمة القانون يكون انسانا لا يحب وطنه » .

وجاء يوم اشتد فيه حنين فولتير الى وطنه وعظم شوقه الى رؤية باريس قبل موته ، وفي أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٧٧٧ وقفت مركبة أمام ضابط الجمارك الذي أراد أن يرى هل تحمل هذه المركبة أشياء ممنوعة واذا به يسمع ضحكة خفيفة وصوتا يقول له : « لا شيء ممنوعا داخل المركبة عداي » ، وبادر الضابط وفتح باب المركبة وصاح : « يا الهى انه مسيو فولتير ! » ، لأن تلك الابتسامة المفضية كان يعرفها الملايين الذين لم تقع أنظارهم على شخص فولتير .

واستقبلته باريس استقبالا رائعا ، وفتحت الاكاديمية الاهلية التي حاربته طويلا ذراعيها لذلك الاديب الثائر العظيم واصطف كل موظفي مسرح الكوميدي فرانسيز ، أمام الباب لتحية المؤلف المسرحي العظيم .

وقضى هذا الاديب الثائر نحبه وهو في الثالثة والثمانين من عمره ، وكان ذلك في مايو عام ١٧٧٨ وكانت آخر كلماته التي أملاها على سكرتيره هي :

« اننى أموت وأنا أعبد الله وأحب أصدقائي ولا أكره أعدائي وأزدري الخرافات » .

وكان خير جزاء ناله فولتير حين قامت الثورة الفرنسية وأخرج الناس جثته ووضعوا نعشه فوق أنقاض الباستيل مدة ليلة ، فقد كان ليديه الضعيفتين الفضل في القضاء على هذا السجن العتيد الرهيب .



فولتير المؤرخ

ولقد كان فولتير من أشد المهتمين بالتاريخ فكتب فيه لكن بعين الفيلسوف لا بعين المؤرخ التقليدي الذي يقتصر التاريخ بالنسبة له على مجرد سرد الحوادث وتوخى الدقة في التاريخ لها والامام بتفصيلاتها ، فلقد كان التاريخ الانساني بالنسبة لفولتير وحدة واحدة ينظر اليه ككل ويرى أن جوهره هو التقدم المطرد الذي يحققه الانسان فليست في التاريخ معجزة لا يمكن تفسيرها ؛ لأن ثمة عوامل ثلاثة تؤثر على فكر البشر ومن ثم على صناعتهم لتاريخهم هي المناخ ونوع الحكم والدين . وان وضعنا هذه العوامل في الاعتبار استطعنا تفسير لغز هذا العالم ، فان انتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية وتقدم الأخلاق والعلوم والفنون كل هذا جرى بصورة طبيعية ، وكل هذا سيسنمر متزايدا كلما توسع أفق العقل البشري وكلما أحرز قدرا أكبر من التقدم العلمي والصناعي والفني والأخلاقي والسياسي مما يتناسب أكثر مع حاجات الانسانية لا فرق في ذلك بين انجازات أمم الشرق القديم وانجازات الغربيين المحدثين ، الا فرقا في درجة التطور الذي وصلنا اليه وزيادة كم الاكتشافات والمخترعات التي ساهمت في السيطرة أكثر على الطبيعة ، وفتحت الآفاق بصورة أكثر اتساعا أمام الانسان .

وهكذا تبلورت لدى فولتير نظرية في تفسير التاريخ هي ما يمكن أن نطلق عليه نظرية التقدم ، وهي نظرية تركز - كما اتضح لنا - على الانجازات العقلية للبشر وتتبع تطور هذه الانجازات في مختلف الميادين فالتاريخ بالنسبة له خط مستقيم تسار فيه جميع البشر منذ الامة المصرية القديمة والى اليوم وكل الامم ساهمت في صنعه بأقذار متفاوتة وعلى حساب ما تمتاز به شعوبها .



الخطابات الفلسفية

في عام ١٧٣١ قضى على فولتير أن ينفي مرة أخرى . كانت أدريين ليكوفريز ممثلة عظيمة أعجب بها فولتير ولما ماتت ، رفضت الكنيسة أن تقام لها الطقوس الدينية وكذلك كانت تفعل مع المثلين جميعا ، كما أسلفنا القول ، ثم دفنت بموازى ليكوفريز على شاطئ السين في أرض موات . فسخط فولتير وشيع الجنازة ثم أحتج قائلا :

« آه ! هل أرى دائما أمتي ضعيفة . »

« غيرة واثقة من رغباتها تعيب ما تعجب به . »

« وأخلاقنا وقوانيننا في تعارض دائم . »

« والفرنسي الطائش تطويه دوما دولة الخرافات ؟ »

« ماذا . ألا يجرو الناس على التفكير . »

« الا اذا كانوا في انجلترا وخذوها ؟ »

« يا لك من منافسة لأثينا ! أي للندن ! أيتها الأرض الطيبة ! »

« لقد عرفت كيف تتخلصين من الأوهام المخزية التي . »

« سببت الحروب الأهلية كما قضيت على الطغاة . »

« فوق أرضك يستطيع الانسان أن يفضى بكل ما يجول

بخاطره . »

« وأن يتحمل في سبيله كل شيء . »

« لا يمتنع فيك فن ولكل نجاح مجده . »

« فصاحب النصر في تلال ، أين النصر . »

« ودرايدن الجميل وأديسون الحكيم . »

- « أوفلس الظريفة ونيوتن الخالد » .
- « كل أولئك قد خلدت ذكراهم » .
- « ولو كانت ليكوفير في لندن لكان لها قبر » .
- « بين ذوي المواهب والملوك والأبطال » .

« هذا التمجيد لفتاة من فتيات المسرح اعتبر شركا كبيرا » . ففر فولتير والتجأ الى قرية من قرى نورمانديا . وبعد قليل طبعت في روان سرا « خطابات فلسفية » عن الانجليز كان كتابا عجيبا ذا أثر خطير وان كان بسيط العبارة . لم يكن من المستطاع أن يقال ان الكتاب عميق أو ان معلوماته قد روعيت فيها الدقة الشديدة ، غير أنه حقق الغرض الذي كان يرمى اليه المؤلف : وهو أن يعرف الفرنسيين انجلترا التي كانوا يجهلونها ، وأن يحملهم على التفكير في عيوب نظمهم ويغير آراءهم الدينية والسياسية .

بدأ كتابه بخمسة خطابات عن المذاهب : الكويكر والانجليكان والبرسبيترين والسوسينيان والاريوسيين . وهذا الموضوع كان مفضلا دائما عند فولتير . ومن اليسير أن نعلم سبب هذا فهو حين يبين اختلاف العقائد الدينية يظهر ضعف كل منها . ومن ناحية أخرى كان في استطاعته أن يؤيد آراء ينسبها الى الذين يصفهم من أشخاص ولو عرضها هو لتعرض للخطر .

وبعد الموضوعات الدينية عرض المسائل السياسية : فكتب خطابين عن البرلمان والحكومة وكانت قوة مجلس العموم وانعدام بعض الامتيازات يرضيان البرجوازي أرويه كل هذا يبعث في نفس التاجر الانجليزى كبرا مشروعا ويحمله على أن يجسر فيقارن نفسه بالمواطن الرومانى . وهو يكاد يكون محقا في هذا . « والابن الأصغر لأمير من أمراء المملكة لا يحقر التاجر ... » .

بعد هذا يأتى ما يمكن أن يسمى خطابات التبسيط : فيتناول أحدها فلسفة لوك التي تعد فرصة منحة لفولتير ليبسط لأول مرة نظريته الخاصة به . انه يؤمن بالله ولكنه لا يقبل اننا لا نعرف عن الله الا انه موجود وأنه خلق العالم . يؤمن بخلود الروح لأنه ضرورى لخير المجتمع ؛ ولكنه لا يجد أثرا في الطبيعة لتلك الروح ويشئ على لوك حين يقول في تواضع :

« ربما لن نستطيع بتاتا أن نعرف ما اذا كان المخلوق المادى الصرف يفكر أو لا يفكر » .

ثم يعرض بعد ذلك للخطابات العلمية التى تتناول نيوتن ونظام الجاذبية وعلم الضوء والانتهائى . وكل هذه الخطابات تدل على حب الاستطلاع وعلى معلومات غزيرة . ثم يختتم الكتاب بخطابات تتناول المأساة والملهات . وهو يكشف للفرنسيين عن شكسبير ، الذى يعد الانجليز مثل سوفوكليس . كانت له عبقرية قوية واسعة لا تصنع فيها وتنطوى على الروعة ولكن ليست له أية ذرة من حسن الذوق ولا أية معرفة للقواعد . غير أن فولتير وهو يشكو من شكسبير كان يجهل القواعد، كان يلوم أولئك الذين لم يعلموا الفرنسيين الا هذه الأخطاء وحاول هو نفسه أن يترجم شعرا قطعة من أجمل ما كتب شكسبير . فوق اختياره على مناجاة هاملت لنفسه : « يكون أو لا يكون . . . » فسلك فيها مسالك كربون ، وأحل محل لغة شكسبير القوية عجيبة مجردة وهذه الاهتزازات المنتظمة لأوزان الشعر تهدد القارئ :

- « تريث يجب أن تختار وأن تعبر فى الحال » .
- « ومن الحياة الى الموت وأن تستحيل من كائن الى العدم » .
- « يا لرحمة الآلهة اذا كان الأمر كذلك فأمدونى بالقوة » .
- « أيجب أن يهرم الانسان وتحنى ظهره تلك اليد التى تستبد بنا ؟ »
- « هل لى أن أتحمل أو أن أضع حدا لشقائى ومصيرى ؟ » .
- « من أكون . . ما الذى يوقفنى ؟ . . ما الموت . . ؟ » .
- « انه خاتمة آمنا انه ملاذى الأوحاد » .
- « انه لنوم هادى بعد تلك الفورات الطويلة » .
- « الانسان ينام وكل حى يموت . . . » .

واذا كانت ترجمته ليست صادقة فتعليقاته تنطوى على الذكاء : « النبوغ الشعرى عند الانجليز يشبه حتى الآن شجرة كثيفة الأغصان غرستها الطبيعة تلقى بالآلاف الأفنان حيثما اتفق وتنمو بقوة لا تعادل فيها . وهى تموت لو أنك جعلت منها غير ما فطرت عليه ، وأردت أن تجعل منها شجرة فى سناكين مارلى » .

ولم يكن الكتاب يظهر حتى طازدته الشرطة وسجن صاحب المكتبة في الباستيل واضطر فولتير الى أن يلجأ الى اللورين . وأصبحت الخطابات الفلسفية بقرار من البرلمان « محكوما عليها بأن تمزق وتحرق في فناء المحكمة أسفل هذا السلم الكبير ويشرق على هذا المجلس العالي وذلك لأن فيها فاحشة ، ولأنها تخالف الدين والخلق القويم وما ينبغي للسلطات من احترام » وتقد هذا الحكم في ١٠ من يونيو عام ١٧٣٤ .

وهذا العمل يكاد يكون بمثابة ما اذا أحرق سياف في أمريكا كتابا يتناول نظريات آينشتين .



رسائل فولتير تكشف حبه للحقيقة

من النظر في حياة فولتير المتناقضة التي عاشها ، نفهم فولتير الذي كان فكره مرآة لشخصيته والعكس ، فقد كان محبا للحقيقة أكثر من حبه لحريته ، محبا للانسانية أكثر من حبه لنفسه محبا للصدق دون نفور من الكذب ، فقد كان يقول : « ان الكذب لينش ذنبا الا حين يضر بشخص ما ، أما حين يفيد الانسانية فإنه أكبر الفضائل طرا » . فقد كان كثيرا ما يتصنع بسخريته وتهكمه الايمان بما ليس يؤمن به ، وكثيرا ما نشر أعمالا من تأليفه تحت أسماء مستعارة ينكر نسبتها اليه أحيانا ثم يعود ويعترف بها فيما بعد ، ويفاجئ بها . ورغم كل ما يقال عن مظاهر التناقض في حياة وشخصية وفكر فولتير ، إلا أن أحدا لا ينكر أنه كان شديد التأثير في معاصريه بأرائه الايجابية البناءة وبآرائه السلبية الناقدة الساخرة في أن معا وكذلك فهو كما قلنا في البداية كان علما على عصره بأكمله .

وبإمكاننا إذن أن ننظر الى فلسفة فولتير باعتبارها ذات جانبين : جانب نقدي وجانب ايجابي بناء ، وأن الجانب الأول هو الأهم في فكر فيلوسوفنا فقد حقق من خلاله أهدافه في إيقاظ الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة من غفوتهم وبدد الظلمة التي كانت تقطن أعينهم .

ولقد كانت من أقسى حملات فولتير ورسائله النقدية حملته على الدين في ذاته . بل والهجوم على كل عقيدة لا تعترف التسامح وتضع الايمان فوق العقل . وإن كنا لا نغنى فولتير من حقبة نهضة الشديده والمباشرة على

الكتب المقدسة في مثل قوله في العديد من مؤلفاته ان المسيح يسلم أمره دون قيد الى كتابين ، يعتقد أنهما مقدسان هما التوراة والانجيل ويعتقد اعتمادا على ما ورثه من أقوال ان الله قد أوحى بهما ، على حين يرى فولتير أنه لا أساس لهذا الاعتقاد ، اذ كيف يمكن الاعتقاد بأن موسى كان لديه ما يكتب به في الصحراء حيث لا توجد حتى أشجار لينقش عليها ! وبالإضافة الى ذلك فكاتب أسفار موسى يقول انه يكتب من وراء الأردن، في حين أن موسى لم يدخل أرض الميعاد أبدا . كما أن في النص أسماء المدن ومواقع لم تعرف بها تلك المدن الا بعد موت موسى بوقت طويل . وفي التوراة عبارة تقول : « لم يأت بعد موسى نبي يضاهيه عظمة » وهذه جملة لا يمكن أن يكون كاتبها هو موسى ، كما أننا نقرأ في أسفار موسى قصة موته كاملة !! فكيف يمكن التوفيق بين تلك المتناقضات !!

أما الاناجيل ، فانها - في رأي فولتير - لم تحرر رأسا في زمن المسيح ، بل كتبت بعد وفاته بمائة عام . وفضلا عن ذلك فان ما تعتبره الكنيسة منها حقيقية كانت ترافقها أخرى تعتبرها مزيفة . فما سر قبول بعض الاناجيل ورفض بعضها الآخر ؟ . وبالإضافة الى ذلك ، فان الاناجيل الأربعة لا تتفق فيما بينها على نسب المسيح ولا على أحداث طفولته ولا على معجزاته ولا على أقواله . فكيف يمكن إذن اعتبارها جميعا صالحة وذات قيمة ؟ .

ويشكك فولتير في الأصل الإلهي لهذين الكتابين حينما يقول : اذا كان الله هو الذي أملى التوراة والانجيل ، حق لنا أن نعجب اذ ان الله ذو افكار خاطئة جدا في علم الفلك كما أنه يجهل علم تاريخ الحوادث ويجهل الجغرافيا جهلا تاما ويعتقد أن الأرانب تجتر ويناقض نفسه بنفسه فيما يخص الأخلاق . . فهل في الامكان أن يظن المرء أن الرب ذاته يفرض مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » في التوراة ثم يأتي الانجيل فيأمرنا « أن نمد خدنا الأيمن لمن يصفعنا على خدنا الأيسر » وأن نعطي رداءنا لمن سرق ثوبنا ، وأن لا نقاوم الشرير . . فهل هذه أوامر تتفق وأوامر التوراة ١٩ .

ولا يقف فولتير عند هذا الحد في التشكيك والتهجم على الدين المسيحي ، بل يشكك في كل المعجزات التي وردت في الكتابين المقدسين ويعتبرها خرافات وأساطير ينبغي الحذر منها وعدم الأخذ بها : لمنافاتها العقل فهو لا يرى في تلك الكتب المقدسة المسيحية شيئا يعتد به سوى الأخلاق التي تبشر بها ، أما كل ما عداها فهو أكاذيب ينبغي أن يتحرر منها فكريا .

وينتقل فولتير الى رجال الدين المسيحي ، موضحا أنهم خرجوا على التعاليم الدينية الأصلية التي بشر بها المسيح وأنهم كثيرا ما يتناقضون بأفعالهم ما يؤمنون به ويرددونه بأفواههم فلقد استنكر المسيح التفرقة بين الكهنة ولكن الكنيسة تقوم على نظام الدرجات ، حيث الرؤساء يتمتعون بالسلطة المطلقة وصغار الكهنة يحيون حياة بائسة . ولقد امتدح المسيح الخشوع والندامة ولكن الكنيسة تضرب المثل بالكبرياء والخيلاء والبذخ الفاضح . ولقد استنكر الجشع ولكن البابا وكبار الكليروس يعيشون في بحبوحة ورغد ولا يفكرون الا في زيادة ثرواتهم ، ولقد امتدح المسيح اللطف والفقران ولكن الكنيسة اخترعت التعصب وزرعت بذور التفرقة والخلاف في كل مكان وشغلت الحرب على المنشقين والهرطقة والبروتستانت . واليهود والمفكرين الأحرار وأذاقتهم الاضطهاد وأهلكت آلاف البشر فكانت من أعظم المصائب التي عرفتھا الانسانية .

ولا يخفى علينا بالطبع أن تلك الانتقادات التي يوجهها فولتير لرجال الدين والكنيسة المسيحية ، كانت موجهة لكنيسة القرن الثامن عشر التي كانت كثيرا ما تقف في وجه التجديد في مجالات العلم والفكر .

ولقد شغل فولتير بالرد على هجمات بعض المتعصبين ضيق الأفق الذين يهاجمون الفلسفة بحجة أنها دائما ضد الدين ، في حين أن الأمر في حقيقته قد يكون عكس ذلك فقد هاجم بعضهم فلسفة جون لوك ورد فولتير بقوله انها فلسفة حكيمة متواضعة لا يجب أن يثوروا عليها . فهي ليست مباينة للدين بل تصلح دليلا له اذا ما احتاج اليه ، فاية فلسفة تكون أكثر دينيا من التي لا تؤكد الا ما تتمثله بوضوح كما تقر بعضها فتقول بأنه يجب أن نلجأ الى الله اذا ما بحثنا عن الأصول الأولى للكون . وفضلا عن ذلك ، فانه لا ينبغي أن يخشى من أي فكر فلسفي على أي دين في أي بلد كان ، فالفلاسفة لا يكتبون مباشرة للعامة . وقد دل فولتير على ذلك بقوله انه ان قسمنا الجنس البشري الى عشرين جزءا لرأينا تسعة عشر جزءا من هؤلاء يعملون أعمالا يدوية ولا يعرفون رجلا في العالم يدعي جون لوك وما أقل من يقرءون في الجزء العشرين الباقي . . . وتجد من بين هؤلاء القراء عشرين مطالعون روايات في مقابل واحد يقرأ فلسفة فعدد من يفكرون قليل للغاية ولا يستطيع هؤلاء أن يكدروا صفو العالم . وليس مونتاني ولا لوك ولا اسبينوزا ولا هوبز . . الخ هم الذين حصلوا مشاعل الشقاق في أوطانهم فاذا ما جمعت كل كتب الفلاسفة في الأزمنة الحديثة لم تجد لها قد أحدثت من الضوضاء في العالم ما أحدثه جدهال الكرادلة فيما مضى حول شكل كعهم وغطاء رأسهم .

وهكذا كان فولتير دائم النقد ساخطا على كل شيء يحسب المناسبة التي يتحدث فيها والهدف الذي يسعى الى تحقيقه فاذا كان فيما سبق يبدو ساخطا على الدين ورجاله ، فانه نسي انه في غمرة ذلك قد قتل من قدر الفلاسفة ، كما قتل من شأن تأثيرهم في العالم وهو اذا كان قد حمل على الدين ورجاله ، فان حملته على الفلاسفة السابقين والمعاصرين له كانت أشد ضراوة فيقدر ما كان حبه لبعض هؤلاء الفلاسفة شديدا كما كان شأنه مع فرنسيس بيكون وجون لوك ، يقدر ما كان هجومه ضاريا على الآخرين من أمثال ديكارت وبسكال وجان جاك روسو . فهل كان لديه معيار يقيم به هؤلاء الفلاسفة ؟ . وهل كان لديه معيار لتقييم مشاهير الناس فيعمل به قدر بعضهم ويحط من قدر آخرين ؟؟

معيار التنوير عند فولتير . . ونقله للفلاسفة

ان معيار التقييم عند فولتير هو مدى ما قدمه أي انسان سواء أكان من الفلاسفة أو العلماء أو الحكام أو القادة من أعمال تستهدف بها خدمة الإنسانية عامة وتثير الطريق للبشرية . فالعظمة الحقيقية - كما يقول فولتير - تقوم على عبقرية جبارة من السماء وعلى الانتفاع بهذه العبقرية لتنوير الانسان نفسه وتنوير الآخرين . وان سالنا فولتير - على ضوء هذا - أي هؤلاء الرجال أعظم من الآخر : قيصر أو الاسكندر أو تيمور لنك أو كرومويل . . الخ ، لكأنت اجابته ان اسحاق نيوتن هو أعظمهم بلا شك فان رجلا مثل نيوتن الذي لا يكاد يظهر مثله كل عشرة قرون يكون هو العظيم ؛ لأن هؤلاء السياسيين والقاتلين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا الا أشرارا ، فنحن نجعل ونعظم من يسيطر على النفوس بقوة الحقيقة لا أولئك الذين يصنعون عبيدا بالاكراه والقهر ، نجعل ونعظم من يكشفون لنا أسرار الكون لا أولئك الذين يشوهونه .

ويرتبط معيار التنوير عند فولتير بمعيار آخر هو النفع للوطن أو البشرية عامة ، فهو يرى انه لا ينبغي أن نبالغ في احترام وتقدير أصحاب الألقاب دون أصحاب المهن خاصة النافعة للدولة ، فكتب رسالة عن التجارة وأهميتها في المشاركة في عظمة الدولة وجعل مواطنيها أحرارا يقول فيها ماخرا : « أي الرجلين أكثر نفعا للدولة : أياكون السفنور المجرور الذي يعرف وقت نهوض الملك ووقت نومه بكل دقة والذي ينتحل أوضاع

العظيمة بتمثيلية دور العبد في غرفة انتظار الوزير أم التاجر الذي يعنى ببلده ويصدر من غرفته أوامر الى سوريا والقاهرة ويساعد على سعادة العالم ١٨ ،

وعلى ضوء هذا المعيار « التنوير والنفع للبشرية » كان نقد فولتير للسابقين من الفلاسفة : فارسطو مرفوض لأنه صاحب مذهب مستغلق غامض ، مما جعل تلاميذه يفسرونه على وجه ، أما ديكارت فقد ولد لاكتشاف أغاليط القرون القديمة ولكنه استبدل بها أغاليطه ، ذلك أنه سار على منهاج يعنى أعظم الناس فقد خيل إليه أنه أثبت أن النفس عين الفكر، فإن الإنسان يفكر دائما وأن الروح تنحل في الجسم مزودة بجميع مبادئ ما بعد الطبيعة عارفة بالله وحائزة جميع الآراء المجردة زاخرة بروائع العلوم التي تنساها مع الأسف عند خروجها من بطن أمها !!

وقد انتقد فولتير ذلك الرأي الأخير لديكارت بقوله : « انه لن يجعلني أعتقد أنني أفكر دائما ولا أجدني أكثر استعدادا منه لاتصور أنني كنت بعد بضعة أسابيع من الحمل بي روحا بالغ العلم عارفا ألف شيء في ذلك الحين فنسيته عند الولادة ، وإنني كنت حائزا في الرحم من المعارف ما أفلت مني عندما أصبحت محتاجا إليه وإنني صرت عاجزا عن تعلمه ثانية بعد ذلك »

وإن كان فولتير ينتقد ديكارت هذه الانتقادات العنيفة الساخرة ، فإنه لا ينسى أن يقر لديكارت ببعض اللامحات العبقريّة : فهو يمتدحه باعتباره من أوائل الذين استنفروا العقول الى التفكير الحر فقد « أنعم ديكارت بالبصر على العمى فראوا أغاليط القرون القديمة وأغاليطه وصارت الطريق التي فتحتها كبيرة بعده »

وهكذا كان حال فولتير مع بسكال ، فقد كتب في إحدى رسائله أنه يقدر عبقريّة بسكال وبلاغته ولكنه كلما قدره اقتنع بأنه كان لابد من تصحيح الكثير من « أفكاره » فهو يرى أن ما كتبه بسكال في « الأفكار أو الخطرات » كان مجرد خواطر القاها على الورق كيفما اتفق دون تدقيق « وقد كانت الروح التي كتب بها تلك الأفكار - في رأي فولتير - هي اظهار الانسان من ناحيته المفقوتة فهو ينهمك في وصفه لنا جميع الاشرار والاشقياء ، وهو يكتب ضد الطبيعة البشرية كما كان ضد اليسوعيين، وهو يعزو الى جوهر طبيعتنا ما لا يكون الا لدى القلة من الناس وهو يصب الشتائم على الجنس البشري ببلاغة ، ولذا فأنني أتعصب للبشرية مجترئا على هذا الميغض الاعلى للانسان »

ولقد كانت أشد حملات فولتير ضد الفلاسفة، ضد معاصره وقرينه في حركة التنوير جان جاك روسو ، فقد كتب الى دالمير قائلاً عن روسو : « انه لا يحب آثاره ولا شخصه » ، ويصفه « بأنه مستوس ، مجنون ، ضيق مضر ، مسبح يجمع بين الخيلاء والانحطاط والقطاعات والمناقضات » ، ويبدو أن كل تلك السخرية والشتائم كانت لكرام فولتير لمبدأ روشنو الشهير أن من الخير للانسان العودة الى الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها قبل أن ينتقل الى حياة المدينة التي يعيش فيها . ان فولتير يعبر عن رفضه لهذا المبدأ قائلاً : كيف يمكن القول بمبدأ اذا سربنا على حرفيته يجعلنا نلعن المدنية ونرفض حسناتها ونقبل بأن نسير على أربع ؟! كيف يمكن أن نؤمن بما يتمتع به رجل الطبيعة ، من طيبة كاملة وسعادة كبيرة ، ان الانسان المتوحش كما يعرفه الرحالة مخلوق بائس وهو ليس بسوى طفل متين البنية له جميع ما فى الطفولة من رذائل وما يتخللها من تذبذب وقسوة فكيف نقبل بأن نخطئ كل العلوم والآداب والفنون وكل ما يضمن سيطرة الانسان على العالم ونتخلل عن لذائذ العيش ؟ ثم كيف يقول روسو فى معرض حديثه عن العصور الاولى : « آه ما أحلى عصر الجليد » ، وكيف يقول : « ان الثمار هى لجميع الناس وان الأرض ليست لأحد » ان هذا المبدأ يهلم أهم حق فى حياة الانسان وهو حق الملكية .

وهكذا ، فإن روسو نال أكبر قسط من نقد فولتير دون جملة اطراء واتحاد فسائر ما كتبه عدا خمسين صفحة من كتابه المعروف (أميل) يقدرها وتستحق فى نظره أن يكون كاتبها رجلاً حراً وليس روسو - لا يستحق أكثر من النسيان .

أما أهم رسائل فولتير النقدية فكانت على الفلاسفة الملحدون فقد كان يرى - رغم حملته على الدين المسيحي ورجاله - أن من الجنون أن يرتضى المرء فى أحضان الاتحاد كما فعل أمثال « ديدور » و « هولباخ » ، لأن الراى القائل بوجود الله قد تكون فيه صعوبات ، الا أن الراى المعاكس أصعب ، فالملحد مضطر الى أن يقر بضرورة كل شيء كما فعل اسبينوزا وعليه أن يقبل بأن كل ذرة من الغبار حتم عليها أن تكون كما هى وان توجد بالضبط فى النقطة التي توجد فيها فى اللحظة التي توجد فيها وهو مجبر على أن يرى فى الحركة إحدى الخصائص الجوهرية للمادة فإذا كانت المادة لا تتحرك فكيف السبيل الى تفسير انها بدأت فى الحركة فى وقت ما ؟ ان المرء مجبر كذلك على اللجوء الى « المصادفة » لتفسير النظام الذى يسود الكون وظهور الأحياء فى العالم وما يمتازون به من غائية خارقة فى تكيف أعضائهم مع الوظائف اللازمة للمحافظة على الأفراد والأجناس .

ولكن كيف يمكن أن تقبل أنه إذا وضعنا كل الأحرف التي تتألف منها قصيدة الألياذة في كيس ثم أفرغنا الكيس خرجت منه الألياذة كليلة بكل حواشيها وأشعارها ؟ إن هذه الظاهرة بعيدة الاحتمال حتى ولو افترضنا لها وقتا لا متناهيا وعددا من التجارب لا متناهيا وإذا كان ذلك كذلك اليأس أبعد عن الاحتمال أن يكون العالم الذي نعيش فيه مع جميع المخلوقات وليد المصادفة البعده ؟

إن الاعتقاد في رأي فولتير لا يفسر شيئا والعالم يصبح لغزا مغيبا لا يمكن حله والمحدد يظن أنه يعرف كل شيء وهو في الواقع لا يعرف شيئا فهو جاهل مرتين : مرة لأنه لا يعرف ما يؤكد ، ومرة أخرى لأنه لا يدرك حدود معرفته .

ولعلنا نخرج من ذلك كله بأن فولتير يرى أنه من الواجب تنظيف الذهن من الخزعبلات المسيحية والتخيلات الديكارتية والتأكيدات الإلهادية ومنطامات جان جاك روسو وخطرات بسكال التشاؤمية ، بآية وسيلة ممكنة : سواء بالجدل المنهجي الهادي أو بالسخرية اللاذعة .

ومما سبق يمكننا أن نستنبط آراء فولتير الإيجابية فهو لا شك يؤمن بالتجربة الإنسانية وبالعقل الانساني ايمانا جازما وإن كان يؤمن في نفس الوقت بتواضع إمكاناتهما المعرفية ، فهو يرى أن عقلنا حين تقوده وتدعّمه التجربة يتيح لنا أن نثبت عددا صغيرا من المبادئ الانسانية اثباتا يقينيا أو يقترب من اليقين . وإن ظلت بعض هذه المبادئ غامضة وقابلة للشك ، فيجب أن نعترف بقصورنا عن البرهنة القاطعة عليها بالفيلسوف الحق يجب ألا يتردد في كثير من الأحيان في أن يقول : لا أدري !

واستنادا الى هذا المنهج يقرر فولتير مبدأين لا شك فيهما لديه أولهما : وجود الله ، وثانيهما : القيمة المطلقة لشكل معين لفهم الأخلاق . أما عن المبدأ الأول فهو يقول : « حين أرى النظام والآلة العظيمة والقوانين الميكانيكية والهندسية التي تسود الكون والوسائل والغايات التي لا عدد لها لجميع الأشياء ، يسيطر على الإعجاب والاحترام وأرى حالا أنه إذا كانت أعمال الشر وحتى أعمال تضطرنني الى أن أقر بوجود العقل فينا ، وجب علي أن أقر بوجود عقل ذي نشاط أكبر في هذه الآثار التي لا حصر لها ، وأقر بوجود هذا العقل الأعظم دون أن أخشى أحدا بغير رأي فليس من شيء يهز اعتقادي بهذا المبدأ : كل عمل يثبت وجود عامل » .

ويقدم فولتير برهانا آخر على وجود الله يستلزم لدى الفلاسفة منذ أفلاطون وبرهان « الاله الصانع » حينما يقول متأملا ذاك : « نحن قطعاً عن صنع الله والبرهان على ذلك ملموس فكل شيء واسطة وغاية في جسمي ، كل شيء رفاص وبكرة وقوة متحركة وآلة مائية وتوازن مسرائل ومختبر كيمياء . اذن فكل هذا من ترتيب عقل وليس ذلك الترتيب من عقل أبوي ؛ لأنها قطعاً لم يكونا يعرفان ماذا يفعلان حين وضعاني في العالم ، ولم يكونا سوى الآلات الصماء التي استعملها ذلك الصانع الأزل الذي يحرك دورة الأرض ويدور الشمس حول محورها . »

وحدة الأخلاق الانسانية عند فولتير

أما عن المبدأ الثاني ، فهو يقول مؤكداً وحدة الأخلاق الانسانية : « كلما ازداد تبصرى بالناس المختلفين باختلاف الطقس والعادات واللغة والقوانين والعبادة باختلاف ذكائهم ، ازدادت ملاحظتي لوحدة أساسهم الأخلاقي : فانهم جميعاً يملكون مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم ، دون أن يعرفوا كلية من اللاهوت وهم جميعاً اكتسبوا تلك المفاهيم في السن التي يفتح فيها العقل ، كما أنهم اكتسبوا جميعاً كيفية رفع الأثقال بالمعى ولذلك بدا لي أن فكرة العدل والظلم فكرة لازمة للبشر ؛ لأنهم جميعاً يتفقون على هذه النقطة طالما أمكنهم أن يعملوا ويفكروا . فالعقل الأعظم الذي خلقنا أراد أن يسود العدل على الأرض . . . والا كيف أمكن للمصريين القدماء والآشوريين البدائيين أن تكون لديهم نفس المفاهيم الأساسية المتعلقة بالعدل والظلم لولا أن الله قد أعطاهم منذ الأزل ذلك العقل الذي نأى ومكنهم من أن يدركوا نفس المبادئ الأخلاقية . . . فجميع الشعوب مهما كانت كلية من البدائية تقول بوجوب احترام الوالدين والأمر بالمعروف والنهي عن الشرور والمنكرات ، وتلك مفاهيم واحدة يخلصون إليها عن طريق عقلهم النامي . »

والى جانب تلك المبادئ الميتافيزيقية والأخلاقية ، كان فولتير عاشقاً للحديث عن الحرية بكافة أنواعها وقد بهرته التجربة الانجليزية ، فكتب ينتقد الوضع الفرنسي ويحاول دفع مواطنه الى استبدال النظام الانجليزي به ؛ فلقد أعاد النظام الانجليزي الى الانسان كافة حقوقه الطبيعية التي فقدتها في ظل الأنظمة الملكية بفضل تنوير الفلاسفة ونضال الشعوب وهذه الحقوق هي : الحرية المطلقة في التصرف بشخصه وأمواله والتحدث الى الأمة عن طريق قلمه وعدم محاكمته في أية قضية جنائية الا أمام محلفين

مستقلين وحسب المنطوق الدقيق للقانون " وضمن النظام الانجليزى لأفرادهم كذلك حرية العقيدة فللفرد حرية اعتناق أى دين يخلو له فى أمان .

تأثير فولتير

ليس هناك شك فى تأثير فولتير على عصره تأثيرا كبيرا وان كان من غير الميسور تحديد مبداء بدقة ، وليس هناك شك ايضا فى ان فولتير كان يتأثر بدوره من احياء عصره وان كان تأثيره فى كثير من الأمور هو تأثير الوسيط الذى يضع قوة شهواته المعنوية وقوة نبوغه الساهر فى خدمة الأفكار التى يخدمها دون أن يخلقها .

ان فولتير يؤثر كفنّان وكفيلسوف . فى عالم الأدب نراه يؤثر بوجه عام بذوقه ولسانه كهميج أولا وكلمهم ثم كحافظ وأمين على المبادئ الكلاسيكية . فالعقول التى يكونها تتمتع بذوق سليم ، وتعبّر بعبارات واضحة جافة وتحافظ على صحة البيان وبلاغة العبارة . ان أتباع فولتير يثورون على أسلوب كاسلوب شاتوبريان ، ويحتقرون الكتاب الرومانتيكيين والفرن التاسع حافل بهؤلاء الفولتيريين وبصفة خاصة فى الجامعة والقضاء .

أما فى عالم الأدب المسرحى ، فان معاصريه يضعونه فى مضاف راسين وكورنى وسيظل السيد الأمر فى الشعر الرقيق والغزل . وأما فى التاريخ ، فان تأثيره قد تلاأ وتجاوز فرنسا فقد ألف مدرسة للمؤرخين الفلاسفة الذين يغاب عليهم بأنهم ضنحوا بالوقائع فى سبيل التفكير ، كما ضنحوا بأبحاث النقد فى سبيل الحزبية .

وقد اقتبسوا عنه قصصه الفلسفية فى القرن الثامن عشر أما فى القرن التاسع عشر ، فقد نقل شاتوبريان وجورج صاند وبلزاك القصة الى ميدان آخر بعيد عن ميدان كانديد .

وقد تجلى تأثير فولتير العظيم فى رسائل الهجاء والصحافة ، فقد كان أستاذًا فى فن السخرية اللاذعة . وأخذوا عنه فن المراوغة وطريقة تحليل المواضيع الهامة المعقدة وتعليقها بما يجعلها بسيطة هادئة وكيف تترجم رسائل الخصوم وتحول الى عروض سخيفة لا تحتاج الى نفى . وكيف يستطيع الكاتب أن يعيد ويكرر ما قال وما كتب بأوضاع مختلفة شيقة

ورموز غريبة ؛ لا قناع القارىء دون أن يعتريه بسأم أو يتطرق اليه ملل . لقد كان فنانا عظيما فى مؤلفات خلت من عبارات الفن كما كان رائدا لكثير من كتاب القرن التاسع عشر . وعندما انتقل أناطول فرانس من كتابة القصة الى النقد الاجتماعى تجلت ميوله الفولتيرية وبدأت أضعاف ما كانت عليه .

وإذا استثنينا أدب المناقشة والمناظرة ، أمكننا القول بأن فولتير كان أستاذا بارعا فى علم الانشاء واللغة والبلاغة لكثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يتذوقوا الأدب الرومانتيكى ولم يجاروه .

وقد ساروا خلفه عندما نادى بمبدأ الملكية المطلقة ، بشرط أن تقف نفسها على خدمة البلاد والأمة . وعند جاهر بأسراف العدالة . وأسرع الى اغاثة المظلومين ونصرة الضحايا وعندما حارب اسراف الادارة وأشار الى الاصلاحات المفيدة وعندما أعلن كراهيته للحرب وطالب بملكية تحب السلم وتعمل فى سبيل الرخاء العام وتنظيم التجارة والزراعة .

ومجمل القول أن فولتير قد أثر على عصره بتنمية روح النقد فى الجماهير . فقد استعرض أمامها جميع الوسائل الادارية والحكومية ، والمواضيع السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية ، وعلمها كيف يجب أن تعتبر نفسها مختصة فى جميع المواد فجعل من رأى العام قوة هدامة لما لا يرتضيه .

وكيف كان تأثير فولتير عندما اندلعت نار الثورة الفرنسية . فقد سارت الحوادث بسرعة فائقة حتى لقد تجاوزت أفكاره وسبقاتها ، فقد كان الوقت للحماس والشهوة والمشاعر ، لا للتفكير والتأمل ثم جاء عهد القنصلية والامبراطورية فعاد نشاط الروح الفولتيرى . ثم جاء عهد الملكية بين ١٨١٥ - ١٨٣٠ فعاد تأثير فولتير وعمت أفكاره وانتشرت مؤلفاته وأقبل الناس على قراءتها .

ولم يكن تأثير فولتير فى الخارج بأقل من تأثيره فى فرنسا فقد كان صدها يتردد فى أسبانيا والبرتغال وتجاوزهما الى ألمانيا وبلغ أشده فى إيطاليا ، حيث كانت الحاجة ماسة الى الاصلاحات الاجتماعية ، وإلى الحرية ، وإلى الوحدة . أما انجلترا فان الفكرة الفاشستية كانت متوطنة فيها قبل أن يبدأ فولتير . فاذا كانت لم تأخذ عنه شيئا ولم تسايره فى شيء ، فانها قد تتبعته فى جميع أطواره وحكمت على أعماله واعترفت بنبوغته العظيم وعبقريته الفذة .

رئیس
شفا تو بریان
۱۸۰۲ء

إذا استعرضت الأدب الفرنسي من أوله إلى آخره وجدت عاملين يظهر أحدهما أنا ويختفي أنا ليظهر مكانه العامل الآخر فإذا ما اجتمع في أديب أو في طائفة من الأدباء كان الكمال ، فأما أولهما فرغبة في الدقة أضفت على النثر الفرنسي خصائصه من حيث الوضوح وتوخي الصدق ومتابعة الواقع ، وأما الآخر فميل إلى زخرفة اللفظ والعناية به لذاته ، فترى الأديب يحب اللغة التي يلهو بالفاظها على سنان قلبه لا لأنه يريد أن يزيل معنى عن صدره لا يطمئن إلا إذا أخرجه ، بل لأنه يستمتع باللعب بالالفاظ نفسها فيجد لذته في رصها على نحو معلوم وتزويقها على صورة معينة ، وقد حدث لهذين العنصرين أن اجتمعا في القرن السابع عشر فحد المعنى من اللفظ وخدم اللفظ المعنى في اتزان عجيب فنرى في أدب « راسين » و « لافونتين » واقعية تنشد صدق الأداء . لكنها تعرف كيف تستخدم من أجل ذلك لغة جميلة تفتن القارئ بما فيها من روعة الفن فلا يقال اللفظ الفخم لفخامته ؛ ولكنه يقال لأن المعنى المراد يتطلب ذلك الالتقاء بين العنصرين كان على أيدي فحول الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر فلما جاء القرن الثامن عشر ذلك القرن الذي كتب فيه الكتاب ونظم الشعراء لينشروا في كتاباتهم وفي نظمهم مذاهب فكرية أرادوا لها أن تشيع بين الناس ، تغيرت الحال : فلم تعد العناية باللفظ واجبة على الأديب فلا عليه أن يستخدم هذا اللفظ أو ذاك هذه العبارة أو تلك ما دام المعنى واضحاً ، ومثال هذا تراه في فولتير وذلك هو ما وجدته رجلاً الأدب الابتداعي عندما شبت الثورة ، وجدوا واقعية ذهبت إلى حد التطرف فماذا تظنهم فاعلين ؟ الثورة لقلب الوضع من النقيض إلى نقيضه فلتن عنى أدباء القرن الثامن عشر بالمعنى وحده وبالواقع وحده فلنذهب نحن اليوم إلى الطرف الآخر فلا نعنى إلا بجمال العبارة والا بروعة الخيال . لم يقف الثائرون موقفاً وسطاً فيه اتزان واعتدال ، لم يقللوا أدباء الاتباع في القرن السابع عشر فعدلوا القسمة بين اللفظ والمعنى ؛ لأن الاتزان والاعتدال قلما تجدهما عند جماعة ثائرة وقد وجدت هذه الحركة الجديدة لسانها المعبّر في « شاتوبريان » .

شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية في الأدب الفرنسي

كان الكاتب الفرنسي الأمام فرانسوا رينيه دي شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية في الأدب الفرنسي من كبار الكتاب العالمين ، وقد

امتاز في عصره ببلاغة الأسلوب وبراعة الأداء وعمق الشاعرية والقدرة الباهرة على تصوير المشاهد والمشاعر وتعدد جوانب الشخصية فقد جمع بين مميزات الكاتب القدير المخلص في أداء رسالته والتعبير عن آرائه ومعتقداته ، وبين السياسي والدبلوماسي البارع الحريص على كرامته الى الحد الذي حمل فيكتور هوجو على أن يقول عنه أنه في الوقت الذي انحنى أوروبا جميعها أمام نابليون ، كان شاتوبريان أحد الشعراء والمفكرين القلائل الذين وقفوا منتصبين القامة حينما ركع العالم جميعه على ركبتيه أمام البطل المنتصر ولم يكتف نابليون بغزو الدول التي غزاها وانتصر عليها ، بل حاول كذلك غزو شاتوبريان ولكنه عجز عن ذلك ، ولم يكن شاتوبريان يجهل عظمة نابليون أو ينكر بطولته ولكنه أبى مسأيرته والالتصام الى خاشيته حينما أبطرت السلطة ، وأحالت حاكمها مستبد طاغية وقد تقلبت به الحياة بين الشدة واللين والعسر واليسر وظل في الأحوال المتعارضة وفي آرائه ومعتقداته معتزاً بشخصيته وإبائه وكرامته ، حتى رمى بفرط الكبرياء والاعتداد بالنفس ، وأعانت تجاربه ورحلاته على إنتاج غرر التصانيف وروائع الأسفار طوال حياته الثرية المنوعة .

وقد ولد فرانسوا رينيه دي شاتوبريان في سان مالو سنة ١٧٦٨ في ليلة اشتد فيها عصف الرياح من ليالى شهر سبتمبر ، بمقاطعة بريتانى الفرنسية ونشأ في قصر كومبور مهد أسرة العريقة وكان والده الكونت دي شاتوبريان من طبقة الأشراف الشديدة التمسك بالتقاليد وكانت والدته يغلب عليها الحزن ولا تكاد تملو ثغرها ابتسامة ؟

ولم يكن يقيم في هذا القصر الموحش سوى والديه وأخته لوسيل وخادمتهم وكان بطبيعة الحال لهذه النشأة أثرها في بث الاكتئاب الذي كان محالبا على مزاج شاتوبريان . ويقول شاتوبريان عن نفسه انه أمضى طفولته على الشاطئ مع استاذيه : الرياح والأمواج ، وقد أرسل في بادى الامر الى مدرسة دول ثم الى مدرسة الجزويت في دوفر وتبع ذلك فترة من التردد درسى فيها في برست ليكمل في البحرية ، ثم التحق بكلية دينان ليكون من رجال الدين ثم ترك المشروعات وأعرض عن المحاولتين وأمضى عامين في ضيعة الأسرة الاقطاعية في كومبورج (١٧٨٤ - ١٧٨٦) مع والدته المريضة ووالده القليل الحديث وأخته لوسيل اللامعة الذكاء والمصيبة المزاج . وكان للعامين اللذين أمضاهما في هذه العزلة تأثير كبير في تطور تفكيره وتكوين شخصيته ، فقد عمقت عزلة الأسرة في كومبورج نزعة الحزن الغالبة عليه ، كما قوت جولاته المنفردة في الغابات المحيطة بالمنطقة التي كان بها القصر الواسع الأرجاء ، ميله الى الطبيعة وشجعت أخته لوسيل على كشف موهبته .

وفي سنة ١٧٨٦ ترك كومبورتج في شهر اغسطس لينضم الى فرقة نافار بوصفه ملازما ثانيا واستمتع بالحياة في الجيش ، لأنها كانت تتيح له فرص الاجازات التي كان يقضيها مع شقيقاته المتزوجات بمنازلهن في مقاطعة بريتاني وفي فرساي حيث قدم البلاط وفي باريس حيث كان يجتمع بالكتاب أمثال فونتين ولاهارب . واكتسب صداقة والد زوجة أخيه القاضي والوزير مالزرب وبتشجيع من مالزرب ، عقد العزم على أن يقوم برحلة كشفية في العالم الجديد . وفي ٧ أبريل سنة ١٧٩١ أبحر على السفينة سان بيير ذات القلعين الى أمريكا .

وكان دافعه الى مبارحة فرنسا والقيام بهذه الرحلة ضيقه بالأحوال من ناحية وطموحه من ناحية أخرى ، ولم يكن راضيا عن اتجاه الثورة التي بدأت في سنة ١٧٨٩ ، وخال أنه يستطيع أن يظفر بالشهرة والمال والمجد لفرنسا اذا استطاع أن يكتشف الطريق الشمالى الغربى بين أمريكا وآسيا وكتابه ملحمة عن المستوحش النبيل ، الذى كان يتوقع وجوده وهو يعيش في حالة الطبيعة التي لم يشبها الفساد ؛ ولكنه عجز عن تحقيق ما كان يحلم به ؛ فحالما وطئت قدماء الأراضي الأمريكية وجد أنه تنقصه التجربة ويعوزه المال والأهبة والاستعداد للقيام بالرحلة الكشفية . وكان أول من لقيهم من المستوحشين في إحدى الغابات يتلقون دروسا في الرقص من أحد الخدم السابقين ، والرحلات التي قام بها في أمريكا منذ وصوله الى بالتيمور في ١١ يوليو سنة ١٧٩١ الى عودته من فيلادلفيا في ١٠ ديسمبر من السنة نفسها عرضة للشك ويبدو أنه رأى شلالات نياجرا والبحيرات العظمى وبتزبرج وليس من الأمور المؤكدة انه رأى أوهيو والمسيشى وفلوريدا كما أكد بعد ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أنه أفاد من هذه الرحلة حصيلة من التأثير بالمناظر الطبيعية الأمريكية عظيمة القيمة وقد انتفع بها وأحسن الاستفادة منها في قصتيه المشهورتين آتالا وريڤيه .

ويرجع أنه بدأ تأليف كتابه « الناتشيز » وهو في أمريكا ويشتمل الكتاب على قصة مستعمرة الناتشيز في لويزيانا ، التي انتهت بمذبحة في سنة ١٢٧٧ وقد قصد بها أن تكون ملحمة « لرجل الطبيعة » وربما يكون قد بالغ في تأكيد أنه كتب آتالا في أكواخ المستوحشين في القفار ، ويرجع أنه قرأ جزءا منها على مالزرب حين عودته الى فرنسا في يناير سنة ١٧٩٢ . وبعد تسرعه في الزواج من امرأة لم تجلب له ثروة ولم يكن عنها جد راض ، انضم الى جيش الأمراء المهاجرين وكان يحمل معه رواية آتالا وقد ذكر في مذكراته التي كتبها فيما بعد أنه احتفظ بأصولها في جراب وقائي أثقله

من رصاصتين صوبتا اليه في حصار تيونفيل . قال في ذلك : « ان آتالا مثل الابنة المخلصة لا ييها وضعت نفسها بين أبيها وبين رصاص الأعداء » وقد تعرضت القصة بعد ذلك لنقد شديد من الأب موريلليه .

وأعفى من الجيش لما أصابه من مرض وجروح دامية مع التقدير لما أبداه من اقدام وشجاعة وذلك في أكتوبر سنة ١٧٩١ ، وشق طريقه في صعوبة وهو يعاني الألم الى إنجلترا ، حيث وصل في مايو سنة ١٧٩٣ واستعان على تحصيل ما يقيم أوده باعطاء دروس في اللغة الفرنسية ، والقيام بالترجمة وفي الوقت نفسه بدأ تأليف كتابه عن « الثورات القديمة والحديثة » وفي سنة ١٧٩٤ عين بوظيفة مدرس في سفولك .

واضطر للذهاب الى لندن وبها أخذ يتسلى في عزله ويعالج ما أصابه من الحزن والأسى وخيبة الرجاء بكتابة قصة زينية .

ولكن أول كتاب قلمه للطبع لم يكن الملحمة النثرية وانما كان الكتاب الذي ألفه عن الثورات ، وقد ظهر سنة ١٧٩٧ وأذاع اسمه في أوساط المهاجرين في لندن ، ولم يطل سروره بظهور هذا الكتاب فقد بلغه من أخيه جولي خبر وفاة والدته وانها كانت عند وفاتها كسيرة الخاطر شديدة الحزن ، لاطلاعها على الآراء الحادية التي أبدتها في رسالته عن الثورات ، ويقول شاتوبريان انه حينما سمع ذلك بكى وآمن ، والواقع انه كان متجهبا صوب الدين في هذه الفترة . وحينما ظهر كتاب « حرب الآلهة » ، وهو قصيدة الحادية من نظم الشاعر بارني ، حفز ذلك شاتوبريان الى النهوض بالدفاع عن المسيحية فكتب رسالته عن النواحي الشعرية والأخلاقية الجميلة في الديانة المسيحية ، وكانت هذه الرسالة هي الأساس الذي أقام عليه كتابه الذي اشتمل على مجلدين عن « عبقرية المسيحية » .

ويرى المؤرخ البريطاني الكبير ج . ب . جوش أن سنوات حكم نابليون ، كانت سنوات جلب أدبي وأن كتابات شاتوبريان كانت تطلق ينابيع العواطف وتوسع آفاق الخيال وتثير الحماسة التاريخية ، وأن ازدهار الدراسات التاريخية في فرنسا بعد عهد الثورة يرجع الفضل فيه الى شاتوبريان قبل أي انسان آخر وقد أكمل في الأدب رسالة روسو وبيرناردين دي سان بيير ، وأعظم ما أداه للتاريخ هو أنه فتح أبواب العصر الوسيط .

وفي ١٨١١ اختير شاتوبريان عضوا في الاكاديمية الفرنسية في المكان الذي خلا بوفاة أندريه شينبيه؛ ولكنه في الخطاب الذي أعده للقاء عند استقباله أشار الى ذكريات عن الثورة ضايقت نابليون ولما رفض أن يقرأ الخطاب ، تأخر دخوله الاكاديمية الى عهد عودة الملكية .

وفي سنة ١٨١٤ كتب رسالة شديدة اللهجة عن نابليون والبوربون، واختاره لويس الثامن عشر وزير دولة ولم يمنعه ذلك من كتابة رسالة في نقد النظام الملكي ؛ لاقدام الملك على حل المجلس الاستشاري في سنة ١٨١٥ ، وقد حوله ذلك الى صف المعارضين في انتقاص النظام الملكي لحقوق الشعب . ولم تتحسن العلاقات بينه وبين النظام الملكي الا في سنة ١٨٢٠ بعد موت الدوق دي برى وقد اختير في السنة نفسها سفيرا لفرنسا في برلين ثم سفيرا في انجلترا سنة ١٨٢٢ ، وقد أسهم في انتهاء الحرب الاسبانية بوصفه وزيرا للخارجية ، وفي سنة ١٨٢٤ عاد الى صفوف المعارضة وأعلن خصومته لوزارة فيليل وكتب في جريدة الديبان مدافعا عن حرية النشر واستقلال اليونان واكتسب بذلك شعبية وأعيد طبع كتابه «الناشيز» وكتاب «آخر أيام بني سراج» ورحلاته في أمريكا .

وحيثما سقطت وزارة فيليل اختير سفيرا في روما في سنة ١٨٢٨؛ ولكنه قدم استقالته حينما جاءت وزارة بولنيك وبعد ثورة ١٨٣٠ دفعه وفاؤه لشارل العاشر الى أن يقف موقف المعارض للملكية الجديدة . ومن هذا الوقت بدأ يعيش حياته الخاصة مكتفيا بكتابة بعض مقالات في الصحف ، ناقد الحكومة الجديدة وموزعا وقته بين بعض الأعمال الأدبية وزياراته لصديقه القديمة مدام ريكاميه وقام بترجمة الفردوس المفقود التي نظمها ميلتون الى اللغة الفرنسية ، وأتم كتابه الذي اشتمل على ترجمة حياته ، وهو كتاب « مذكرات ما وراء الرسم » وقد توفي في ٤ يوليو سنة ١٨٤٨ ودفن حسب وصيته في جزيرة جران بيه الواقعة أمام سان مالو .



عقريه المسيحية :

هو ذلك الكتاب الخالد الذي قال عنه مؤلفه شاتوبريان : « انه جاء بلسما وفي وقته » ولقد صدق شاتوبريان في قوله . فهذا الكتاب كان بمثابة القبله للقرن الجديد المولود الذي ابتداء يحبو في دورة الزمن .

كان من الواضح أن المسيحية في حاجة ماسة الى من يرمم هيكلها ويعيد اليها اعتبارها ، فطيفة النبلاء في القرن الثامن عشر كانت قليلة التدين أو على الأصح كانت تعتنق التيارات (الملادينية) التي وجدت أعظم الرواج في سوق البلاد وكذلك كانت الطبقة الوسطى (البورجوازية) تلك الطبقة التي ابتدأت تخرج من ظلمات الجهل الى نور العلم والمعرفة . كانت الحالة كذلك لان الفلاسفة كانوا قد أخرجوا للناس معتقدا جديدا ، جعل المسيحية في نظر الجميع غريبة فاسدة وحشية لا يؤمن بها الا قلة من الأغبياء . . . !!

وهكذا أصبح من أقدم الواجبات خلق أحد المعتقدات القوية المؤثرة ؛ ليضاد المعتقد الأول ويقف في سبيله كالصخرة الشبابة . هذا ما رام شاتوبريان بجلاء ورأى أمامه القرصنة الننانحة تدعوه وتلج في هذه الدعوة فلم يسعه الا القبول .

كانت فكرته الأساسية من وضع « عبقرية المسيحية » هي أن يثبت أن الديانة المسيحية هي الأكثر شاعرية ، الأكثر انسانية ، وانها هي الصق الديانات بالحرية والفن والأدب التي هي من ضرورات العالم الحديث . . . وأنه لا يوجد أكثر قدسية من أخلاقها ، ولا أكثر محبة من أسسها وقواعدها وتعاليمها ومذاهبها . فهي تنمي العبقرية وتصفى الذوق وتقوى الاحساس بالفضيلة وتعطي قوة وطاقة للتفكير وتقدم هياكل نبيلة للكاتب وقوالب رائعة للفنان .

إذا نظر الباحث الى « عبقرية المسيحية » من وجهة نظر الفلسفة والمنطق ، وجد هذا الكتاب ضعيفا هزيلا فشاتوبريان لم يستخدم المنطق السليم أثناء دراسته ، بل تراه مولعا بالعلل الغريبة التي توصله من غير شك الى معلولات غريبة أو أغرب . لقد كان شاتوبريان يكتب ما يكتب وفي نفسه اعتقاد وفي قلبه أعجاب وبذلك استطاع أن يجعل القارئ يعجب . . . ويعتقد !

لقد كانت دعائم المسيحية مشيدة من قرن مضى على أفكار غريبة شاذة ، فحولها شاتوبريان بكتابه هذا الى أفكار أخاذة متنوعة فخمة .

يقول لانسون :

لسنا نعرف على وجه الدقة هل أفلح شاتوبريان في انتقاء الوسائل التي تحقق له أغراضه من انشاء هذا الكتاب أم لم يفلح ، ولكننا نعرف أن الكتاب نفسه قد قطع الطريق بسهولة الى قلوب القراء وأثر في نفوسهم.

أقبر الأثر ، وذلك لأن شاتوبريان أقام هيكل الاعتقاد على صرح فنى وشعرى .

ولهذا الكتاب اثره القوى فى عالم الأدب من ناحيتين هامتين :

الناحية الأولى هى ناحية الكتاب التحليلية التى ضمنها شاتوبريان عواطفه ووجداناته ، أى ضمنها عواطف ووجدانات الفنان الملهم والأديب العبقرى . وكذلك صورة الطبيعة ولوحاته الفنية التى رسمتها ريشته وهى متأثرة بمشاهدات الرحلة فى بريتانى والعالم الجديد .

الناحية الثانية وتتلخص فى تلك الصبغة الشاعرية المستحدثة ، التى شاعت فى هذا الكتاب . فهذه الصبغة الشاعرية قد أكسبت الكتاب طرافة خاصة ، تظهر عند مقارنته بما كتب وألف من كتب دينية من عهد المسيح الى أوائل القرن التاسع عشر . فكل هذه الكتب أساسها المنطق الجامد والتقييد بالتاريخ وحوادثه . أما « عبقرية المسيحية » فيمتاز بذلك الإطار الفنى الشاعرى الذى سبقت الإشارة إليه .

قصص آتالا ورينيه والشهداء :

تصادمت قصة شاتوبريان « آتالا » بتيارين معارضين : أحدهما نياز نقد شديد لاذع وعدم ارتياح لظهور مثل هذه القصة ، ويمثل هذا التيار فئة الفلاسفة الذين قالوا :

« ان الأب « سافويار » يتكلم بحرية أكثر وفلسفة أكثر من الأب أوبرى الذى هو فى الحقيقة متعصب دينى لا أكثر ، أما التيار الآخر فهو تيار الإعجاب الشديد والرضى التام عن « آتالا » ، ويمثل هذا التيار النساء : فقد وجد فيهن شاتوبريان ضالته المنشودة ، لقد استطاع بسحر بيانه أن يحرك عواطفهن ويضرب على الوتر الحساس من قلوبهن . لقد بكين وبذلك أعربن عن حبهن « لآتالا » ومؤلف آتالا ..

وكما ان شاتوبريان قد أخذ مادة قصته « آتالا » من سياحته القصيرة الأمد فى شمال أمريكا ، فقد استخلص مادة قصته الثانية « رينيه » من قصر « كومبورج » . ان (رينيه) بطل القصة هو نفس (رينيه) دى شاتوبريان . فى هذه القصة يتحدث شاتوبريان عن نفسه وعن أخته لوسيل . فهو قد أمضى فترات طويلة فى بهو القصر القديم مع أخته . ولذلك خيل إليه أنه قد حدد شخصيتها ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فرينيه قد حدد

شخصية أخته ولكن بطريقته الخاصة . لقد رسم هذه الشخصية كما تخيلها في أحلامه التي تشوبها الاثرة لا كما هي في الواقع . والآن لنعد الى البطل « رينيه » ان السر في متاعبه وحياته المملوءة بالاشباح الشاحبة المنزعجة وفي لياليه الطويلة المسهدة ، يرجع الى أن الحب ينقص روحه الواسعة التي تحتوى العالم كله .

ولقد أدرج شاتوبريان قصته هذه « رينيه » بشجاعة زائفة في كتابه « عبقرية المسيحية » عام ١٨٠٥ .

أما قصة « الشهداء » ، فقد حاول شاتوبريان في هذه القصة أن يواجه عالمين : العالم القديم والعالم الجديد عالم الالحاد وعالم المسيحية . وبعبارة أخرى أراد أن يبين لنا طبيعة الرجل القديم المستوحش وطبيعة الرجل المتمدن أى المتمتع بالمدينة الأوربية . والظاهر أن شاتوبريان قد تلقف هذه الفكرة من جان جاك روسو . ولكنه لم يتركها على حالها بل وسع دائرتها وأضاف اليها عناصر جديدة .



القصة

تمتاز مؤلفات شاتوبريان بالعمق والتحليل النفسى والتصوير العاطفى ، وبأنها كانت أول الكتب التى وضعت أيدي القراء على مساوىء العصر التى صورها فى « رينيه » على ما سيجى . وبأن حب الطبيعة وتذوق جمالها بارزان فيها بروزا واضحا ، وهذه الظاهرة الأخيرة لم تتضح قبل ذلك الا فى كتب « روسو » وبرناردان دى سان بيير « مؤلف رواية بول وفرجينى » .

كتب شاتوبريان أثناء نفيه فى انجلترا مؤلفا ضخما يقرب من ألفى صفحة وعنوانه (الناشيز) وهم سكان إحدى ولايات الميسيسيبى . وبعد أن أتم نسخ هذا الكتاب فقدت منه النسخة الوحيدة التى كان يملكها وطلبت مفقودة عدة سنين ، ثم عثر عليها وفى أثناء فقدانها اقتبس من حوادثها ما جعله موضوعا لروايته الفخمتين « آتالا » التى نشرها فى سنة ١٨٠١ ، و « رينيه » التى ظهرت سنة ١٨٠٢ . والتى هى موضوع تلخيصنا وتحليلنا فى هذا الفصل .

يكاد النقاد يجمعون على أن هذه الرواية تعتبر نموذجاً قيمياً لانتاج الرومانسيين ، وسجلاً دقيقاً شاملاً لمحامد أهل الجيل الذي ألفت فيه ومساوئهم . ففيها يلقى القارئ الأخيصة المحلقة في سماء « اللانهاية » والأحلام المتغلغلة في ليل الأبدية وملائكة السعادة المرفرفة بأجنحتها النورانية في فراديس الهناء . وشياطين البؤس مهممة متممة في غياهب الظلمات والجحيم ، وفيها يلتقى بالعواطف الحادة والأحاسيس الملتهبة والرغبات الملحة والأهواء العنيفة . وفيها يعرف القارئ آلام الحياة وشقاء العيش ويدوق مرارة الصعوبات ويدرك قسوة العقبات وبالأجمال : هي لوحة أمينة لذلك العصر الشائر المضطرب المفعم بالقلق الملى بالضجر ، وهو عصر الثورة الفرنسية الهائلة المجتاحة ، التي كانت بمثابة حد عملاق فصل به التاريخ بين القديم والحديث .

لقد ترددت في البيئات الأدبية في كثير من الأحيان أن « رينيه » بطل هذه الرواية هو شاتوبريان نفسه ، وأن المؤلف لم يزد فيه شيئاً على رسمه صورة لحياته الخاصة في أدق دقائقها وأعمق تفاصيلها .

ألف شاتوبريان هذه الرواية في لندن (سنة ١٧٩٦) ، ولما عاد إلى فرنسا نشرها مع « عبقرية المسيحية » في سنة ١٨٠٢ ، كان ذلك قبل انفجار الرومانسية في فرنسا فساهم بها مساهمة فعالة في نشأتها وانتشارها .

ومجملها أن « رينيه » وهو شاب فرنسي - قد ارتحل إلى أمريكا ليدفن نفسه في عزلتها وانضم إلى قبيلة هندية في تلك البلاد ، وعاش فيها عيشة بدائية تتفق مع تلك البيئة . وهناك جعل يقص على الأب « سويل » ، وهو أحد المبشرين الكاثوليك في تلك الأصقاع وعلى الرئيس الهندي الشيخ « شالتكس » كيف تخلى عن الحياة العملية وعلى أثر أية فاجعة غادر أوربا .

وتتلخص قصة هذا البطل في أنه ولد ونشأ في قصر عتيق منعزل وسط غابات مترامية الأطراف . وفي هذا القصر قضى طفولته ومبدأ شبابه إلى جانب شقيقته « أميل » التي كانت أسن منه قليلاً والتي ألفت بينها وبينه اتفاق الذوق وتشابه المزاج تأليفاً محكم الأواصر والعرى فشبا معاً ؛ وجعلاً يتقاسمان لذة النزوات ويتنوقان حب الطبيعة وينعمان بجمال الشعر الذي كان رينيه قد وهبه ذات نفسه منذ الطفولة الناعمة .

بيد أن هذا الهناء البريء لم يلبث أن ذوت أزهاره ، وجفت أوراقه : فقد توفى والدهما وسرعان ما انتقلت ملكية القصر وما اليه الى أخيهما الأكبر . ولم يكن اذ ذاك بد من أن يوكل أمر هذين الناشئين الى بعض الأقارب ليكفلوهما ويقوموا على تربيتهما . وقد قلب هذا الحادث كيانهما رأسا على عقب وصدمهما صدمة عنيفة قاسية ؛ جعلتهما يفيقان فجأة من أحلامهما اللذيذة ويهويان بفتة الى أرض الحياة العملية المليئة بالألم والشر والمقمة بالبؤس والتعاسة .

وعلى أثر انتباههما من دوار هذه الصدمة فكرا في أن يقذفا بنفسيهما في حظيرة الرهبانية ؛ ليقطعا كل روابطهما بهذا العالم الأسود الشرير ويخلصا لمالك الملك المشفق الرحيم ، ولكن الفتى لا يستطيع لذلك صبرا ولا يقوى على رياضة نفسه على تنفيذ هذا العزم وترغب نفسه الجامعة في الفرار من هذه البيئة المحدودة ويشتاق قلبه المحزون الى مخاطر الأسفار والمغامرات ؛ فينفذ هذا التصميم فعلا ويرتحل بعد أن يسجل تسجيلا مشوبا بالألم والضمنى أن شقيقته يبدو عليها أنها مستريحة لرحيله ان لم تكن مفتبطة سعيدة .

ومهما يكن من الأمر ، فانه يقذف بنفسه الى العالم الطويل العريض فيزور الآثار القديمة في مختلف الأصقاع ويستمتع بالمناظر الجميلة في متباين البلاد ، وينعم بالمدن الكبرى ومن يقطنها من العظماء والأفذاذ ويتأمل كل هذا تأملات دقيقة عميقة . وهنا لا نجد بدا من تنبيهه شاتوبريان الى أن رينيه - على أثر موت والده - كان فقيرا معدما وأنه هو وأخته قد وكل أمر الانفاق عليهما الى بعض أقاربهما ، وأنه بالتالى لا يستطيع القيام بنفقات تلك الأسفار الطويلة البعيدة فمن أين يأتى بكل هذا المال الذى يمكنه من تحقيق رغباته ؟ ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن شاتوبريان - فى رواية رينيه - يصور لنا حياته الخاصة فينسئ أن بطل الرواية كان فقيرا .

ومهما يكن من الأمر ، فان الذى لا ريب فيه هو أنه لا يحس فى قرارة نفسه بالسعادة ، بل هو لا يشعر بالرضى والاطمئنان والسر فى غيبة السعادة من حياته هو أن هذه الرحلة الطويلة قد كشفت كثيرا من غوامض الوجود فأخذ يفكر فى خفاياه ومعمياته ، حتى صار لا يرى الا الحياة على حقيقتها وأنها لسنا الا أشياء ضئيلة وطفق يسأل نفسه قائلا : « الى أين ذهبت تلك الشخصيات العظمى التى طالما أجدت ذلك الضجيج المدوى فى أنحاء المعمورة ؟ وكأنه يجيب نفسه على هذا التساؤل فيقول : « ان الزمان قد خطا خطوة فتجدد وجه العالم » .

وفي هذه الرحلة يقف بنا فوق بركان « اتنا » في صقلية : يرسم لنا صورة شاب مليء القلب بالأهواء الحادة وقد جلس على حافة فم البركان يندب حظ الفنانين من بنى الانسان الذين يرى مساكنهم في أسفل الجبل ، ثم يضيف الى نديه قوله : « على هذا النحو في كل حياتي تمثلت أمام عيني خلقا هائلا وغير ممكن الانكشاف والى جانبي هوة فاعرة فاها » .

وبعد هذه الرحلة يعود الى وطنه وكله أمل في أن يكون قد قضى على هذا القلق العنيف المتغلغل في أعماق نفسه وتلك الرغبة الحادة التي تتبعه في كل مكان ؛ ولكنه لا يكاد يستقر في أرض الوطن حتى يباغته ذلك السلوك الغريب من جانب شقيقته ؛ فيحدث في نفسه من الاضطراب أضعاف ما كان يشعر به قبل رحيله وكان من بؤادر هذا السلوك المدهش انها عندما تعلم بعودته الى الوطن واعتزامه زيارتها ، تكتب اليه ألا يفعل بحجة أنها ليست مستيقنة من استقرارها في مكان معين بسبب أعمالها وشواغلها . « واذ ذاك يحس بأن ذلك الأغصاء من جانبيها أو ذلك النسيان أو التناسي لحنائهما القديم يجرحه في صميم فؤاده ويحز في نفسه ؛ فيعزم أن يعيش في الوحدة التامة والعزلة المقفلة فريسة لفقدان الثقة الذي يمزق نياط قلبه » .

وفي هذه العزلة يحس كان عاطفة سوداء غامضة تنهش فؤاده ويخيل اليه أنه قد خلق لأحداث فاجعة ؛ تتكشف عن موت وتنتهي الى سفك دماء ، وأن هذه الأحداث هي التي ستهيء له أن ينشر جناحيه ويطير نحو أمكنة مجهولة يتوق قلبه الى رؤيتها وهو يرسم لنا هذه العاطفة الملتهبة فيقول : « انهضى وهبى ودمدمى أيتها العواصف التي يجب أن تجعل ريثيه في أجواء حياة أخرى » . ثم هو يسير في خطوات واسعة ووجهه يلتهب حمرة والرياح تصفر في شدة ، دون أن يحس بردا ولا مطرا كأنه مسحور معذب أو كان به مسا من شيطان قلبه » .

وانه لعل هذه الحالة اذ بضعف شديد يصيبه فجأة ؛ فيياس ويهضم على الانتحار .

وعلى أثر هذا يكتب الى « أميل » رسالة بقصد تنظيم أعماله ولكن هذه الأخيرة — لأنها معتادة على أن تقرأ ما بين طيات القلب الأخوى من أسرار — لا تجد عمرا في أن تتنبأ بكل ما اعتزمه . وفي الحال تسرع اليه غارقة في دموعها وتهتف به قائلة : أيها الجاحد أتريد أن تموت واختك على قيد الحياة ؟ أنت تتهم قلبها ؟ أنتي فهبت كل شيء كأنني كنت معك . ثم لا تزال به حتى تستنقسه بكل منرجة من الإيمان ألا يحاول بعد الآن

العدوان على حياته ؛ فلا يسع رينيه الا أن يعود الى الحياة لأن مشهده هدم
الأخت المحبوبة التي تلقت من الطبيعة شيئاً الهيا ، كان يسحره ويفغره
بأنعبطة والسعادة .

بيد أنه مع الأسف لا يلبث أن يلمح أن « أميل » تفقد الهدوء
والصحة وهكذا لا تنقضى بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى تأخذ حالتها في
الهبوط يوماً بعد يوم وأخيراً ترتحل خفية ، بعد أن تترك له كتاباً حزيناً
مؤثراً تقول له فيه إنها يجب عليها أن تدخل الدير لتشبع الهامها الديني
وتذكره بقسمه ، أو لينيم هذا الارتباك على أقل تقدير .

واذ ذاك يستولى اليأس على رينيه ويهرول الى الدير ليحارب هذا
المشروع اذ كان الوقت لا يزال فيه متسع لذلك ؛ ولكنه لا يستطيع أن
ينفرد بها ؛ لأن قواعد الدير القاسية تحول بينه وبين أمنيته فلا يسعه
الا أن يكتفى بمشاهدة الطقوس الأخيرة التي تسجل انقطاعها لربها ، وبينما
هو منحرف على التابوت الذي ملئت فيه « أميل » كما يمد الجثمان في القبر
إشارة الى تخليها عن عالم الحياة ، اذ به يسمع بضع كلمات تفوه بها أخته
فتقع على قلبه وقوع الصاعقة ، حيث يفهم منها بفتة أنها كانت تحبه حبا غير
أخوى وانها تتمنى الموت عقاباً لها .

وأخيراً يشعر رينيه بأنفعال مأساوي واقعي ليس من نوع الأخيلة
التي تطوف به عادة وحينئذ تنقض عليه أهواء وأحاسيس قاسية . انقضاض
الوحش على فريسته ولا تزال تنهش قلبه وتقضم فؤاده ، حتى تنزل به
أعنف ألوان التعاسة والشقاء . ومن العجب أنه اذ يصل الى هذه الحالة
المريرة يفقد الرغبة في الموت ؛ ولكنه يصمم على أن يهجر أوربا نهائياً ويرتحل
الى أمريكا . وهناك يتسلم كتاباً من رئيسة الدير تنبئه فيه بأن « أميل »
قد توفيت ضحية الاحسان والاخلاص في العناية بمعالجة المصائب
بالأدواء المعدية من صاحباتها .



هذا هو موجز تلك الرواية الساحرة وفي بطلها المحزون المعذب
يرى القارئ جيلاً كاملاً ماثلاً للعيان ، بصورة أكثر قتامة واسودادا من
صورة « فريز » فان رينيه - اذ يوصف هذا الوصف الدقيق ويحلل ذلك
التحليل العميق بأسلوب شاتوبريان الذي لا يقارن - تتجسد فيه كل
آلام العصر المكونة من عناصر شديدة التباين مليئة بالمفارقات : فمن انهيار
في الثقة واليقين الى موت عنيف الى خيبة أمل أخلاقية أو علمية الى أحلام

إسانية سامية لا تكاد تحلق في عالم النور ، حتى تهوى كلمى صريعة من ضربات الأحداث الواقعية المتوحشة ، وتنسحق تحت منابك التجارب العملية الى بأساء قاسية شديدة الوطء وترزح تحت القوى الممتازة ، الى نفى مفعم بالعزلة المريرة الوحشية، الى غيبة تامة للمواساة والتاسى ، الى فقدان كامل للايمان العمل المنتج الى تاليهية عائمة متموجة لا تحدد غاية ولا تعين نهاية ، الى أهواء هائجة نائرة غير ممكنة الاشباع والارواء . وتلك هي العناصر الأساسية التى يتألف منها مجتمعة جوهر القلق والضجر والحزن والانقباض وما الى ذلك من الأعاصير التى اجتاحت ذلك العصر وأصابته كل أهل ذلك الجيل وكانت عنوان تلك الحقبة ، والتى استطاعت ريشة شاتوبريان أن تصورهما فى رينيه فتبدع التصوير وتحددها فتحكم التحديد .

پیرچینت

اُبسک

۲۱۸۶۷

فى عالم المسرح الأوروبى عمالقة كبار سطع بريقهم فى سماء الأدب والفن الرفيعين فاستولوا على الافئدة والأبصار وظلوا نجوما ثابتة بـزاقة على مر الحقب والعصور ، لا يخبو نورها أو يصيب بريقها الضعف والزوال . وإذا حق للانجليز أن ينظروا الى شاعرهم الروائى الأكبر شكسبير نظرتهم الى نعمة من نعم السماء اختصهم بها الخالق دون غيرهم من البشر ، وإذا كان للألمان أن يفخروا بجوته باعث نهضتهم الأدبية ورافع فنهم المسرحى الى أعلى السماء والذرى ، فإن للنرويجيين تراثا أدبيا وفنيا خالدا يدينون بمعظمه الى عملاق أدبهم المسرحى « هنريك إبسن » .

ولد إبسن فى قرية صغيرة من أعمال النرويج فى عام ١٨٢٨ ؛ ولم ينس له أن يتلقى تعليميا عاليا بالمعنى الصحيح لضيق ذات اليد ؛ فاضطر الى أن يعمل أجيرا لصيدلى فى بلدته الصغيرة وهو لم يتعد الخامسة عشرة من العمر . وكان إبسن يمقت عمله هذا أشد المقت وكان يشعر فى قرارة نفسه بأن مجاله الرحب الفسيح هو ميدان الأدب والشعر ؛ ولهذا كان يعكف فى أوقات فراغه وكلما سنحت له الفرصة العابرة على نظم القصائد وهو بعد فى أول ربيع الشباب .

وفى عام ١٨٥١ ، حنا عليه الدهر حينما فنال بعض ما كان يتمنى ؛ ففقد انتقل الى بلدة برجن فى النرويج وأثار اهتمام عليه القوم فيها ؛ فاختاروه ليشرف على اعداد الروايات المسرحية لمسرح المدينة وظل إبسن يشغل هذا المركز حتى عام ١٨٥٧ . ولم يستطع إبسن أن ينال حظوة حقيقية لدى مجتمع الطبقة البرجوازية السائدة آنذاك فى « برجن » ، بل لقد أثار نقمة المجتمع عليه وسخطه لجراته فى القول والنقد وخاصة فى روايته المسرحية « كوميديا الحب » . وكان لابسن فيما لاقاه من جحود وعزوف أسوة فى كبار أئمة الأدب الذين سبقوا عصرهم بمراحل وأشواط بعيدة أمثال الشاعر الانجليزى شيللى فآثر إبسن أن يرحل عن وطنه فترة من الوقت تجول فى أثنائها فى ربوع إيطاليا الساحرة الجميلة ، تلك الربوع التى طالما كانت ملاذا لأمثاله من الأدباء والفنانين ثم ألقى عصا الترحال فى ألمانيا وأقام أكثر وقته فى مدينة ميونيخ ما بين عامى ١٨٦١ الى ١٨٩١ . وكان أن أنتج هذا الزمن القاسى عليه ، الذى قضاه أشبه ما يكون بالمنفى أشهر رواياته المسرحية : بيرجنت والدمغة ورواية أعملة المجتمع .

وفى عام ١٨٩١ عاد الى وطنه وكان الناس قد بدأوا يعترفون بفضلته ففضى أواخر حياته فى هدوء وطمأنينة ، الى أن وافاه الأجل فى

عام ١٩٠٦ ، بعد مرض دام أربع سنوات كاملة وهد قواه الجسدية والعقلية معا .

ابسن مجدد الأدب المسرحي في أوروبا :

ويعتبر ابسن بحق مجدد الأدب المسرحي في أوروبا ، بعد أن نزل هذا الأدب الى الشركات ، ذلك أن ابسن أثر أن ينفض عن الدراما غبار التقاليد المتراكم الذي جعل منها دراما ميكانيكية روتينية تهتم بالشكل والمبنى دون الروح والمعنى . وكان محور مسرحيات ابسن يرتكز الى فكرتين أساسيتين جعل منهما الكاتب هدفه المنشود .

أما الفكرة الأولى فإيمانه العميق بقيمة النفس البشرية، ذلك الإيمان الذي دفعه ساعيا بكل ما أوتي من جهد فكري لاعلاء حرية الفرد ولاصراره على أن الفرد اذا ما أتاحت له حريته الصحيحة أن يختار طريق البعث بواسطة الثقافة الرفيعة والخلق القويم المتين ، سعى الى انقاذ نفسه ، ومن ثم عمل على تطوير المجتمع واصلاحه وانقاذه .

أما الفكرة الثانية فهي تمسكه بقيمة الحب الحقيقي الخالص من شوائب النفاق والأثرة والنمويه . واعتقد ابسن أن غاية ما يصيب الفرد الانساني من مأساة في هذه الحياة انما هو حرمانه من أن يهب وأن ينال مثل هذا الحب الحقيقي سواء بسواء .

وقد عد ابسن في عصره الذي عاش فيه متشائما متوحدا . ولكنه كان في الحقيقة من أكبر المتفائلين لا بالنسبة لعصره وحده ، ولكن بالنسبة الى أملة في الانسانية وما يستطيع الانسان عمله في سبيل بناء مستقبل أفضل ومجتمع أمثل يقوم على المحبة والصدق .



مسرح ابسن

ابسن اول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح

لم يكن الكاتب النرويجي « هنريك ابسن » هو مبتكر المذهب الواقعي في الأدب كما يزعم كثيرون ، ولكنه كان صاحب أقوى دفعة بهذا المذهب نحو الحياة المتحررة . وقد اختار « ابسن » خشبة المسرح ليكون معرضا لمذهبه الجديد كما اختارها من سبقوه في هذا الميدان أو بتعبير أدق كما اختارها من سبقه ، وأعنى به « مولير » على وجه التحديد .

كانت مسرحيات « مولير » هي اللبنة الأولى في صرح الواقعية ، فقد صور بقلمه النارى عيوب مجتمعه الفاسد الذى اشترك فى تلويثه وافساده من كانوا يسمون أنفسهم رجال الدين والنبلاء وتضافرت على اتلافه قوى الرجعية والتقاليد البالية .

ولم يكتف « مولير » بمجرد التصوير بل أخذ يهدم الأصنام . . . أصنام التعفن والفساد والتقاليد . وكانت وسيلته فى ذلك الهدم هي كوميدياته الخالدة التى أخذ يقدمها كوميديّة تلو كوميديّة ؛ فتلقى أكبر التجاوب من الجماهير وتهز معاقل الرجعية هزا عنيفا .

وعندما مات مولير ، لم يأت بعده من يخلفه أو يدين بدينه ، ولم يعرف المسرح مؤلفا يمسك بالمبضع ليشرح المجتمع الذى يعيش فيه ولم يحاول كاتب من كتابه السير فى الطريق الذى مهده مولير . . . ومضت السنوات وتتابع الأجيال حتى كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما ظهر خليفة مولير الذى حمل لواء الواقعية وجرد قلمه ؛ ليصور عيوب مجتمع عصره على خشبة المسرح وليهدفها عيبا عيبا بمثل القلم المر الذى حمله الكاتب الفرنسى الكبير .

صور « إبسن » أكبر رذائل عصره وهو النفاق وشن عليه حملة شعواء . ولم يترك لونا من ألوان النفاق . . . هاجم نفاق السيد للمسود ونفاق الزوج للزوجة ونفاق رجال الدين وحارب الانتهازية والوصولية التى جعلت من الفرد آلة صماء يحركها غيره ويفرضون عليها أفكارهم .

خاض « إبسن » معركة من أعنف المعارك ، ولفت اليه أنظار المفكرين فى أنحاء العالم كله واستطاع أن يوقظ الأفراد فأيدوه فى كل قضية اجتماعية أثارها ؛ لأنهم أدركوا أنها مشاكلهم . . . ومن ثم ثار عليه المحافظون ، وزعموا أنه تعرض لمناقشة أمور لا يجوز لأحد مناقشتها ، فكان جوابه عليهم وعلى ما زعموا أنه قد آن الأوان لثورة الانسانية على كل ما يقف حائلا بينها وبين التقدم ، وأنه لا يعطل ركب الانسانية الا التقييد بالتقاليد البالية .

وقد انتصر « إبسن » فى كل قضية خاضها وتحزّر العالم أو معظمه من ألوان العبوديات التى حاربها كلها . ولهذا السبب أصبحت معظم مسرحياته غير ذات موضوع فى أيامنا هذه ؛ لأنها تعالج مشاكل لم يصبح لها وجود فى العصر الحديث . . . غير أن هذا لا ينقص من قيمتها الفنية بحال من الأحوال كما لا يجردها من فضيلتها الكبرى ، وهي أنها كانت تدعو الى تحرير الأفراد حتى تحرروا .

غير أن « ايسن » لم يبدأ بكتابة المسرحيات الواقعية عندما أخذ يكتب للمسرح ، بل بدأ بمجارة أسلوب عصره الرومانسي فكتب في عام ١٨٥٠ تراجيديا « كاتيلينا » التي تصور حياة الثائر الروماني المعروف بهذا الاسم ولعله قد اختار شخصية ذلك الثائر القديم ليخفي وراءه شخصية الثائر الجديد أى شخصيته هو . ثم كتب مسرحية رومانسية أخرى من فصل واحد هي « قبر المحارب » وأعقبها بمسرحية « أمسية سنت جون » وهي كوميدية من النوع الرومانسي كذلك ، ثم مسرحية « ليدى أنجر » و « وليمة سولهورج » ، وكانتا درامتين رومانسيتين لا تختلفان عن درامات ذلك العصر الا بأنهما بنيتا على أساس من القصص الشعبي النرويجي القديم ، وأنهما كانتا حافلتين بالأغاني الشعبية التي كانت منتشرة على ألسنة الناس حينئذ . وقد ترجمت « وليمة سولهورج » الى اللغة السويدية ومثلت في السويد وبلجيكا والدانمارك ؛ فكانت سببا في شهرة ايسن خارج بلاده .

غير أن النجاح الذي لاقته « وليمة سولهورج » لم يتكرر عندما قدم مسرحيته التالية « أولاف ليلجكرانز » وهي دراما رومانسية تصور صراعا عاطفيا بين امرأتين على حب فارس من الفرسان تفوز فيه الغانية اللعوب على الخطيبة المحبة الطيبة القلب ، ولكنه لم يياس فقدم بعد عام واحد مسرحية « قراصنة هليجلاند » وهي تراجيديا مأخوذة عن أسطورة معروفة تصور امرأة قتلت حبيبها ثم انتحرت فبعث هو حيا ، وتحولت هي الى عروس من عرائس البحر .

وقد أجمع نقاد المسرح على أن بوادر الاتجاه نحو الواقعية في مسرح ايسن ، قد تجلت في ومضات ومواقف من تراجيديا « القراصنة » هذه ، غير أنها لم تتضح تماما الا في مسرحية « كوميديا الحب » التي كتبها في عام ١٨٦٢ ، وإن كان قد أخطأ خطأ كبيرا عندما كتبها شعرا ، فأفقدتها كثيرا من واقعيتها اذ ان الناس لا يتبادلون الحديث في حياتهم العادية منظوما مقفى . وفي هذه المسرحية عرف الكاتب نفسه ورسالته أعلن مسخطة على النفاق الاجتماعي ، ودعا الى حرية الفكر والعلم كما سخر من الأسس المفتعلة التي تقوم عليها العلاقات الزوجية .

تتلخص المسرحية في أن أرملة تملك منزلا كبيرا استأجره عدد من الرجال المتزوجين بينهم القسيس والموظف والتاجر وفيهم شاعر شاب ذو أفكار متحررة انهم جميعا يدعون الى خجل مبهر في حديقة المنزل ، وهناك يدور الحديث عن الحب والزواج فيطلق ايسن العنان للشاعر

ويجرب على لسانه حديثا جريشا يتهم فيه الحاضرين جميعا بالرجعية والمادية والنفاق ويهاجم الأسلوب الذي انتهجوه في حياتهم الزوجية والمعيشية ثم يعلن أن مجتمعهم ليس الا مجتمعا زائفا مزورا . . . وتنتهي المسرحية نهاية أكثر جراءة وأكثر سخيرية اذ يقرر زوجان - نتيجة لما سمعاه - أن ينفصلا وينهيا حياتهما الزوجية ، خوفا من المصير المحتوم لتلك الحياة !!

وقد قوبلت هذه المسرحية عند ظهورها بعاصفة من الاستياء وهوجمت هجوما عنيفا ، أدى الى حرمان « ابسن » من منحة حكومية كان مقدر أن ينالها بصفته شاعرا وكان يعاونه على نيلها صديق له من الوزراء .

كان النقد الرجعي الذي وجه الى مسرحية ابسن الواقعة الاولى هو أنها تقدم أول مرة على خشبة المسرح شخصية القسيس الموقرة فتسخر منها او على الأقل لا توقرها التوقير الواجب ، وأنها استهترت استهتارا معيبا بالقاليد واستخفت برابطة الزواج المقدسة ، هاجمها الرجال الدين هجوما عنيفا لا هوادة فيه وتطلع « ابسن » الى المثقفين والى القلة الواعية من المفكرين ولكنهم خذلوه ، حتى ان الفيلسوف « مونارد » وصف المسرحية بأنها « ليست كوميديا ولا عملا فنيا بل هي مجرد هجوم وهجاء وسب علني ! » .

واضطر الى كتابة مسرحية جديدة « المدعون » في آخر عام ١٨٦٤ ، وقد لقيت اقبالا كبيرا خفف من حدة ثورته وجعله يرجي هجرته فترة من الزمن .

وعندما ذهب الى المانيا لم تعجبه غطرسة الجنود الالمان الذين ملاهم النصر غرورا . فاتجه لتوه الى ايطاليا حيث اختار روما مقرا نهائيا له . وهناك كتب مسرحية « براند » في عام ١٨٦٦ وأرسلها الى الترويج حيث مثلت ولاقت نجاحا كبيرا ، حمل الحكومة هناك على منحه ما كان يطلق عليه حينئذ « معونة الشاعر » ، وهو مرتب شهري يضمن للشعراء المبرزين حياة مستقرة كريمة .

لم يكن ظهور مسرحية « براند » أقل من ثورة فكرية ، ولم تكن شخصية بطلها أقل من صرخة ملوية تشهد بافلاس روح المجتمع ولم يكن « براند » نفسه سوى ابسن ، فقد اعترف الكاتب الكبير ذات مرة بقوله : « ان براند هو نفسى فى أروع حالاتها » .

وفي عام ١٨٦٧ م كتب « ابسن » مسرحية « بيرجنت » وهي - على النقيض من « براند » - تقدم شابا وضيع النفس كذوبا أنانيا وصوليا يؤمن بالانتهازية وأن الغاية تبرر الوسيلة... وإذا كانت مأساة « براند » قد نتجت عن عناده وتمسكه بمثله العليا ، فإن مأساة « بير » قد ولدتها أنانيته كما ولدها جبنه... إنه يفرى عروسا في ليلة زفافها وهو يراقصها ويهرب بها الى مكان جبلي بعيد حيث يعتدى عليها ثم يتركها وحيدة لتجابه آلام الندم وعار الخطيئة ، أما هو فيهرب من الترويع ويجوب أنحاء الأرض ثم يعود ليلقى مصرعه في عاصفة هوجاء .

وفي عام ١٨٦٨ كتب ابسن مسرحية « عصابة الشباب » ، وهي شديدة الشبه بمسرحية « بيرجنت » وبطلها « ستنسجارد » هو « بير » نفسه منقولا الى عالم السياسة... فهو محام وصولي يؤثر منفعة الشخصية ويخدع الطبقات الفقيرة بعباراته المعسولة ووعوده البراقة حتى اذا ما وصل الى غايته وأصبح من كبار الساسة ، تنكر لمبادئه ثم مثل الدور نفسه في الطبقة الجديدة التي ارتفع اليها وحاول خداع ثلاث فتيات دفعة واحدة ، ولكنهن اكتشفن أمره في اللحظة الأخيرة... وقد أثارت هذه المسرحية جماعات الاشتراكيين ؛ لأنهم وجدوا فيها تعريضا بهم .

وفي عام ١٨٧٣ ، عاد ابسن الى كتابة المسرحيات التاريخية ، فكتب « الامبراطور والجليل » التي تقع في جزئين وهي تصور الصراع في نفس الامبراطور « جوليان » وعقله بين المسيحية والوثنية... وليس في هذه المسرحية أكثر من الصراع بين عقيدتين في نفس انسان .

وفي عام ١٨٧٧ بدأ كتابة أولى حلقات سلسلة مسرحيات اجتماعية فقدم « أعمدة المجتمع » التي تصور قنصلا غنيا ، يتمتع بسمعة طيبة تجعله دعامة المجتمع الذي يعيش فيه ؛ ولكنه كان في الحقيقة شريرا فاسدا يخون ابن شقيقه زوجته ويتهمة بالسرقة وفي اللحظة التي يقرر فيها إبعاده على سفينة معطوبة لينفرد بزوجه ، كان الجمهور يتجمع حول بيت القنصل هاتفا بحياته فيطل عليه هذا من شرفة ليفاجئه معترفا بالحقيقة الرهيبة... غير أن الجمهور المنافق سرعان ما يتغاضى عن « حماقات » القنصل . أما زوجة ابن شقيقه زوجة القنصل فتصر على الرحيل .

وفي عام ١٨٧٩ ، قدم ابسن مسرحية « بيت الدمية » التي أثارت جدلا كثيرا واختلفت بشأنها الآراء اختلافا شديدا . أن بطلة المسرحية « نورا » هي زوجة محام وأم لثلاثة أطفال ، نشأت في بيت والدها مسلووبة الحقوق ثم عاشت في منزل الزوج مسلووبة الحقوق كذلك حتى أصبحت

مجرد دمية ليست لها ارادة ... ولكن المسرحية لا تنتهى حتى تعلن فى قوة أنها لن تبقى فى هذا البيت وأن حياتها كدمية قد انتهت ؛ لأنها ستبدأ حياة جديدة تسترجع فيها ارادتها وشخصيتها وحريتها .

كان ابسن فى هذه المسرحية يتنبأ بأن المعجزة ستحدث ، وأن العالم سيشهد عهدا تتساوى فيه المرأة بالرجل... ولكنه اتهم بأنه هادم الأسرة ومفسد المجتمع .

وفى عام ١٨٨١ ، كتب ابسن مسرحية «الأشباح» ، التى يقدم فيها طرازا آخر من النساء فى شخصية « مسز الفنج » . إنها تختلف عن « نورا » بطلة « بيت الدمية » اختلافا جوهريا ... فقد كانت الأولى قطة متوحشة أما هذه فسيده دمثة الأخلاق لينة الجانب تقدس الزواج تقديسا وتخضع للمجتمع ... لقد اكتشفت بعد الزواج أن زوجها مدمن على الحمر ومصاب بمرض الزهري ، وأنه غرر بخادمها فأنجبت منه طفلة .

وفى عام ١٨٨٢ ، قدم ابسن مسرحية « عدو الشعب » التى برهن فيها على أن الأقلية الواعية قد تكون على حق وأما الأغلبية الكبرى فهى دائما على ضلال .

ان مسرحية « عدو الشعب » تبرهن على أرستقراطية ابسن الفكرية وهو اذ ينهيها بقول بطلها الطبيب : « ان أقوى رجل فى العالم هو الذى يواجه الحياة وحيدا » انما يدل على طبيعة تفكيره .

وفى عام ١٨٨٤ ، قدم ابسن مسرحية «البطة البرية» ، وهى مسرحية تميل الى الرمزية وأتبعها فى عام ١٨٨٦ بمسرحية « روزمير العجوز » ، وفكرتها أن التقاليد لا تفعل الا أن تشل ارادة الانسان . ثم بمسرحية « سيدة البحر » فى عام ١٨٨٨ وفيها يدعو الى الحرية مع المسئولية الكاملة .

وفى عام ١٨٩٢ ، قدم مسرحية « البناء العظيم » وهى دراما رمزية أخرى ضمنها ابسن كثيرا من تجاربه .

وفى الفترة من عام ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٠ ، كتب ابسن مسرحيات هى « ايولف الصغير » و « جون جبريل بوركمان » و « حين نبعث نحن الموتى » .

وتتمتاز مسرحيات ايسن بميزات واضحة هي :

- ١ - أن المسرحيات التاريخية منها تبدأ بداية عاصفة • أما المسرحيات الاجتماعية فتبدأ هادئة مشوقة معتمدة على الحوار الدقيق •
- ٢ - أن ايسن لزم فيها وحدة الزمان والمكان كما وضعها اليونانيون •
- ٣ - أنها محكمة البناء المسرحي احكاما دقيقا لا يجاريه فيه مؤلف آخر •
- ٤ - أن الحبكة فيها تبدأ بالقرب من نقطة الزمن ، مما يساعد على اخضاع المسرحية للوحدات الفنية المسرحية الثلاث وهي الزمان والمكان والحدث •
- ٥ - أن شخصياتها من النماذج الانسانية العالمية الطبيعية •

قال برنارد شو : « ان أستاذي النرويجي هو أول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح وقد ظل حتى آخر حياته الأدبية قادرا على انتزاع الاعجاب ويتمتع بعقليه خصبة » •

ان ايسن له فضل كبير على المسرح الحديث ، فهو فضلا عن أنه أول من عالج المشكلات الاجتماعية في مسرحياته ، كان أول من كتب مسرحية الفكرة التي قلده كثيرون في كتابتها فيما بعد •



مسرحية بيرجنت

● يبدأ زمان أحداث المسرحية في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وينتهي حوالي عام ١٨٦٧ •

● وتدور الأحداث في أمكنة عديدة مختلفة مثل جدير اندسداال والجبال المحيطة بها في النرويج ، شاطئ مراكش ، الصحراء الكبرى بأفريقيا ، مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة ، وفي البحر •

● تعتبر بيرجنت قصيدة خيالية طويلة ، لم يقصد ايسن أن يضعها لتمثيل على المسرح ؛ ولكن المخرجين فتنسوا بشعرها الجيد الرائع فراحوا ينبارون في اخراجها على المسرح اخراجا شاعريا رمزيا •

● كتبت هذه القصيدة عام ١٨٦٧ وفي عام ١٨٧٦ أعدها ايسن اعدادا مختصرا لتعرض على مسرح كريستيانيا، حيث صاحبها موسيقى من

تأليف جريج وبالتدريج أصبحت هذه المسرحية من المعالم الهامة فى أعمال المسارح الأسكندنافية الرئيسية .

● طبعت أول ترجمة لهذه الرواية باللغة الألمانية عام ١٨٨١ وباللغة الانجليزية عام ١٨٩٢ وبالفرنسية عام ١٨٩٦ .

● مثلت فى فرنسا وانجلترا على أساس الاعداد المختصر لها .

● فى سنة ١٩١٦ أخرجها رتشارد مانسفيلد فى شيكاغو بدون أى تعديل أو اختصار .

● تعتبر بيرجنت من المسرحيات الرمزية الساخرة، بالرغم من ان مؤلفها كتب عنها يقول : « ان بيرجنت شخص حقيقى عاش فى « جذير اندستال » فى أواخر القرن الماضى أو أوائل القرن الحالى (التاسع عشر) ان اسمه لا يزال معروفا بين الفلاحين فى تلك المنطقة أما رحلاته فلا يعرف عنها شئ أكثر مما يوجد فى القصص النرويجية الخيالية » .

★★★

كان بيرجنت غلاما نرويجيا مزارعا فى الثامنة عشرة من عمره ، مفتول العضل ممتلئا حيوية وهو مع حيويته هذه غلام كسول متراخ جمعاج كذاب يقطع أيامه فى الأوهام والأحلام ومفاخرة الناس بالباطل ولا يفتأ يخاشنهم ويتشاجر معهم لآتفه الأسباب ، وبالإضافة الى كل ذلك كان أنانيا نزقا مراوغا لا عهد له ولا وفاء عنده ، أما ميزته الوحيدة فهى أنه كان يتمتع بقوة خيال شاعرية كانت تضىء عليه سحرا لا يقاوم .

وفى ذات يوم أخذت أمه الأرملة « آسى » توبخه من أجل كسله وتراخيه وإهماله شئون المزرعة ، فما كان منه الا أنه أخذ يسخر منها ويستهزئ بها قائلا : « يا أمى يا حبيبة القلب يارثة الهيئة يا بشعة المنظر » انك صادقة فى كل ما تقولين فلا تحملى همى أبدا وما عليك الا أن تتذرعى بالصبر وتأخذى بأهداب الأناة ، فلسوف أصبح يوما ما قيصر عظيم الجاه رفيع الشأن أمر وأنهى وأتصرف فى شئون الخلق » .

ولكن أمه تنظر اليه شزرا ثم تعيره بأن كسله وتراخيه قد ضيعا عليه « انجريد » ، تلك الفتاة الجميلة الفاتنة التى ستزف الية الى عريسها . وما يكاد ير أن يسمع ذلك من أمه حتى يهدد ويتوعد . . . انه يحب هذه الفتاة حبا جنونيا ، ولذلك فهو يقسم بالذهاب الى العرس ليجعله عرسا مشئوما على أصحابه ! .

ثم ينطلق الغلام الى مكان العرس بعد أن حمل أمه بيديه القويتين ليضعها فوق ذروة من العشب ؛ كي لا تحول بينه وبين ما يريد من شر .

ويحاول بير أن يقتحم مكان الاحتفال ، ولكن المشرفين عليه يحولون بينه وبين الدخول لقدارة ملبسه وراثته هيئته ، ولما يعرفون عنه من ميله الى المشاكسة والعراك فينتحى بير ناحية حيث تعطف عليه الفتاة سولفيج احدى الوافدات على العرس؛ ولكنها لاتكاد أن تسمع من صويحيباتها ما يلوكه الناس عنه حتى تعرض عنه هي الأخرى فيشتد غيظه ويحس بالاهانة تدمى فؤاده فينطلق الى حيث يحب كثيرا من الحمر ملتصبا السلوان فى الكأس بعد أن فقد فى الناس . ثم يعود بعد قليل الى مكان الحفل وفى نفسه ما فيها من الحنق والغيظ ولا يكاد أن يحس الناس منه ما يعتزمه من فتك وبطش؛ حتى يتقدم اليه العريس بنفسه راجيا منه أن يذهب الى حيث حبست العروس نفسها فى أحد مخازن الحبوب ليأتى بها بالرغم منها . ويرحب بير بهذه الفرصة المواتية وينطلق الى المخزن الذى حبست العروس فيه نفسها .

وتقبل بعد ذلك آسى والدته بير وهى تحمل هراوة غليظة وتقول انها انما جاءت لتخلع على ولدها لقب الفروسية بدقه بهذه الهراوة دقا عنيقا موجعا ، وبينما هى تقول ذلك اذا بولدها يحمل العروس انجريد على كاهله العريض القوى ويجرى بها فوق الجبل القريب فتصيح به أمه : « أسأل الله أن تسقط سقطة يلق بها عنقك ... انتبه لنفسك أيها الغبي وقدر لرجلك قبل الخطو موضعها ... احذر أن تنزلق أيها الشيطان » . ولكن بير لا يبالي بشئ . . . لقد فاز بالفتاة وقضى منها وطره ! .

ولكنه سرعان ما يزهد فيها فيتخلى عنها ليبدأ سلسلة عجيبة من المغامرات . لقد قامت ضد بير كل البلدة وعلى رأسها هجستاد والد انجريد التى سلبها شرفها وتركها حطاما ، فلم يكن هناك بد من أن يهجر بير البلدة ويهيم على وجهه فى الجبال والفلوات .

ويشعر بير بالوحدة والضياح وبالتدريج يفقد احساسه بالواقع وأحلامه ويتفتح عقله لعلاقات أخرى مع عالم آخر . . . عالم لا يمت للواقع بصلة وبينما هو هائم على وجهه يلتقى بفتاة من عالم الخلائق الشائنة فيسحر بها؛ بالرغم من أنها تحمل ذيلا كذيل البقرة وتقوده الفتاة الى والدها الملك الذى يعلمه الفرق الأساسى بين الانسان والمخلوق الشائه . يقول

له الملك ان الانسان يدين بالفلسفة التى تنادى بمعرفة الانسان لحقيقة نفسه ، ولكن مفتاح السر فى مملكة الخلائق الشائنة هى ان تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء .

ويتزوج بير ابنة الملك ثم يهجرها بسرعة ويطلق ساقيه للريح وبينما هو فى طريقه يقابله مخلوق غامض شائه المنظر ، لا يتبين أحد رأسه من ساقيه ولا وجهه من قفاه هذا الغول المفزع العجيب المدعو بويجن يأخذ على بير سبيله فلا يدعه يمضى كما يريد . . انه فى طريقه أينما ذهب وكيفما سار ليحول بينه وبين هذا الجبل الشامخ الذى يحاول أن يرقاه . ويأخذ الضيق والملل ببير كل مأخذ ، وفى لحظة من لحظات غضبه يتحدى بويجن فى عزة وكبرياء أن يبارزه ولكن الغول الشائه يسخر من بير قائلا : « ان بويجن العظيم ينتصر دائما ولا يحارب أبدا » ويأخذ بويجن فى اسداء النصيح لبير قائلا : « لا تذهب فى حياتك فى الطريق المستقيم . اختر دائما الطريق الملتوى لا تقل رأيك واضحا وحاول دائما أن تصل الى ترتيب أو اتفاق مع الآخرين ، لتكون وراءك قنطرة تسير عليها اذا تأزمت الأمور » .

★★★

وينطلق بيرجيت ليزرع وجه الأرض من جديد ، فها هو ذا يبيع العبيد فى أمريكا والأصنام فى الصين كما يبيع فيها الخمر والانجيل وتمر الأعوام فيقتنى الأموال الجمة التى ينشلها منه بعض النشالين ؛ فيحتال لاستعادة ما فقد بأن ينتحل شخصية أحد الأنبياء العرب ، ليبتز ما تصل اليه يده من أموال من تجوز عليهم حيلته من العربان الضاربين فى الصحارى الأفريقية ! .

لقد مضت الآن قرابة عشرين عاما منذ أن بدأ مغامراته فى الخارج انه لم يعد يؤمن بفلسفة « اعرف نفسك » ، فهو فى الواقع يسير حسب مبادئ الخلائق المشوهة . . تلك المبادئ التى جعلته يفقد نفسه فى طريق الانانية وحب الذات وفى هذا الموقف يستعمل ابسن تعبير جميل من تعبيرات شكسبير فى مسرحية رتشارد الثالث ؛ ليوضح نفسية بيرجيت التى أصبحت تنزع الى سياسة التوافق والتراضى والالتواء التى نصحه بها بويجن ! ففى وسط الصحراء الأفريقية نبتت فى ذهنه فجأة خطة جريئة يكسب من ورائها مالا وفيرا؛ ولكنه لا يستطيع أن يصبر على تحقيقها . . . بل يريد أن ينفذها فى الحال . . . ولكن لابد له من جواد ليطير به

الى حيث يريد وعندئذ يصيح كما صاح رتشارد الثالث « جواد !! أعطى مملكتى فى مقابل جواد ! » . ولكنه يتوقف لحظة ويصحح كلامه قائلا : « نصف مملكتى فى مقابل جواد » .

وعلى هذا النحو يضرب بيرجينت فى ببداء حياته التى لا يهدف فيها الى شىء فنراه يتوج ملكا على المجانين فى مستشفى الأمراض العقلية ، ثم يصبح عالما من علماء الآثار وهو بين يدى أبى الهول والأهرام فى مصر .

ويحس بيرجينت بالوحدة والشقاء بالرغم من ثرائه ، فيفكر فى العودة الى وطنه النرويج فيستقل سفينة تمخر به عباب اليم ، ولكن السفينة ترتطم ببعض الصخور بسبب عاصفة هوجاء فيعلق بير ومعه طباح السفينة بلوح ضعيف من الخشب لا يكفى الا لانقاذ شخص واحد فحسب ويدرك بيرجينت ذلك ، فلا يتورع من أن يركل الطباح البائس ركلة تبعده عن لوح الخشب وتهوى به الى قرار البحر لينجو بنفسه من برائن الموت ، ويصل بيرجينت أخيرا الى النرويج بعد جهاد طويل متصل ضد كل شىء حتى ضد نفسه .

والآن وقد عاد بيرجينت الى مسقط رأسه بعد جهد وتعب ، ينظر المسكين فى صحيفة حياته فيجدها سلسلة من المغامرات والضرب بالقيم الأخلاقية عرض الحائط فيتمنى لو استطاع أن يقضى مغرب العمر فى راحة وصفاء بال وفى عزلة من الناس .

ولكنه يخرج يوما الى الفلاة فيلتقى بسباك حاملا صندوق أدواته وبوتقة كبيرة ليصهر الحديد .

السباك : مرحبا بك أيها الريفى العجوز .

بيرجنت : مساء الخير يا صديقى .

السباك : تبدو عليك العجلة الى أين أنت ذاهب ؟

بيرجنت : الى جنازة ميت .

السباك : حقا ؟ اسمح لى أن أسألك : هل تدعى بير ؟

بيرجنت : ان اسمى هو بيرجنت .

السباك : يا للمصادفة السعيدة ! انه بيرجنت بالذات ذلك الذى أبحث عنه .

بيرجنت : ولماذا تبحث عني ؟

السباك : الواقع اننى سباك كما ترى ويتحتم عليك أن تسقط فى بوتقتى .

بيرجنت : لماذا ؟

السباك : لكى تصهر .

بيرجنت : أصهر ؟

السباك : نعم ان بوتقتى نظيفة وفارغة . لقد حفر قبرك وأعد لك الكفن وسيصبح جسمك طعاما شهيا للديدان ، لقد أمرنى المولى أن أبحث عن نفسك فى الحال .

بيرجنت : مستحيل يحدث لى هذا بدون أى انذار ؟

السباك : لقد جرت العادة أن يختار يوم الميلاد ويوم الموت دون أن يخطر الضيف فى أية حالة من الحالتين ! .

بيرجنت : هذا حق ، ان رأسى تدور . أنت ...

السباك : لقد سمعتنى أقول لك انى سباك .

بيرجنت : أنهم الآن .. ليس لك اسم فى حين أن الطفل المدلل تطلق عليه عدة أسماء . والآن يا بير .. هكذا تكون نهاية رحلتك ومع ذلك فهذه خدعة دنيئة تستخدم معى . انى أستحق شيئا أكثر رحمة فلست شريرا بالدرجة التى تظنها . لقد فعلت بعض الحسنات القليلة فى هذه الدنيا .. وعلى أسوأ الفروض قد أكون رجلا سيئا ولكنى لست فاجرا ولا أثيما بأية حال من الأحوال .

السباك : ولكن هذه هى المشكلة أيها الرجل . فأنت لست فاجرا أثيما تستحق أن تلقى فى قرار سقر ، ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى فى بوتقتى .

بيرجنت : سمها كما تشاء .. بوتقة أو قرار سقر فالمعنى واحد ومرارتها واحدة فى الفم . اليك عنى أيها الشيطان .

السباك : أنت لست فظا بحيث تظننى رجلا شريرا .

بيرجنت : رجلا شريرا أو ثعلبا ذا مخالب ... اختر ما يحلو لك منهما . والآن ارحل واتركنى ولا تتدخل فى شئونى .. اتركنى !

السباك : أنت يا صديقى واقع تحت تأثير خداع كبير نحن الاثنان فى عجلة من أمرنا ولكى لانضيق الوقت سأشرح لك

المسألة .. أنت كما سبق أن قلت بنفسك لست فاجرا كبيرا وانما تقف موقفا وسطا بين الخطيئة والصالح وربما ..

بيرجنت : (مقاطعا) أنت الآن تقول كلاما معقولا .

السباك : تمهل قليلا أعتقد أنني لا يمكن أن أدعوك رجلا فاضلا .

بيرجنت : وأنا لا أدعى هذا بالتأكيد .

السباك : فلنقل اذن انك شخص وسط . ان الفجرة بالمعنى الكبير لهذه الكلمة لا تقابلهم كثيرا في هذه الأيام فان الاغراق في الخطيئة والاثم يتطلب قوة في العقل انه مجرد اللعب في الوحل .

بيرجنت : هذا حق كله .

السباك : وأنت على النقيض من ذلك يا صديقي كنت ترتكب الائم في خفة ونزق .

بيرجنت : بالضبط يا صديقي .. يمكننا القول بان الوحل قد تنأثر على بعض الشيء .

السباك : الآن اتفقنا . ان قرار صقر لم يجعل لأجلك أنت الذي لعبت في الوحل .

بيرجنت : اذن فالنتيجة أنك ستركني وشأني .

السباك : أوه .. كلا يا صديقي .. النتيجة أنك سستنصر في بوتقتي !

بيرجنت : ما هذه اللعبة الجديدة التي اخترعتها بينما كنت أنا متغيبا خارج البلاد ؟

السباك : انها التجربة والخبرة .. هي قديمة قدم الخليقة نفسها، وقد أعدت بقصد حفظ الأشياء في المستوى المطلوب . سأضرب لك مثلا يحدث أحيانا في أشغال المعادن ان قالبا معينيا يثبت فشله . اذا وجدت زرارا لا تصلح له عروة ما فماذا تفعل في هذه الحالة ؟

بيرجنت : ألقى بالزرار مع الأشياء التالفة .

السباك : بالضبط كان والدك مشهورا بأنه يلقي بالأشياء عبثا ودون اهتمام طالما وجد أي شيء يلقي به ولكن المولى على النقيض من ذلك يؤمن بالاقتصاد ولذلك فهو لا يلقي أبدا بشيء تالف طالما في الامكان استخدامه كمادة خام . والآن

كان المفروض أن تكون أنت زارارا في سترة الدنيا ينطلق منها اشعاع مضى ولكن عروتك كانت ضائعة . ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى مع الأشياء التالفة في النار لتضهر بك بعد ذلك من جديد ؟

بيرجنت : ولكن هل تعنى أنه يجب أن أصهر مع أى شخص من الأشخاص التالفين وأصب في القالب من جديد ؟

السباك : هذا ما أعنيه تماما ، ما فعلناه لاناس كثيرين . ونفس الشيء يحدث لقطع النقود الفضية التي أصبحت ملساء من كثرة التداول .

بيرجنت : ولكن هذا احتقار شنيع ، ألا تدعنى أذهب وشأنى يا صديقى ؟ زرار بلا عروة قطعة نقود ملساء ما قيمتها بالنسبة لمولاك ؟ .

السباك : ان مجرد امتلاكك روحا يكفي لاعطائك بعض القيمة الحقيقية .

بيرجنت : كلا . . . قلت لك كلا . . . ساكافح بكل قواى ضد ما تريد فعله اننى أفضل أى شيء الا هذا .

السباك : ولكن ماذا تعنى بقولك « أى شيء » ؟ يجب أن تكون منطقيا لست أنت بالشخص الذى يستحق الذهاب الى السماء .

بيرجنت : أنا مسكين . . . أنا لا أتطلع حقا الى مثل هذا السمو ولكن لن أفرط في ذرة من نفسى فلأرسل الى المولى ليحكم على بأن أقضى في الجحيم وقتا معيننا لنقل مائة عام مثلا اذا كان من الواجب أن يكون الحكم قاسيا ، فهذا شيء يمكن احتماله اذ ان العذاب عندئذ سيكون معنويا فقط ، وربما لا يكون على درجة كبيرة من القسوة انها أشبه ما تكون بمرحلة انتقال يأمل الانسان بعدها في الخلاص والعودة لقضاء أيام أكثر اشراقا وسعادة . أما الفكرة الأخرى أن أبتلع وأضيق وسط كتلة من المواد الغريبة في هذه البوتقة التي تقول عنها وأفقد كل الخصائص التي تميز بيرجنت فهذا يملأ نفسى رعبا .

السباك : ولكن ليست هناك حاجة يا عزيزى بير لتبدى هذا القلق وتنفعل كل هذا الانفعال بصدد مسألة صغيرة كهذه لانك لم تكن يوما من الأيام مسيطرا على نفسك ولا مالكا

لزامها فلماذا يضيرك اذن اذا اختفيت من الوجود بعد موتك ؟ .

بيرجنت : لم أكن مسيطرا على نفسي ها .. ها .. أنت تضحكني كلا يا صديقي السباك أنت مخطيء ، أنت تصدر حكمك على غير أساس لانك اذا فتشت في داخل نفسي فلن تجد سوى بير ... بير ولا شيء آخر سواه !

السباك : لقد صهرت هذين الشخصين منذ تقول : « فتش عن بيرجنت الذي تحدى القدر ففشل ومن أجل ذلك يجب أن يصهر في البوتقة » .

بيرجنت : ما هذا الهراء لا بد أن الأوامر تعنى شخصا آخر يدعى جنت هل أنت متأكد تماما أنها تخص بير ؟ ألا تخص شخصا آخر يدعى جون أو رازمس ؟

السباك : مستحيل ان الأوامر الصادرة الى من زمن بعيد والآن هيا ولا تضيع الوقت .

بيرجنت : كلا لن أطيعك افرض أنك وجدت في الغد أن هذا الأمر يخص شخصا آخر فماذا يكون العمل حينئذ ؟ يجب أن تكون حذرا أيها الرجل الطيب وتذكر أية مسئولية كبرى ...

السباك : عندي أوامر صريحة .

بيرجنت : اذن أعطني مهلة قصيرة .

السباك : لماذا ؟

بيرجنت : سأجد طريقة أثبت بها أنني طوال حياتي كنت مالكا لزام نفسي .

السباك : تثبت ذلك ؟ ولكن كيف ؟

بيرجنت : بالوثائق والشهود .

السباك : أخشى أنك لن تقنع المولى .

بيرجنت : أنا واثق من اقناعه ! وعلى أية حال ، سنتكلم بخصوص

ذلك الموضوع عندما يحين الأوان يا عزيزي أرجوك أن تقرضني نفسي لمدة قصيرة وبعدها أعود اليك ، نحن الرجال لا نولد الا مرة واحدة كما تعلم ، ومن الطبيعي أن نكافح من أجل الاحتفاظ بالنفس التي جاءت معنا الى الحياة هل اتفقنا ؟

السباك : فليكن ولكن تذكر هذا : « سنلتقي عند مفترق الطرق التالي » .

وينصرف بيرجنت وهو فى لهفة للبحث عن شاهد يشهد فى صفه فيلتقى برجل عجوز محدودب الظهر يحمل حقيبة على ظهره ويدور حديث بين الاثنين ، نعلم منه أن هذا الرجل العجوز هو ملك الخلائق الشائنة وقد سلب منه كل ما يملك وأصبح متشردا فقيرا لا يجد ما يسد به رمقه .

ويجد بيرجنت الفرصة سانحة ، فها هو ذا والد زوجته ولا بد أنه سيشهد فى صفه . ويطلب بير الى الملك السابق أن يشهد بأنه ، أى بير ، كان دائما مالكا زمام نفسه ولكن الرجل العجوز يرفض ويذكره بأنه قد وهب نفسه للشهوات وأن المبدأ الذى ينادى « بأن تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء » منقوش على قلبه ، وانه منذ الوقت الذى تشبع فيه بهذا المبدأ منذ ذلك الوقت عاش بيرجنت كما تعيش الخلائق الشائنة عيشة تطفح بالأنانية والخضوع للشهوات ويستنكر بير جنت هذا القول معترضا على وصفه بالمخلوق انشائه ، فيجيبه الرجل العجوز بأنه ليس من الضروري أن تكون له قرون أو يتحلى بذيل ليكون مخلوقا شائنا ، ولكن يكفى أن تكون روحه مطبوعة بالشهوة والأنانية ليصبح مخلوقا شائنا .

وترن الكلمات فى أذنى بيرجنت بيرجنت مخلوق شائنا يا للهول ! ويثور بير ضد الرجل العجوز متهما اياه بالجنون وناصحا له بالعلاج فى مستشفى فيجيبه الرجل العجوز بأنه فعلا يريد الذهاب الى المستشفى لولا أن هناك أمرا هاما يشغل باله ان ابنه الأكبر له تأثير كبير على الناس فى هذه المنطقة وهو يحاول أن ينشر فيهم أنه ، أى الرجل العجوز ، ليس الا أسطورة خرافية . ويستطرد الرجل فى كلامه قائلا : انه كثيرا ما سمع المثل القائل : « ألد أعداء الانسان هم أقرباؤه » وقد أصبح يؤمن الآن بصدق هذا المثل ويطلب الرجل بعض المساعدة المالية من بيرجنت ولكن الأخير يخبره بأنه قد فقد كل موارده ، ولذلك فهو يعتذر له عن مساعدته ويدهش الرجل العجوز ويبادر بالقول : « مستحيل هل أفلس يا صاحب السمو ؟ » .

بيرجنت : لقد فقدت كل شيء . . حتى نفسى . . . نفس الأمير بيرجنت مرهونة الآن ان الوزر يقع عليكم أنتم أيتها الخلائق الشائنة . . . وهذه هى النتيجة التى يحصل الانسان من صحبة السوء .

الرجل العجوز : وهذا أمل آخر من آمالي يتحطم سارجل مستجديا الناس وأنا فى طريقى الى المدينة !

وما يكاد الرجل المعجوز ينصرف ، حتى يجد بيرجنت نفسه وجها لوجه السباك ويطلب بير الى السباك أن يجيبه على سؤال واحد : « ما معنى أن يملك الانسان نفسه ؟ » .

السباك : ان تمام السيطرة على النفس هو انكار النفس . ربما لا تفهم المقصود من هذا التعبير فلنقل اذن ان السيطرة على النفس هي اتباع مشيئة المولى فى كل شيء .

بيرجنت : ولكن افرض أن انسانا لم يقل له ما هي مشيئة المولى ؟ السباك : بصيرته هي التي تقول له .

بيرجنت : ولكن بصيرتنا كثيرا ما تخطيء ومعنى هذا أننا نتنكب الطريق السوى .

السباك : هذا عين الصواب يا بيرجنت لأن فقدان البصيرة يعطى الشيطان أقوى أسلحته .

بيرجنت : انها مسألة معقدة تمام التعقيد ولكن اسمع . . . أصدقك القول بأنى كنت مسيطرا على نفسى . . . قد يكون من الصعوبة بمكان أن أثبت لك ذلك ولكنى أستطيع أن أقول لك انه بينما كنت أتجول الآن وحيدا فى هذه المنطقة أحسست بوخزة مفاجئة من حربة الضمير فقلت لنفسى : « أنت رجل آثم » .

السباك : لقد عدت الآن الى النقطة التي بدأت منها . . .

بيرجنت : (مقاطعا) كلا أعترف اننى من كبار الأثمة والعصاة ليس فقط بالفعل بل الفكر والقول أيضا لقد عشت حياة فظيعة فى الخارج .

السباك : قد يكون ما تقوله صحيحا ولكن هل يمكنك البرهان عليه ؟

بيرجنت : أعطنى فسحة من الوقت وسأحضر لك براهينى مكتوبة ومصداقا عليها من القسيس .

السباك : اذا أمكنك أن تفعل ذلك فستنجو من الصهر فى البوتقة . . ولكن الأوامر التي لدى يا بير . . .

بيرجنت : (مقاطعا) انها مكتوبة على ورق قديم جدا ، ولا شك أنها مؤرخة منذ زمن بعيد عندما كنت أعيش حياة منحلة بوهيمية والآن هل ستدعنى أحاول . . .

السباك : ولكن . . .

بيرجنت : أرجوك أن تفعل معى هذا المعروف .

السباك : سأتركك الى مفترق الطريق التالى . . ليس أبعد من ذلك .

ويلتقى بيرجنت بعد ذلك بأحد رجال الدين فيعترف له بأنه من المجرمين الخاطئين ، بل من أكابر العصاة الذين أوغلوا فى الاثم فهو قد مارس تجارة العبيد .

القسيس : هذا شئ بسيط . . أعرف أناسا مارسوا تجارة العقول والارادة .

بيرجنت : وقد صدرت الأصنام بوذا الى الصين .

القسيس : كلام فارغ مضحك أعرف أناسا نشروا عبادة أصنام أكثر قبحا . . نشروها فى العظاات والفن والأدب .

بيرجنت : ولكنى نصبت نفسى نبيا .

القسيس : فى الخارج ؟ هذا لا شئ . كل هذه الامور الهينة تنتهى عند الصهر فى البوتقة .

بيرجنت : ولكن اسمعنى أيها القسيس . . لقد أنقذت نفسى من الفرق على حساب نفس أخرى كانت تكافح الموت وتتشبث بنفس اللوح الذى كنت ممسكا به . . ان موت طباح السفينة يقع نصف وزره على لائننى لم أقذف به فى اليم الا لكى أضمن لنفسى البقاء .

القسيس : استميتك عذرا . ما فائدة الكلام عن نصف خطيئة ؟ اسمع نصيحتى أيها الصديق . . أعطيتك مأوى وزادا فما الذى تستفيد من ذلك ؟ أتعلم أنهم فى المدة الأخيرة فى باريس اخترعوا طريقة للتصوير الشمسى وأنهم يستطيعون أن يصنعوا للشئ صورتين : صورة موجبة وصورة سالبة ؟ الصورة السالبة تبدو للعين قبيحة ومع ذلك فهى تشبه الصورة الموجبة شبهها كبيرا وبطريقة التحميض تتحول الى صورة موجبة . وهكذا الروح . . لو أن روحا صورت نفسها صورة سالبة فأنهم لا يعلمون اللوح من أجل ذلك ولكنهم يرسلونه الى لأقوم بعملية التحميض فى المحاليل الكيماوية المختلفة حتى يتم تحويله الى صورة موجبة . ولكن اذا كان نصف اللوح ممسوحا كما فى حالتك ، فلا تجدى فيه المحاليل الكيماوية .

بيرجنت : وعلى ذلك فان المرء يجرى عندك وهو اسود كالهباب
ويخرج من لدنك وهو ابيض كالثلج . هل يمكننى أن
أسألك عن اسم الشخص الذى تنوى الآن القيام بعملية
تحويل صورته السالبة الى صورة موجبة ؟

القسيس : اسمه بيرجنت .

بيرجنت : بيرجنت ؟ حقا . هل يملك بيرجنت زمام نفسه ؟

القسيس : ان يقسم على ذلك .

بيرجنت : هو رجل صادق .

القسيس : ربما أنت تعرفه .

بيرجنت : كما أعرف اناسا كثيرين .

القسيس : أين رأيته آخر مرة ؟

بيرجنت : فى الرأس .

القسيس : رأس الرجاء الصالح ؟

بيرجنت : أجل ولكن أعتقد انه على وشك الرحيل من هناك .

القسيس : يجب على اذن أن أرحل فى التو لألقى به هناك (ينصرف
نحو الجنوب) .

بيرجنت : (لنفسه) يا للغبي ! لقد ذهب مسرعا الى طريق خاطيء
سوف يصاب بخيبة أمل . كم أنا مسرور اذ جعلت هذا
الجمار لعبتى . انه يظن نفسه أعلى منى مرتبة دون أن
يكون عنده مبرر لذلك سيفقد وظيفته ولا شك اذا لم يكن
حريصا .. ولكن .. لماذا لا أجد نفسى مطمئنا تمام
الاطمئنان ؟ يخيل الى أنى فقدت أرسقراطية النفس الى
الأبد ..

(يظهر نجم مضى يقطع السماء بسرعة ثم يختفى . يومئذ يبر برأسه
تحية له) بيرجنت يحييك أيها النجم الأخ الذى أضاء ثم اختفى .

(يعتريه الخوف والاضطراب فيقفز مختفيا فى الضباب . بعد لحظة
صمت قصيرة ينادى قائلا) :

ألا يوجد أحد فى الكون أو تحت الأرض .. أو حتى فى السماء ؟

(يتراجع الى مكانه الأول ثم يلقى بقبعته الى الأرض ويأخذ فى
تمزيق شعر رأسه ويعود اليه الهدوء تدريجيا) .

أية حقارة وأية مسكنة أن تعود النفس الى غياهب الظلمات
وتصبح لا شيء . أيتها الأرض الجميلة اغفري ان وطأتك قدمي طوال
هذه السنين دون هلف . أيتها الشمس الجميلة التي أسقطت أشعتها
المضيئة العظيمة على قوقعة فارغة لا يوجد أحد بداخلها ليستقبل منها
الدفء والراحة . . أبدا لم يكن صاحب البيت في منزله . أيتها الشمس
الجميلة ويا أيتها الأرض الجميلة ! عبثا كن عاقلا واستسلم للصهر في
البوتقة . لنفرض أنكما كنتما تدفئان وتطعمان أمي . الطبيعة كانت كريمة
سخية بقدر ما كانت النفس بخيلة طماعه . حياة الانسان هي الثمن
الغالي الذي يدفعه في مقابل ولادته ساذهب الى فوق . . الى أعلى قمم
الجبال ، لامتع ناظري بشروق الشمس حتى يصيب الكلال عيني !

فقد يسقط الثلج عندئذ ويفطيني ، وقد يكتب على مثنوي الأخير « هنا
يرقد لا أحد » وبعد ذلك . . فليكن ما يكون .

وفجأة يجد بيرجنت نفسه أمام السباك عند مفترق الطريق .
السباك : صباح الخير يا بيرجنت . أين قائمة خطاياك ؟
بيرجنت : أؤكد لك أنني أعلنتها بأعلى صوتي ولم أخف منها شيئا !
السباك : ألم تجد شاهدا واحدا ؟
بيرجنت : لم أجده سوى مصور متجول .
السباك : إذن فقد حانت ساعتك .
بيرجنت : كل شيء قد انقضى . لقد شمت البومة رائحة الفأر .
ألا تسمعها تطلق عليه النار ؟

السباك : هذه دقات جرس الصباح . .
بيرجنت : « مشيرا بأصبعه » ما هذا ؟ هذا الذي يضيء ؟
السباك : ليس الا ضوءا في أحد المنازل .
بيرجنت : وهذا الصوت الذي يشبه الصياح الحزين ؟
السباك : ليس الا صوت امرأة تغني .
بيرجنت : انها هناك . . هناك ساجد قائمة خطاياي !
السباك : (قابضا على ذراعه) تعال معي لتنظم بيتك .
وفي هذه الأثناء يكون الاثنان قد خرجا من الغابة ، ووقفا بجوار كوخ
سولفيج وقد أخذ الفجر يشقشق .

بيرجنت : أنظم بيتي ؟ هذا هو بيتي .. اذهب أنت .. ارحل بعيدا عني . مهما كانت بورتقتك كبيرة كالقبر فانها لن تسعني ومعى خطاياي .

السباك : الى الملتقى اذن يا بير فى مفترق الطرق الثالث ولكن عندئذ ...

يختفى السباك بينما يقترب بيرجنت من كوخ سولفيج .

بيرجنت : سواء سرت الى الورا أو الى الأمام فالكون يبدو بعيدا . وسواء خرجت أو دخلت فالطريق ضيق (يتوقف) ولكن ما هذا ؟ . يخيل الى انى أسمع صوتا عاليا لا يكف عن الصياح يأمرنى قائلا : ادخل .. عد .. الى منزلى .

ويخطو بيرجنت بضع خطوات ثم يتوقف مرة ثانية فقد تذكر فجأة ما قاله له بويجن .

بيرجنت : اختر دائما الطريق الملتوى ... هذا ما قاله بويجن (يسمع صوت غناء ينبعث من الكوخ) كلا ... هذه المرة سأسلك الطريق المستقيم بالرغم من كل شيء ومهما بدا لى هذا الطريق ضيقا

ويجرى بيرجنت ناحية الكوخ وفى نفس الوقت تظهر سولفيج على عتبة الباب وقد تقدمت بها السنون . وكل بصرها حتى أصبحت تقودها عصاها . تبدو سولفيج فى ثياب الكنيسة وقد حملت فى يمينها كتاب صلاة ملفوفا فى منديل ، ووقفت ساكنة منتصبه القامة وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة . وما يكاد بيرجنت يراها حتى يجثو على قدميها قائلا :

بيرجنت : أصدرى الحكم على خاطيء أثيم ا

سولفيج : انه هو . انه هو . شكرا لله (تمد يديها لتحسس وجهه) .

بيرجنت : اجهرى بكل ما أسلفت اليك من آثام .

سولفيج : آثام ! لم ترتكب أى اثم يا ولدى العزيز .

السباك : (من وراء الكوخ) أين قائمة الخطايا يا بيرجنت ؟

بيرجنت : (لسولفيج) أعلنى خطاياي .. أعلنى خطاياي بأعلى صوتك .

سولفيج : (جالسة بجواره) لقد جعلت أيامي كلها أغنية جميلة .
فليباركك الله لأنك عدت الى ، وليكن مباركا هذا الصباح
المشرق الجميل .

بيرجنت : اذن فقد انتهيت .. مادمت ترفضين اعلان خطاياي .

سولفيج : سيمد اليك « واحد » يد المساعدة !

بيرجنت : (ضاحكا) انتهيت .. الا اذا استطعت أن تحل لغزا .

سولفيج : وما هذا اللغز ؟

بيرجنت : اليك فاسمعي أتستطيعين اخباري أين كان بيرجنت
منذ أن التقينا في المرة الأخيرة حتى الآن .

سولفيج : أين كان ؟

بيرجنت : الرجل الذي كان يحمل علامة القدر على جبينه عندما فكر
الله في خلقه ! أيمنك اخباري أين هو ؟ اذا لم تستطيعي
الاجابة على هذا السؤال تحتم على أن أذهب الى مقرى
الأخير في أرض الظلال .

سولفيج : (مبتسمة) هذا اللغز من السهل حله .

بيرجنت : أخبريني اذن أين كانت نفس الحقيقة .. أخبريني
بأمانة وصدق أين كان « بير » الذي يحمل طابع الله على
جبينه ؟

سولفيج : كان في ايمانى ، وفي رجائى ، وفي حبنى .

بيرجنت : ماذا تقولين ؟ انه لغز هذا الذى تقولين .. هكذا تتحدث
الأم عن طفلها !

سولفيج : أجل أنا أمه . أما أبوه فهو الذى يهبه الصفح من أجل
صلوات أمه (يضيء شعاع من النور على وجه بيرجنت .
فيصرخ فزعا) :

أوه .. أخفينى .. أخفينى فى حبك يا أمى !
(ويتعلق بها ويدفن وجهه فى حجرها . لحظة صمت .
طويلة . تشرق الشمس) .

سولفيج : (تغنى برقة) : نم يا ولدى .. يا أعز أولادى ساهز
فراشك حتى تنام .. سارعاك وأسهر عليك ...
نم يا أعز أولادى واحلم أحلاما سعيدة ذهبية .

السباك : (من وراء الكوخ) ساقابلك يا بير عند مفترق الطرق
الآخر وعندئذ سنرى

سولفيج : (تغنى بصوت عال فى ضوء الشمس البهيج) ساهز
فراشك حتى تنام . ساحرسك وأرعاك فتم آمنة مطمئنا
واحلم أحلاما جميلة يا ولدى يا أعز أولادى .

★★★

وتسدل ستار الختام ، بينما بيرجنت يبكى وينتحب نادما تأثبا
مستغفرا ، بعد أن وجد السلام والراحة والطمأنينة فى عودته الى حبيبته
أو أمه سولفيج ، التى جعلها أبسن رمزا للكنيسة أو الدين أو الايمان .

★★★

ونحن اذ أمعنا النظر فى هذه القصيدة المسرحية ، أدركنا أنها رمز
لهذه الملحمة اللانهائية التى تضطرب فى أعماق النفس البشرية ، أنها رمز
للصراع الدائم بين رغبات النفس وشهواتها ، وبين ما تفرضه عليها القوانين
والآداب والشرائع الدينية والدينيوية . فلقد كانت حياة بيرجنت أشبه
بالكابوس المفزع الذى يحاول النائم أن يبعده عن روحه وأن يتخلص منه
بالاستيقاظ من النوم الكريه ، ولكن كل محاولات بيرجنت للخلاص من
هذا الكابوس لم تزده الا تعقيدا وتمكنا له من نفسه .

فالعروس انجريد كانت من الرغبات الشهية الى نفس بيرجنت ،
ولكنها لم تكن كل رغباته ، ولذلك فانه ما أن قضى وطره منها حتى زهدا
ثم هام على وجهه أو هام به كابوسه حتى تزوج من ابنه ملك الخلائق
الشائثة فماذا أطمعه فيها الا أنها ابنة ملك وما أن نالها حتى زهد فيها هى
الأخرى وتركها ، لقد كان يجرى وراء غاية لا يدركها ولا يعرف كنهها كما
يفعل الناس جميعا . ثم ما هذا المخلوق العجيب بويجن الذى أخذ على
بيرجنت طريقه ، وما معنى قوله انه ينتصر دائما ولا يحارب أبدا . .
أىكون بويجن هذا رمزا للزمان ؟ أو رمزا للقضاء والقدر ؟ . . أىكون رمزا
لما كتب على كل منا أن يعانى فى هذه الحياة الدنيا ؟ أم يكون فصلا
مخيفا مروعا من فصول هذا الكابوس الفظيع ؟ وهذا السراب من الطير
ما خطبه ؟ وأجراس الكنيسة ما شأنها ؟ وتلك النسوة اللاتى رددن الطير
الجارح عن بيرجنت ، وذعر بويجن منهن بعد ذلك فأعلن استسلامه على
حين فجأة ، هل يرمز هؤلاء النسوة الى الكنيسة ؟

وبعد أن عاث بيرجنت في الأرض فسادا ومر خلال دائرة الخلائق الشائثة وخضع لقوى الشر والخطيئة وسراب الطموح الكاذب ، وبعد أن مرت السنون مسرعة به نحو الشيوخوخة الكثيبة والوحدة القاتلة ، إذا به يجد نفسه مضطرا للعودة من نفس الطريق الى مسقط رأسه ، ومكان ميلاده ، بحثا وراء حقيقة نفسه من جديد . وفي طريق العودة يلتقى مرة أخرى بملك الخلائق الشائثة ، تلك الخلائق التي جعلها إبسن رمزا لقوى الشر الكامنة في أعماق نفوسنا البشرية الضعيفة ولكن الملك لم يكن حينئذ الا شحاذا فقيرا متسولا ، وقد كان ذلك ايذانا بانسحار قوى الشر .

ويفيق بيرجنت لنفسه بالتدريج فيطرح وراء ظهره الأكاذيب الباطلة والأنانية القاتلة ، ويتخذ الاستقامة طريقا له بدلا من الطريق الملتوى المعوج . وأخيرا وبعد أن تخلص من قوى الشر التي كانت مسيطرة على روحه ، يجد في نفسه الشجاعة الكافية والاستعداد التام لمقابلة سولفيج الفتاة الطاهرة التي تمثل قوى الخير والايان بالله . وما أن يقابلها حتى يطلب منها الصفح والغفران : لقد استيقظ ضميره وأصبح في عنفوان قوته ، وما هو ذا بعد أن قطع طريق الندم والتوبة ، يصبح أهلا لأن يركع عند قدمي سولفيج التي بقدسيتهما الملائكية تمنحه فرصة العودة الى نفسه والخلاص من أدران الخطيئة والاثم .



الإدارة العامة

فريدريك تايلور

١٩١١ م

التايلورية •• ثورة ومبادئ وطموحات

ان الدولة التي تسبق الى اكتشاف طرق أفضل لتدريب طبقة الاداريين والاحتفاظ بالروح المعنوية للعمال ، لابد ان تسبق الدول الأخرى في مضمار الاستقرار والأمن والتقدم .

ومشكلة اكتشاف الأفراد الذين يصلحون للقيادة الادارية ، مشكلة أكثر أهمية بالنسبة للدول النامية عنها في الدول المتقدمة صناعيا ، ذلك لأن المؤسسات الصناعية أو التجارية خصوصا ليست مجرد منظمات تهدف الى الوصول الى غاية اقتصادية فحسب ، ولكنها تشكيل يجمع جهود مجموعة من الناس للوصول الى غاية مثمرة في المجتمع ومن هؤلاء الناس العمال ورجال الادارة والعلماء والمستهلكون أو بمعنى آخر المجتمع بأكمله .

تدل الأبحاث العلمية الحديثة دلالة قاطعة على أهمية الدور الذي يقوم به المدير أو المشرف ، بل ربما كان هو أهم عامل في البيئة الاجتماعية النفسية للعمل ، اذ ان المدير يمثل الادارة في أعين مرؤوسيه أو عماله ، كما ان درجة تكيفه النفسي ومدى مرونة شخصيته وأسلوب سلوكه ، يؤثر في سلوك وانتاج من يشرف عليهم ويحدد مستوى الروح المعنوية بينهم .

القيادة الادارية الناجحة في الواقع خليط بين أنس الادارة العلمية والعلاقات الانسانية ، مع الاستيثاق من أن أهداف التنظيم وأغراضه تستهدف المصلحة المشتركة لكل من يعمل فيه ، وهي في الوقت نفسه ادارة متحركة تتصف بالمرونة وتتكيف مع الظروف المتغيرة .

وقد لمس فردريك تايلور واحدة من أهم مشكلات عصر الثورة الصناعية والتفوق الآلي محرزا بذلك انتصارا في ميدان من أهم ميادين العمل الصناعي .

وفي ذلك الوقت كانت هناك مشكلة هامة تنحصر في الشك الذي بدأ يتسرب الى النفوس في أن الثورة الصناعية الهائلة ، أخذت تعجز عن تحقيق وعودها .

فالثورة الصناعية التي أحدثت تغييرات جذرية في أساليب الانتاج وساعدت - باتباع سياسة الانتاج على نطاق واسع - على زيادة نزوة الأمم التي اتبعت أساليبها . . هذه الثورة سرعان ما اصطدمت صداما مباشرا مع نقيضين هما :

١ - الحاجة المستمرة الى تحقيق المزيد من الربح للمؤسسة الصناعية الرأسمالية .

٢ - حاجة العاملين في تلك المؤسسات الى زيادة دخولهم .

وبدأ تايلور دراساته التي ما لبثت أن اتخذت شكلا علميا وتبلورت فيما يعرف الآن بالادارة العلمية .

ولد « فردريك وينسلو تايلور » عام ١٨٥٦ من أبوين أمريكيين ميسوري الحال . وقد كانت أسرته تعده لأن يصبح محاميا ولكنه - من كثرة ما قرأ - أصيب وهو في سن التاسعة عشرة بمرض في عييه، أرغمه على التخلي عن الدراسة . وفي عام ١٨٧٥ بدأ فترة من التلمذة الصناعية استمرت ثلاث سنوات التحق بعدها بمصنع « ميدفيل » للصلب ، حيث استطاع خلال السنوات الست الأولى من التحاقه بذلك المصنع التدرج من وظيفة خراط الى منصب كبير المهندسين . . وهذه طفرة تصور لنا معدن هذا الرجل ومدى كفايته ومقدرته فقد كان مخترعا ذكيا وصاحب اكتشافات هامة في صناعة الصلب . وقد دفعه طموحه الى الاستزادة من العلم ولم يلبث أن حصل في وقت فراغه على درجة ماجستير في الهندسة .

وقد كان يضطر خلال سنواته الأولى كعامل عادي الى مساهرة زملائه في تعدد الحد من كمية الانتاج . ولكنه بعد أن رقى الى منصب رئيس عمال آلى على نفسه أن يحمل رجاله على القيام بنصيب عادل معقول من الانتاج وساعدته خبرته السابقة على أن يحدد ذلك النصيب المعقول . ولم تكن محاولته تلك بالمهمة اليسيرة ، فقد كان تحديا لما يعتبره العمال حقا من حقوقهم التي لا تقبل الجدل أو المناقشة ، اذ كانوا هم الذين يحددون كمية الانتاج والوقت اللازم له .

وقد أدرك « تايلور » منذ البداية أن مشكلة الانتاج في الصناعة الأمريكية أساسها الجهل : جهل رجال الادارة بما يستطيع العمال انتاجه بل وبما يجب عليهم انتاجه وجهل العمال بالطرق التي تؤدي الى زيادة انتاجهم لو قامت الادارة بمعاونتهم في هذا السبيل وأن زيادة الانتاج انما تعود عليهم بالفائدة والجزاء .

كذلك رأى « تايلور » أن العمل فى الصناعة الأمريكية يقوم على وسائل ارتجالية مبنية على تقاليد بالية ، إذ كان الصانع يتعلم الحرفة فى أثناء تلمذته عن طريق تقليد زملائه فى المصنع دون تفكير أو تدريب . وما أن يتمكن من إتقان تلك الحرفة ، حتى يبدأ فى مساهمة زملائه فى طريقة العمل . ويقبل - دون احتجاج أو معارضة - ما قد يعطل إنتاجه من تأخير فى ورود الخامات أو المهمات أو استعمال العدد التالفة .

وكانت الإدارة لا تتدخل فى تحديد الإنتاج بل تترك ذلك للعمال . فإذا رغبت فى زيادته لجأت الى وضع مكافآت مالية ، حتى تشجذ من همتهم . رأى « تايلور » كل هذه العوامل فبعث فى نفسه الرغبة فى القيام ببحث علمى اختار له أحد الخراطين ودأب على ملاحظته أثناء قيامه بالعمل محاولاً بذلك تحليل عمله خطوة خطوة ، باحثاً عن العوامل التى تؤدى الى بطء العملية . ثم انتهى من بحثه هذا الى تقرير مبادئه المعروفة بمبادئ « الإدارة العلمية » ، وهى تتلخص فى أن الإدارة يجب أن تنظر الى العمل على أنه مركب منطقى محدد بأسباب ومسببات .

ترك « تايلور » مصنع « ميدفيل » عام ١٨٩٠ وأخذ يقوم بأبحاث مستقلة فى الصناعة لعدة سنوات ثم التحق بشركة « يتلهم » للصلب عام ١٨٩٨ ، وكانت من أكبر الشركات فى صناعة الصلب بأمريكا وقام فيها بتجربة جديدة لاختبار مبادئه . وقد أدت هذه التجربة الى نتائج باهرة ، ذلك أنه تمكن من أن يجعل عاملاً واحداً يقوم بتحميل سبعة وأربعين طناً ونصف طن من الصلب فى عربات السكة الحديد فى يوم عمل واحد فى حين كان خمسة وعشرون عاملاً - قبل القيام بهذه التجربة - يحملون اثني عشر طناً ونصف طن فقط فى اليوم . وتمكن بذلك من أن يوفر للشركة ٧٥ ألف دولار فى هذه العملية بالذات وأمكنه فى الوقت نفسه أن يزيد دخل العمال بنسبة ٦٠٪ ، وأثبت لأصحاب الأعمال عظم الفائدة التى تعود عليهم اذا ما عالجوا مشكلات الإنتاج فى مؤسساتهم على أساس علمى سليم وذلك بدراسة طرق العمل دراسة ذكية مفصلة .

أخذ « تايلور » بعد ذلك يبشر بمبادئه . وقد ظهرت مدرسة تؤمن بتلك المبادئ ولم يحدث فى حياته العملية أن أضرب العمال احتجاجاً على ما كان يقوم به من دراسات ، مع أن هدفه كان أن يتم العمل بأقل عدد من العمال وبأقل قدر من التكاليف .

ولكن بعض تلاميذه بلغت بهم الحماسة فى تطبيق مبادئه حداً أثار العمال ، فجعلوا يقاومونها خوفاً من تنتهى الى الاستغناء عن خدماتهم ،

وحدث فعلا أن قام اضراب كبير في إحدى الترسانات التابعة للحكومة ، وطلب « تايلور » شاهدا أمام لجنة تحقيق تألفت في الكونجرس الأمريكي لبحث التهمة التي وجهها العمال الى المشرقيين من أنهم كانوا يدينون بمبدأ « التايلورية » ويحاولون تطبيقها عليهم . وكان مما قاله تايلور أمام هذه اللجنة :

« ليست الادارة العلمية هي ايجاد طريقة لانقاص التكاليف ولا هي صياغة قواعد لتنظيم العمل الاشرافي ولا هي دراسة الوقت أو الحركة ... ولكنها ثورة عقلية شاملة من العامل وصاحب العمل نحو مشكلة الانتاج . وهذه الثورة تتطلب من كلا الطرفين ألا يعطيا الاعتبار الأول من تفكيرهما لمقدار الربح الذي يمكن أن يناله كل من الآخر ، بل يجب على الطرفين أن يعملوا على زيادة الانتاج قبل كل شيء حتى يزيذا الأرباح ويزيد نصيب كل منهما منه . كما يجب على الطرفين أن يعملوا على القضاء على الأساليب التقليدية البالية التي كانت تتحكم في سير العمل ، وأن يستبدلوا بها الأساليب العلمية الصحيحة التي تعتمد على الأبحاث المنسقة » .

ولقد لقيت آراء تايلور في انجلترا نفس المصير الذي لقيته في أمريكا على يد اتحادات العمال .

ولعله مما يؤسف له أن المعهد القومي لعلم النفس الصناعي بانجلترا رأى أن يبدأ عمله بضرورة الاشارة الى أن أعماله لا تمت بصلة الى « التايلورية » .

ولم يزل هذا التحيز ضد مبادئ « تايلور » قائما في كثير من دوائر العمل ، وإن كانت بدأت تلقى أخيرا قدرا من التأييد في بعض الأوساط الصناعية المناسبة .

على أن تايلور نفسه أدرك في آخر أيام حياته أن مبادئ الادارة العلمية تفتقر الى عنصر هام كي يكتمل لها النجاح . وقد حدا به ذلك أن يذكر « أن هناك نوعا آخر من البحث العلمي الذي يجب أن يلقي عناية فائقة ألا وهو الدراسة الدقيقة للعوامل النفسية التي تؤثر على العمال » .

والحق أن « تايلور » - بالرغم من كل ما قيل عنه - كان انسانا كريما واسع الصدر يحبذ سياسة دفع أجور مجزية .

وكان يرى أنه من واجب صاحب العمل أن يفسح مجال الترقى أمام العامل النشيط .

وقد سجل لتايلور فى حياته ما يربو على مائة فكرة فى ميدان الإدارة العلمية ، وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين (١٩٠٦)، وساهم فى تنظيم جمعية تقدم علم الإدارة (١٩١١) ، التى أطلق عليها اسم « جمعية تايلور » بعد وفاته . وابتكر « تايلور » قواعد علمية لاختبار عمال مختلف الصناعات وعمال البيع . كما ابتكر أسسا إدارية أشرف بنفسه على تطبيقها حتى آتت ثمارها . وقد شرح ما وفق اليه من ابتكارات فى كتابين هما : « مبادئ الإدارة العلمية » و « إدارة المصنع » .

★★★

مبادئ الإدارة العلمية :

ظهر هذا الكتاب فى عام ١٩١١ وكان شاملا أبحاثه ونظريته أو طريقته فى الإدارة العلمية ، وقد بدأ تايلور بتحديد أهدافه من البحث فى مشكلات الانتاج الصناعى على الوجه الآتى :

أولا : توضيح الخسارة الفادحة التى يتعرض لها الاقتصاد القومى الأمريكى ، نتيجة لعدم الكفاءة الواضح فى كافة مظاهر الحياة الانتاجية ، وكان يقصد بهذا تبديد الثروة القومية نتيجة لعدم الرشد فى السلوك الانسانى للأفراد .

ثانيا : محاولة اقناع القارىء أن تيسير علاج ذلك يمكن باستخدام نظم الإدارة العلمية وأساليبها وليس بالاعتماد على قادة عباقرة يسكون بدقة حياتنا .

ثالثا : اثبات أن الإدارة الحقّة علم ثابت يعتمد على قوانين واضحة وأساليب ذات قواعد ثابتة لا يرقى اليها الشك ، وأن هذا العلم يمكن تطبيقه على كافة مظاهر نشاطنا الانسانى من أبسط العمليات الفردية الى أعقد الأعمال الجماعية .

فتايلور يرى أن « الثروة » متوفرة ويمكن أن تكفى الجميع من عمال وأصحاب أعمال ، على شريطة تصرف الجميع بحكمة والتصرف بحكمة هو علم الإدارة فلا عجب إذن أن ينجذب تايلور المهندس تجاه الدراسات التى أصبحت تعرف باسم « الوقت والحركة » .

فبالنسبة له أصبحت تلك الدراسات بمثابة العمود الفقري للإدارة العلمية ، وقد أدى اغراقه في ذلك الى تحويل كل اهتماماته الى الورشة الصناعية في المؤسسة ، وبالتالي اهمال المستويات الادارية الأخرى التي قد تتعرض لخطر « الضياع » والعمل الزائد . . بالضبط كالورشة الصناعية للمؤسسة .

ولكن ايمان تايلور ذلك - ونحن ننظر اليه الآن وبعد عدة عقود على ظهور كتابه - له مبرراته القوية وتصورنا للحالة في المجتمع الصناعي الأمريكي اذ ذاك هو وحده الذي سيساعدنا على ادراك اهتمامات تايلور .

لقد كانت المشكلة البارزة هي « علاقة العمال بالإدارة وبأصحاب العمل » ، وكانت الأزمات المتتالية التي عانت منها تلك العلاقة والتي سبقت الإشارة إليها هي أبرز حقيقة تتضح أمام أي منقب أو مهتم بالقضايا الصناعية ، فليس من الغريب اذن أن يرى تايلور أن عدااء العمال للإدارة ولأصحاب العمل ، أدى الى اعتقاده الراسخ بأن من مصلحته ومن مصلحة زملائه من العمال أن يتباطأ في عمله قدر استطاعته . وهذا العداء - في رأي تايلور - هو أخطر ما يواجه الحضارة الصناعية فتايلور لا يهتم من يملك المصنع بقدر ما يهتم أن لا يتوقف ذلك المصنع أو أن يهبط انتاجيته وهو هنا يذكر في كتابه إحدى الرسائل التي وجهها الرئيس الأمريكي « تيودور روزفلت » في أحد احتفالات البيت الأبيض الى حكام الولايات ، والتي قال الرئيس فيها :

« ان الحفاظ على ثروتنا القومية يتوقف أساسا على كفاءتنا القومية » .

وتايلور يقول ان تلك الجملة هي في الواقع نبوءة وهي الرابطة القوية التي تشد اهتمامه في كل صفحات كتابه . فمنذ البداية . . . ودون أن يحاول البحث والتحري عن الأسباب والدوافع السياسية للنظام الصناعي ، نراه ينجذب نحو نهوض المؤسسة الصناعية بعمالها وأصحابها نحو غاية للكمال . . . وهذه هي قضية تايلور .

ويبدأ تايلور كتابه بأبسط التحاليل فهو يدعو القارئ الى التفكير في أحسن وسائل « الحرث » وليكن حرث حديقة بيته مثلا . وهو يقول ان القارئ العادي لو قضى من ١٥ الى ٢٠ ساعة في التفكير والتحليل ، لابد وأن يصل بالتأكيد الى معرفة علم حرث الحديقة أي الى معرفة أحسن وسائل « حرث حديقة بيته » . ويرى تايلور أن بساطة ذلك « العلم » هي التي تجعلنا لا نتصور أنه علم ، لأنه يبدو كقضية مفروغ منها ولكن الأمر

ليس كذلك بالنسبة لتايلور فان « علم الحرث » يعنى تحديد « المستوى النمطى » ليوم عمل وهذا يستلزم معرفة دقيقة بالحركات اللازمة لاتمام ذلك العمل . فالادارة العلمية - فى رأى تايلور - لبساطتها يجب أن تصبح أساسا تقوم عليه حياتنا اليومية ، وبالتالي يمكن تطبيق هذه الادارة العلمية على الحياة الصناعية مهما كانت درجة تعقدها .

وتايلور يبدو كفيلسوف من نوع جديد . فهو يدعونا الى تحسين حياتنا ويقول لنا ان تحقيق ذلك سهل ميسور : فنحن اذا اعتدنا على شىء من التفكير وقدر من الدقة ، أمكن لحياتنا أن تسير وفق « نظام » نسيطر فيه على حركتنا وعلى قوتنا ونحصل بموجبه على أقصى فائدة منهما ومن هذا المنخل البسيط يبدأ تايلور فى عرض نظريته ... ان نقص كفاءة العمل هو سبب شقاء البشرية ، وعلم تمكنها من الافادة من التقدم العلمى الكبير الذى هيأته الثورة الصناعية . وفى الفصل الاول من كتابه يعرض لنا أسباب تلك المشكلة فى نقاط ثلاث :

النقطة الأولى :

الاعتقاد الزائف المسيطر على العاملين الصناعيين والذى يجعلهم يعتقدون أن زيادة ناتج الأفراد والآلات ، لابد وأن يؤدى فى النهاية الى الاستغناء عن أعداد ضخمة من العاملين وتسليمهم الى مذلة البطالة .

النقطة الثانية :

عدم كفاءة أساليب الادارة والتنظيم الذى خلق حاجزا كثيفا بين الادارة والأفراد .

النقطة الثالثة :

شيوخ الأساليب غير العلمية فى حث الأفراد على العمل وتحفيزهم لتحقيق أهداف المشروع .

ويتابع تايلور شرح هذه النقاط بصورة أوضح .. فيقول : لقد أدى الاعتقاد الزائف المسيطر على العاملين الى تصورهم بأن أى جهد اضافى يبذله أى منهم يعد خيانة للمجموع ، لأنه سيؤدى الى « فصل » البعض ان عاجلا أو آجلا . ويرى تايلور أن هذا الاعتقاد مبنى على الخطأ . ويكفى للدلالة على عدم صحته أن أى اختراع فنى فى الصناعة أدى الى العكس ... أى الى زيادة فرص العمل وليس الى التقليل منها .

أما بالنسبة لتخلف أساليب الادارة . . فيرى تايلور أن في الأخذ بأساليب نظامه في الادارة العلمية ما يكفل تطويرها نحو زيادة الانتاجية ويؤدي شيوع الاساليب غير العلمية الى خضوع وسائل تدريب الأفراد على أعمالهم الى أهواء الملاحظين ورؤساء العمل والمهندسين ، وهذا يؤدي الى تضارب أساليب العمل وضياح جهد كبير . وان استبدال تلك الأساليب بأسلوب مبنى على أسس علمية موحدة سيساعد على تنسيق جهود الأفراد وتوجيه الجهد توجيهها أمثل .

في رأى تايلور اذن أن أى عمل في المؤسسة ، لا يمكن تحقيقه وفقا للطريقة العلمية الا بعد تجربة أدائه مرتين أو ثلاثة حتى نصل الى « مستواه » الصحيح . فالتجربة لها المقام الاول في نظرية تايلور وهذا - في رأيه - يقع على عاتق الادارة العليا فهي التي « تأمر » وتوجه للانتاج ، وقد نظن أن تايلور قد قصد بهذا الكلام تحويل الانسان الى مجرد آلة منفذة وقد نظن أنه يرى ترك مصائرنا بين أيدي قلة من العباقرة والحقيقة أن تايلور لا يؤمن بالمعجزات الميتافيزيقية التي تنتج لنا عباقرة من غير طينة البشر انه يؤمن بالانسان البسيط ويؤمن بأن خيال ذلك الانسان هو سر نجاحه وهو الذي يحقق له كل تقدم فالمصادفة لا تتحكم في مصائرنا ، لأن الخيال لا يتحول الى واقع الا باتباع منهج علمي .

والرجل الكفه هو الذي يفكر دائما ويصر على النهوض بعمله وتحقيقه على أفضل وجه وعلم الادارة - في رأى تايلور - ينبع من هذا التفكير ومن هذا التساؤل .

فاذا قامت الادارة العليا باتباع الأساليب العلمية والخبرات العلمية في أعمالها ، فسيتطلب ذلك بالطبع نشر الوعي الاداري بين كافة المستويات ، حتى يتيسر للجميع ادراك الأساليب العلمية الادارية .

ويدرك تايلور مدى صعوبات تحقيق هذه الغاية : فهو يعرف أن الانسان كيان معقد يصعب التحكم في سلوكه واذا كان البحث العلمي قد أرغمه على اختيار « انسان نمطي » ، فان هذا لا يعنى تشابه الجميع مع هذا الانسان النمطي الافتراضي وبين الانسان الحقيقي فلا ينبغي اطلاقا جعله مساويا للأفراد الممتازين وأفضل من هذا أن يكون ممثلا للأفراد العاديين . ان مثل هذه الطريقة لا تعنى تشبث هؤلاء الأفراد عند مستوى متوسط أو عادي ، لأن الطريقة العلمية تعنى محاولة الارتقاء بالأفراد العاديين ونحويلهم الى عمال فوق المتوسط .

ولتحقيق ذلك يعتمد تايلور أعظم اعتماد على قادة الجماعات الصغيرة . . . أى الملاحظين والمشرفين . وهو يرى « أنهم يجب أن يقضوا كل وقتهم بين الأفراد . . . يحثونهم على التفكير المتقدم ويقودونهم ويوجهونهم لأداء أعمالهم على أحسن وجه » . وفى رأيه أن ذلك يتطلب غاية الوضوح فى توزيع الأعمال والاختصاصات حتى يعلم كل فرد من هو رئيسه المباشر الذى يتلقى منه الأوامر والتوجيهات ، ولكنه يستدرج فيحذر من المبالغة فى ربط المرؤوسين برؤسائهم ولا غرابة فى هذا . . . فتايلور من أنصار « النظام » الإدارى لا « العلاقات الشخصية فالنظام الإدارى يجعل التنظيم يعمل كالساعة . . . كل جزء له وظيفة معروفة والعلاقات بين مختلف الوظائف تتم وفقا لروتين لا يتغير .

ومع ذلك . . . فالإنسان فرد ، وفرديته - فى رأى تايلور - لا تتعارض مع النظام بل على العكس يصونها النظام . فالضمان الوحيد للفرد هو أن عمله فى المؤسسة سيناسب مؤهلاته « الفردية » وشخصيته ومزاجه . . . وتركيبه . وهذا كله يتحقق بوضعه ضمن نظام علمى دقيق ومبنى على دراسة كيانه كفرد ومعرفة اتجاهاته وميوله . فإذا تم ذلك . . . رضىت نفسه فلا يشعر بالكآبة والحزن ، وإذا أحس بأن عمله القائم لا يرضيه نقل فى الحال الى عمل آخر يلائمه . فالنظام العلمى يكفل له هذا ، ولكنه لا يحتمل منه الانتظار بل يتطلب دائما أفضل الأعمال فى أحسن الأوقات . وهنا لا تكون هناك حاجة لتدخل الرؤساء والمديرين لفترات طويلة ولو حدث تدخل ، فانه يتم فى أضيق الحدود .

فالقائد الإدارى - فى رأى تايلور - لا يجب أن يتلقى سوى تقارير مبسطة وملخصة ومقارنة ولكنها - برغم ذلك - تغطى كل الأمور الواقعة تحت سلطته ، وما دام النظام العام للمؤسسة يسير على روتين واضح ثابت، فان تدخل الرؤساء يكون على نطاق ضيق . . . أى فى الأمور الاستثنائية فحسب على حد تعبير تايلور وهى تلك الحالات التى لم يسبق إدراجها ضمن النظام العام للمؤسسة .

ويشرح تايلور بعد ذلك طريقته العلمية . . . وهو يرى أنها تقوم على سبع دعائم هى :

١ - تقسيم الأعمال الرئيسية فى المؤسسة واللازمة لاتمام العملية الانتاجية ثم اعادة تقسيم كل منها الى « أعمال فرعية » وهكذا حتى نصل الى العناصر الأولية للأعمال المختلفة .

٢ - دراسة وتحليل تلك الأوليات والفروع والأصول ، حتى يمكن الوصول الى تحديد ما لا حاجة له ، أى حصر العمل الزائد الذى لا تحتاجه العملية فعلا .

٣ - دراسة وتحليل طرق أداء الأفراد للأوليات والفروع والأصول بحيث يمكن - مع مراقبة أعداد متفاوتة من الأفراد - الوصول الى أفضل طريقة لأداء كل حركة مع تحديد الوقت اللازم لأدائها .

٤ - انشاء سجلات للأعمال المختلفة والأوقات الزمنية اللازمة لكل منها ، حتى يمكن الوصول الى المستويات النمطية لكل الأعمال .

٥ - اضافة وقت اضافى لمواجهة المفاجآت أو الحوادث غير المتوقعة .

٦ - تحديد نسبة أخرى من « الزمن الاضافى » لمواجهة نقص التدريب أو عدم التعود على العمل .

٧ - دراسة وتحليل الأدوات والأحوال المحيطة والمرتبطة بكل عمل ، حتى يمكن العمل على تحسينها تحت كل الظروف ووضع مستويات نمطية لها .

ثم يشرح تايلور هذه الطريقة بافاضة ويعقد مقارنة بينها وبين الطريقة العشوائية السائدة . . . ويقول : إن أهم ميزة لطريقتى العلمية هى أنها تعطى زمام المبادرة للإدارة العليا للمؤسسة فباستبدال طريقة الأنماط بالعشوائية والشخصية تستطيع الإدارة أن تتحكم فى سير العمليات الانتاجية وتوجيهها وفق رغبتها وبمزيد من الدقة ، فإن هذا يعنى أن لهذه الطريقة مزايا أربعا :

١ - أنها تجعل لكل عمل « نظاما » علميا بدلا من العشوائية السائدة فى الإدارة .

٢ - أنها تختار وتدريب الأفراد علميا على تأدية أعمالهم بدلا من ترك ذلك للأهواء الشخصية للملاحظين .

٣ - أنها تخلق رابطة بين كافة الأفراد . . . أساسها « النظام العلمى » لتأدية سائر الأعمال ولا تترك التعاون بينهم فريسة للأهواء والظروف .

٤ - أنها تقسم المسئولية بوضوح بين الإدارة والعاملين بدلا من تركها حائرة بين الاثنين .

ويضرب تايلور أبسط الأمثلة وأعقدها لتجربة تطبيق طريقته فيبدأ بعملية « حمل كتل الصلب » في الورشة وهي من أبسط العمليات التي لا تستخدم فيها العمال سوى أيديهم ويقرر تايلور أنه بمراقبة عمل حوالي ٧٤ عاملا يشتركون في تلك العملية ، لاحظ أنها تتكون من الخطوات التالية :

- ١ - الانحناء وتلقى ما ذنته ٩٢ رطلا تقريبا من كتل الصلب .
- ٢ - حمل ذلك الوزن والسير به بضع خطوات .
- ٣ - الانحناء لالقاء الكتلة المحمولة في مكان آخر تنقل منه الى داخل الورشة المختصة .

ويقرر تايلور أنه بدراسة حركات هؤلاء الرجال أثناء العمل ، استطاع أن يصل الى توقيت دقيق للعملية بجميع خطواتها . ثم اختار عاملا يمتاز بقوة الجسد وطلب منه العمل تحت اشرافه واتباع تعليماته بدقة وبالفعل وقف تايلور يرشد ذلك العامل ويقول له متى ينحني . . متى يقف . . متى يسير . . متى يستريح . الخ .

وهكذا تحقق تفوق هائل في كفاءة عمل هذا الفرد ، ففي البداية كان متوسط ما يحمله هذا الفرد من كتل الصلب في يوم من أيام العمل هو حوالي ١٢ طنا . وبعد ذلك . . . وبعد تطبيق الطريقة العلمية . . . أمكن هذا العامل أن يحمل حوالي ٤٧ طنا في يوم عمل وحقق لنفسه أجرا إضافيا يوازي ٦٠٪ من أجره اليومي .

ويستخلص تايلور من ذلك أن صلة الانسان بالآلة قابلة للتغيير ، نتيجة للوعي الانساني بعمل الآلة والقدرة على أقلمة النشاط الانساني تبعا لمواصفات العدد والآلات واحتياجات العمل الأصلية .

وقد ظن الكثيرون من الباحثين أن تايلور قد ساعد بهذا الرأي على تسخير الانسان في خدمة الآلة . وليس العكس . . وهذا قصور بعيد عن الحقيقة . فلم ينس تايلور أبدا أن الآلة من صنع الانسان ولكن تعقد العملية الانتاجية واتساعها ، يمكن أن يحول الآلة الى عبء على الانسان ما لم يكن يعرف جيدا كيف يمسك بزمامها ويسيطر عليها . والسيطرة على الآلة معناه النفاذ في أعماق شيء جامد لا احساس فيه ومحاولة تفهم نظامه وميكانيكيته وهذا أمر شاق يتطلب جهدا كبيرا خلافا لما يعتقد .

ولتوضيح ذلك ، يضرب تايلور مثلاً بالعامل الذي يقف في مكان معين من خط الانتاج ويقتصر عمله على انزال يده كل فترة محددة بدقة ليضع جزءاً بسيطاً في هيكل معدني يمر أمامه بنظام ميكانيكي تحكمه الآلة التي تحمله من قسم لآخر . فالآلة في هذه الحالة لا يمكنها فهم العامل ولن تستجيب الى رجائه وتوسلاته ، ولكنها تستجيب الى النظام الذي فرض عليها وما لم توضع طريقة تنظم صلاته بالآلة ، فاننا سنفقد حتماً سيطرتنا عليها ونصبح حينئذ عبيداً لها .

ويتبع تايلور نفس هذا المنطق الذي أثبت به كيف تبدد جهود البشر في اثبات أسباب استنزاف الثروات المادية وضياعها . فالحركات الزائدة . . أو غير المنظمة . . أو غير الموجهة للناس هي المسئولة عن هذا الضياع . هذا يعني أن الانسان هو المسئول الأول والآخر عن عمله وعن مدى ما يحصل عليه من الثروات المادية . وهذه المسئولية تقتضى ضرورة توعية الأفراد ، لأن الوعي ينبغي أن يتوفر للجميع من رؤساء وعمال على حد سواء فهو الذي سيساعد على خلق روابط سليمة بينهم .

ويضرب تايلور أمثلة لتأكيد ذلك من تجاربه الخاصة في مصنع « ميدفال » للصلب ، فهو عندما لجأ الى وسائل الاقناع قد كسب رضا العمال وودهم وهذا يعني تفوق هذه الأساليب على أساليب القهر والضغط التي كان يلجأ اليها بعض الملاحظين والمشرفين في أقسام أخرى من المصنع . والجانب الانساني - الذي يركز عليه تايلور دائماً - لا يجب اغفاله نهائياً . وقد قيل في نقد تايلور انه قد حول العلاقات الانسانية - في نظريته - الى شيء أشبه بالعلاقات الميكانيكية التي لا روح فيها وذلك باخضاعه العمل الانساني لأنماط دقيقة شديدة الصرامة في توقيتها .

وقد رد عليه تايلور عدة مرات في كتابه وبطرق غير مباشرة حين أشار الى تفوق الانسان دوماً اذا توفرت له القدرة على التحكم الدقيق في أعماله . وليس هناك ما يمنع من مساعدة الآخرين بواسطة الخبراء على تحقيق هذا التحكم .

ويدرك تايلور ما يقال عن النفقات الباهظة التي تتكبدها المؤسسة في حالة لجوئها الى الأخذ بالأساليب العلمية ، بسبب حاجتها الى أشربة تسجيل ونماذج مطبوعة وكتب وخبراء دراسات وقت وحركة . . . الخ .

ولكنه يثبت لنا أن استخدام طريقته - رغم كافة التكاليف السابقة - قد حقق وفورات هائلة كما ظهر في شركة ميدفال للصلب وشركة نبلهايم للصلب وهما الشركتان اللتان اتبعتا طريقته فترة ما ، فقد زاد الانتاج في أحد الاقسام ووصلت وفوراته الى ما قيمته ٣٦ ألف دولار سنويا .

ويؤكد تايلور أن في تعميم طريقته ما يضمن الحصول على المزيد من الوفورات . وحدث ارتفاع أكيد في مستوى دخول الأفراد العاملين في المؤسسة . وهو يستند في هذا الرأي الى تجربته الشخصية والى النتائج التى حصل عليها عندما طبق طريقة دراسات « الوقت والحركة و » تحقيق مستويات نمطية للأداء » .

ويهاجم تايلور هجوما شديدا رأى الشائع في بعض أوساط العمال بأن زيادة انتاجية العامل يؤدي حتما الى نقص العمالة ، وهو يرى أن زيادة انتاجية الفرد تساعد على زيادة في انتاجية المجموع ورفاهيتهم . ان الزيادة في الثروة تعنى في آخر المطاف زيادة فرص العمل وليس تقليلها . ويحرص تايلور أشد الحرص على تفهم العمال لهذه الحقيقة .

ومن المسائل التى عنى تايلور بتأكيدا مسألة خبرة الرؤساء وخبرة الأفراد عن طريق تدريبهم . فالمستويات النمطية لا تتحقق الا بالملاحظة المستمرة الطويلة والتى تتم على أسس علمية دقيقة وسجلات تحليلية حافلة ، ولا يتأتى نجاح الهدف من استنباط تلك المستويات الا بفهم الأفراد لها واقتناعهم بها .

وغنى عن البيان أن الطريقة العلمية تفوق في مزاياها الوسائل النظرية التى تعتمد على الضغط والاكراه والاتصالات الشخصية والتقدير الجزافية والفردية ، وقد يحسن اجمال مزاياها فيما يلى :

فمن ناحية ، تضمن الطريقة العلمية وجود علاقة عادلة بين الأجر الأساسى والجهد المبذول .

ومن ناحية أخرى ، الأجور التشجيعية حق مقابل لنتاج اضافى حقيقى وهذا هو خير حافز للأفراد للنهوض المستمر بالانتاج ، لأن دافع الكسب سيحثهم على مواصلة الانتاج .

هذا الكلام يكشف عن جوهر مذهب تايلور ومبتغاه . فالمؤسسة الصناعية - فى مذهبه - لا تبرير لوجودها الا بتحقيقها المستمر والدائب للأرباح ، فالربح هو المقياس الوحيد لنجاح المؤسسة الصناعية ، لأنه يعنى

انها أعطت أكثر مما أخذت وبالتالي عملت على زيادة الثروة القومية . ولكن هذا وحده لا يكفي فمن الواجب أن يشعر العاملون بالمؤسسة الصناعية بأرباحها في شكل زيادة الأجور والمهايا بقدر يتوافق مع كل زيادة في الأرباح .

وأخيرا . . . يجب ألا يتحقق الربح للمؤسسة والعاملين فيها نتيجة لارتفاع مستمر في أسعارها والا كان معنى ذلك أن المجتمع هو الذي يدفع ثمن هذا النجاح .

ولكن الغاية التي يسعى تايلور لتحقيقها ليست « مثالية » بأية حال ، فهو لا يدعو أصحاب الأعمال الى التضحية بأرباحهم في سبيل « اخوانهم » من العمال ، وهو أيضا لا يفترض أن العمال ملائكة يمكن أن يضحوا بأجورهم في سبيل أسعار منخفضة للانتاج .

ان تايلور من البراجماتيين ، وهذا يعني أنه من المؤمنين بالناحية العلمية . . . فهو يدرك تماما أن زيادة الانتاج ستزيد الأرباح والأجور وستساعد على انخفاض الأسعار وبالتالي على اشباع الرغبات كافة .

وأكثر من ذلك . . . فهو يقدم أساليب تحقيق تلك الزيادة ويقدمها بعد دراسات مستفيضة ، قام بها هو بنفسه واستغرقت أكثر من عشرة أعوام أمضاها في الورش الصناعية وكذلك قام بها غيره من مهندسي الصناعات بعد أن تأكدت لهم صحتها .

وفردريك تايلور صاحب رسالة . . . وهي رسالة جديدة في مضمونها وفي أهدافها ، وقد يتصور البعض - وهو يقرأ لتايلور مرة - أنه يحاول أن يحيلنا جميعا الى مهندسين . . . في رعاية حدائقنا الخاصة وفي قيادة سياراتنا وفي ادارة بيوتنا وفي طرق أكلنا ونومنا وذهابنا الى أعمالنا . وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون نتاجا طبيعيا لعقلية تايلور في تجربته الاجتماعية . . . ولكن سرعان ما يتبين لنا - ونحن نقلب صفحات كتابه ونتفهم أفكاره - أن المؤلف رائد حركة صناعية هامة . فهو بحق رائد ثورة ، ثورة من نوع جديد لا تهدف الى نزع الجذور الممتدة في قلب المجتمع أو المساس بعلاقات الانتاج وانما هي ثورة تهدف الى تشكيل الأسس الصناعية تشكيلا جديدا .

وثورة تايلور يمكن النظر اليها ضمن اطار الثورة التكنولوجية التي صاحبت الثورة الصناعية وأعقبتها ، وبهذا يكون مكان تايلور بين

أنصار الثورة الصناعية .. وليس بين الثائرين عليها . فتايلور الذى عاصر أزهى سنوات التفوق الصناعى فى الولايات المتحدة وأعنفها - لم يفقد إيمانه قط بالقيم والعلاقات التى تمخضت عنها تلك الثورة للإنسانية .

فليس فى كتاب تايلور ذلك التمرد الذى نعهد فى كتابات المفكرين السياسيين والفلاسفة الذين عاصروا تلك الثورة ، ولهذا فإن مكانه يجب أن يكون بين المخترعين أمثال « وات » الانجليزى . فتورته التى يمتلئ بها كتابه هى ثورة تكنولوجية أكثر منها سياسية واجتماعية ، لذلك مازال كتاب الإدارة العلمية - حتى يومنا هذا - من المراجع الأساسية لدارسى الهندسة الصناعية والباحثين فى علم التنظيم الإدارى . بل انه لم يحدث فى التاريخ المعاصر أن حظى أى مؤلف فى علم الإدارة فى مجتمع « رأسمالى » بمثل ما ناله كتاب تايلور من المعسكر الشيوعى من اعتراف به وقبول لما جاء فيه ، فان لينين وستالين ، قطبى الثورة البلشفية ، لم يعترفا بأصالة نظرية تاينور فحسب ، بل اعتبراهما معا أحدث « اختراع » فى عالم الإدارة ، وكررا الدعوة الى ضرورة تعلم تلك النظرية وتطبيقها بقدر الامكان فى المؤسسات الصناعية السوفيتية .

فالإدارة العلمية قد أصبحت فوق كل خلاف فى السياسة وأدخل تايلور بكتابته - لأول مرة - دراسات التنظيم والإدارة من باب المعرفة الواسع الذى دخلته من قبل فروع الدراسات العلمية الأخرى .

مراجع مختارة

- ١ - قصة الأدب فى العالم د. أحمد أمين
- ٢ - شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين على أدهم
- ٣ - من أعلام الأدب الفرنسى د. جلال حسن صادق
- ٤ - من أعلام الأدب الأوروبى على كامل
- ٥ - من أعلام الأدب الانجليزى كامل عبد المجيد - فؤاد فهمى
- ٦ - بديع الزمان الهمدانى مارون عبود
- ٧ - مقامات بديع الزمان الهمدانى د. اكرام فاعور
- ٨ - فى الأدب المصرى القديم أحمد عبد الحميد يوسف
- ٩ - فولتير سليم سعده
- ١٠ - فلاسفة أيقظوا العالم د. مصطفى النشار
- ١١ - خطباء صنعوا التاريخ أنور أحمد
- ١٢ - قصة الحضارة ديورانت
- ١٣ - أعلام الفن القصصى هنرى توماس - دانالى توماس
- ١٤ - دائرة معارف الشعب دار الشعب
- ١٥ - الخطابة نقولا زيادة
- ١٦ - أدباء العرب بطرس البستاني
- ١٧ - أبو نواس ابن منظور المصرى ، تقديم ودراسة عمر أبو النصر
- ١٨ - الحب فى التراث العربى د. محمد حسن عبد الله
- ١٩ - فولتير أندريه كريسون ، ترجمة د. صباح فخر الدين
- ٢٠ - الرسائل الفلسفية لفولتير ترجمة عادل زعيتر
- ٢١ - دراسة الحب فى الأدب العربى د. مصطفى عبد الواحد
- ٢٢ - الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب سامى الياقى

اقرأ في هذه الفاصلة

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة في العصور
الوسطى

د. لينراير تشامبرزلايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية أزاء مصر

د. جون شتندر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبة
الر الكومبينا الالهية لداثي
في الفن التشكيلي

د. رمسيس عوض
الادب الروسي قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز في عالم
متغير

فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوربي الحديث ١ ج

شوكت الربيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

د. محي الدين أحمد حسين
الكتشفنة الأسرية والأبناء الصغار

ج. دانيلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د. جومان دورشنر
الحياة في الكون كيف نشأت
وأيّن توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة النطاق الاستراتيجى
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
لدارة الصراعات الدولية

د. مصطفى عطانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين للقضاء
والمحنيين

مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر - الدراما - الحكاية -
للجنة القصيرة »

بيل شول وأبنيت
القوة النفسية للأهرام

د. صفاء خلوصى
فن الترجمة

والف نى مائلو
تولستوى

فكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحديث من المنفى

فيرنر ميرتيدورج
الجزء والكل « محاورات في مضمار
الفيزياء النظرية »

سندنى هوك
التراث الغامض - ماركس
والماركسيون

ف. ع. آبينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه ،
وسائطه »

د. نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً

د. فاضل أحمد الطائى
أعلام العرب في الكيمياء

جلال المشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجسيم

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسى في
منظمات الإدارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للإنسان

د. روجر ستروجان
هل تستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية النواجن

١- سينر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة

د. داعم بيترونيكس
العمل والخطب

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى
ع. رانو نكاياوم جابوتنسكى
الإلكترونيات والحياة الحديثة

أليس مكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايمواند وليامز
الثقافة والمجتمع

ج. فوريس و. ج. نيكستر مور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسترديل راي
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الإنجليزية

لويس فارجاس
المشهد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

قدري حسي واحرون
الإنسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما

بيفيد وليام ماكدرال
مجموعات النقود - صيانتها
تصنيفها - عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نفسي ومنطق

محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
للإنسان ذلك الكائن الغريب

جول ويست
الرواية الحديثة - الإنجليزية
والفرنسية

د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وديالجه

١. انور المدلوى
على محمود طه الشاعر والإنسان

جابريل باير
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر
الحديثة

انطونى دى كرسبنى وكينيث هينوج
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكى ف • س
الزمن وقياسه (من جزء من
البلليون جزء من الثانية وحتى
مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
الجهزة لكيف الهواء

بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط
الاجتماعى

جوزيف دامموس
سبعة مؤرخين فى العصور
الوسطى

س • م • بورا
التجربة الذوقانية

د • عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر
الاسلامية

رونالد د • سديسون وفورمان د •
اندرسون
للعلم والطلاب والمدارس

د • انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر

ولت وليمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد • س • هيس
تبسيط اسيديام

جون لويس يوركهارت
العادات والتقاليد المصرية
من الامثال الشعبية فى عهد
محمد على

الان كاسنيار
الذوق السينمائى

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر
بين النظرية والتطبيق

مريد مريل وشاندرا ويكراما سييج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
براما انشاشة (بين القرية
والتطبيق) للسينما والتليفزيون
٢ •

روى روبرتسون
الهيروين والاينز وانرهما فى
المجتمع

نور كاس ماكلينتوك
صور افريقية • نظرة على
حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة
د • محمود مرسى طه

الكومبيوتر فى مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وقائى الاعضاء فى اللف
الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
قوية اسماء الزينة

احمد محمد الشنوائى
كتب غيرت الفكر الانسانى

جون • ر • برور وميلتون جولدينه
الفلسفة رتخايا العصر ٢ •

ال • ل • تريدى
الفكر انريضى عند الاغريق

د • صالح رضا
ملاحج وقضايا فى الفن
التشعيلى انعامى

م • ه • ك • واخرون
انتغذية فى الجندون النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د • السيد طه السيد ابو سميرة
الحرف والصناعات فى مصر
الاسلامية منذ الفتح العربى
حتى نهاية العصر الناطقى

جاليليو جاليله
حوار حول النظامين اللوتيسيين
للكرن ٢ •

ريك موريس والان مو
الارهاب

سيرل الريد
لخفاتون

ارثر كيمستر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود
اليوم

ب • كولان
الاساطير الاغريقية والرومانية

د • توماس • هاريس
التوافق النفسى - تحليل
المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الاعلى للثقافة
الدليل البيبليوجرافى
روائع الاداب العالمية ١ •

روى آرمن
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

تاجاى متشيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث هذا
ميكايل المبى وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

ليكتور مورجان
قاريخ النكود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع اوتوكستوالى

ابو انقاسم الفرديسى
الشاهنامة ٢ •

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ •

جاءه كرابس جونيور
كتابة التاريخ فى مصر القرن
انقاسع عشر

محمد فؤاد كوبرياى
قيام الدولة العثمانية
تونى بار

التحليل لسينما والتليفزيون

تاجور ، شين ين بنج واخرون
مقارنات من الاداب الاسيوية

ناصر خسرو على
سفرنامة

لنابن جورديمر زجرىس اوجوت
واخرون
سفرنامة المطر وتخصص اخرى

احمد محمد الشنوائى
كتب غيرت الفكر الانسانى
٧ •

جان لويس بورى واخرون
فى النقد السينمائى الفرنسى

العلمانيون فى اوربا
بول كولز

موريس بير براير
صناع الخلود

ريجمونت هير
مماليات فن الاخراج

جوناثان ريلي سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. يتلر
الكنايس القبطية القديمة
مصر ٢ ج

ريشارد شاخز
رواد الفلسفة الحديثة

نرايم زرادشت
من كتاب الاوستا المقدس

الحاج يونس المصري
رحلات فارتيما

هربرت ثيلر
لاتصال والهيمنة الثقافية

بربراند راسل
السلطة والذرد

بيير سيكوللز
السينما الحيايه

اسوار- ميري
الفقد السينمائي الامور

مغالي نويس
مصر الرومانه

سيغر اورمسند
القاريح من شمس جوانبه ٣ ج

موسى برح واحروب
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

فاخر بكار
لهم يصنعون البشر ٣ ج

سام محمد الجرار
ماسنريخت

ميرز كريم الله
من هم انتار

ع س ميري
لكاتب الحديث وعالمه
٢ ج

وريال عبد الله
حديث النهر
من روائع الاداب الهندية

لوريتو فود
مخل الى علم اللغة

سحر عظيموف
الشموس المتفجرة
امرار السوير نوفا

رجريت رور
ما بعد الحداثة

بيارد بودج
لآزهر في الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

ج. ولز
عالم تاريخ الاسلام
٤ ج

جوستاف جرونبيوم
حضارة الاسلام

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
حلة ييرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون تلك المجهول

ارمولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادي اونيمود
المريقيا - الطريق الآخر

محمد زينهم
فن الزجاج

برمسلاو مالبورفسكي
السحر والحلم والدين

ادم مترز
الحضارة الاسلاميه

ماسر بكار
لهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رسالت رحلة فاسكو اجاما

بغري سابور
كونفا المتقدم

سومدر
الفلسفة الجوهرية

مارش فار كرفن
حرب المستقبل

فرانسيس ج. بريجين
الاعلام التطبيقية

عبد مياش
بحرية المصرية من محمد علي
للمصادات

ج. كارميل
تبسيط المفاهيم الهندسية

رماس ليههارت
في المايه والبانثوميه

ادوارد موبوه
التفكير المتجدد

ويليام ه. ماثي
ما هي الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو في السينما الفرنسية

برل وارن
خفايا نظام النجم الامريكي

جورج ستاينز
بين تولستوى ودوستويفسكي
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

حمود سامي عطا الله
الفيلم التسجيلي

جوزيف بيس
رحلة جوزيف بقس

ستانلي جيه سولومود
انواع الفيلم الاميريكي

ماري ب. فاش
الحمر والبيض والصو

جوزيف م. يوجز
من الفرجة على الافلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المواة الفرعونية

جوزيف يندهام
وجز تاريخ العلم والحضارة
في الصين

ليوناردو دافنشي
نظرية التصوير

ج. ه. جيم
غورز القراءة

ودولف فون هابسبرج
رحلة الامير ريدولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برايبري
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٢ ج

مري بيريين
تاريخ اوريا في العصور الوسطى

ديفيد شنيسر
نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عطيموف
العلم والفاق المستقبل

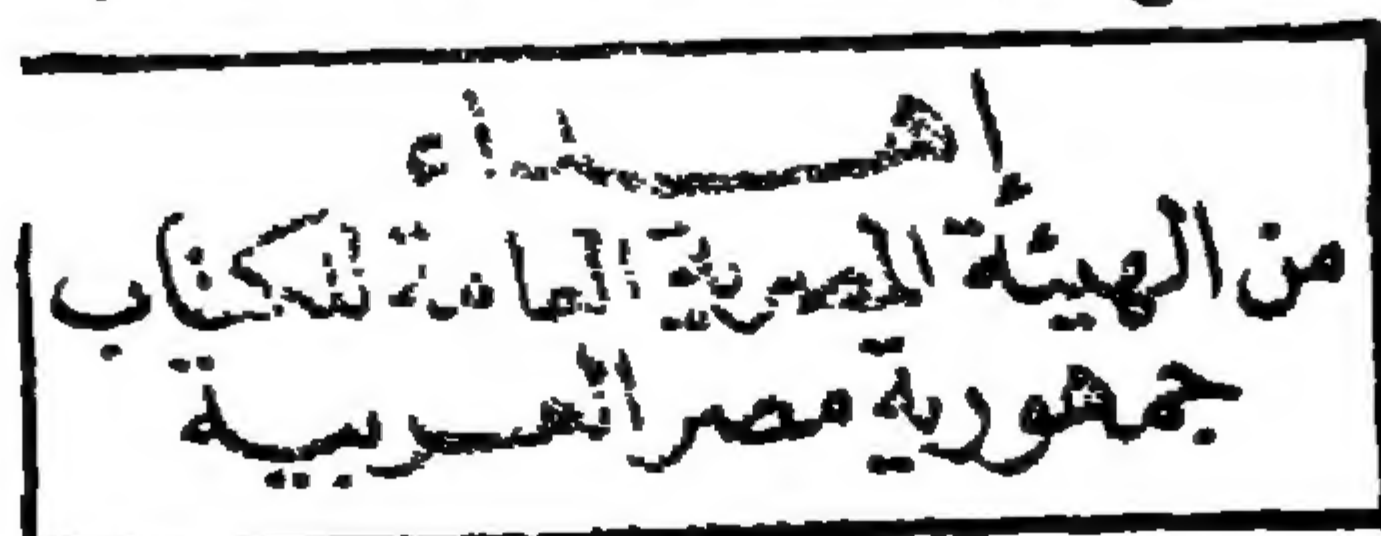
رونالد دافيد لانج
محكمة والجنون والحماة

كارل بوير
منا عن عالم الطفل

لورمان كلارك
الاقتصاد السياسي للعلم
والتكنولوجيا

المسيد نصر الدين المسيد اطلالات على الزمن الاكبر	ومعرد هولز كانت ملكة على مصر	روبرت سكولز وآخرون الهاق أدب الخيال للعلمي
ممدوح عطية البرنامج النووي الإسرائيلي والامن القومي العربي ١	جيمس هنرى برستند تاريخ مصر	ب. من ديفين المفهوم الحديث للمكان والزمان
ليوبوسكالنا الحب	بول دافير الدقائق الثلاث الاخيرة	من. موارد اشهر الرحلات الى غروب افريقية
ايغور ايفانيس مجلد تاريخ الادب الانجليزي	جوريف وهارى فيلدمان سينامية الفيلم	و. بارتولد تاريخ الترك في اسيا الوسطى
هيربرت ريد التربية عن طريق الفن	ج. كونتنو الحضارة الفينيقية	فلاديمير تيمانيانو تاريخ اوربا الشرقية
وليام بينر معجم التكنولوجيا احيوية	ارنست كاسيرو في المعرفة التاريخية	جابريل جاجارسيا ماركيز الجنرال في المتاهة
الفين توفلر تحول السلطة ١ ج.	كنت ا. كنش رمسيس الثاني	هنرى برجسون الضحك
يوسف شرارة مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية	جان بول سارتر وآخرون مختارات من المسرح العالمى	مصطفى محمود سليمان الزلازل
رولاند جاكسون الكيمياء فى خدمة الانسان	روزالد وجاك يانيس الطفل المصرى القديم	م. و. ثرنج ضمير المهندس
ت. ج. جيمر الحياة ايام الفراغة	نيكولاس ماير شرلوك هولز	ر. ر. جرنى الحيثيون
جرج كاشمان لماذا تفشب الحروب ٢ ج.	ميجيل دى لييس الفران	ستيفر موسكاتو الحضارات الساميه
حسام الدين زكريا انطون بروكتر	جوسيبى دى لونا موسوليني	البرت حوراني تاريخ الشعوب العربية
ارراف هوجل المعجزة اليابانية	الوير جرايتر موتسارت	حمود قاسم الادب العربى المكتوب بالفرسية
	على عبد الرؤوف الصمر عن. ت. من الشعر الاسباني	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٥٢٤١

ISBN — 977 — 01 — 5654 — X

من الأدب المصري القديم
 أسطوره آشورية
 فاليميكي
 ديموستين
 أبو نواس
 ابن داود الظاهري
 المسعودي
 بديع الزمان الهمداني
 بوكاشيو
 سويفت

• أنشودة النيل
 • أسطورة سميراميس
 • ملحمة الراماياتا
 • خطب ديموستين
 • ديوان أبو نواس
 • كتاب الزهرة
 • مروج الذهب
 • مقامات بديع الزمان
 • الديكاميرون
 • رحلات جليفر

